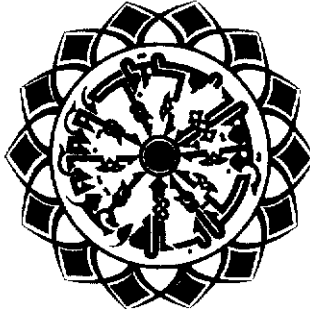


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



سَائِلُ الثَّقَلَيْنِ

مَجَلَّةُ اِشْلَامِيَّةِ جَامِعَةِ

العدد السابع والثلاثون • السنة العاشرة • المحرم الحرام - ربيع الأول ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م

المراسلات والاتصالات مع رئيس التحرير على العنوان التالي :

* الجمهورية الإسلامية في إيران - قم . ص . ب : (٨٩٤ - ٣٧١٨٥)

* هواتف : ٧٧٤٠٢٩٤ ، ٣ ، ٧٧٤٠٧٧١ فاكس : ٧٧٣٥١٧٩

* موقعنا على الانترنت :

www.ahl-ul-bayt.org

رسالة الثقلين

مفاتيح اسلامية جامعة

- تسعى بإهداء المعارف الإسلامية من منبع الثقلين والدفاع عن حريم القرار الكريم والسنة الشريفة لرسول الأمين ﷺ وأهل بيته الطيبين الطاهرين (عليهم السلام).
- تستقبل مساهمات العلماء والمفكرين والكتّاب الاسلاميين التي تسبب في رسالة الثقلين لتكريس وحدة الامة الاسلامية وتثبيت شوكتها في أرجاء العالم.
- الاراء الواردة فيما يُنشر لا تعبر بالضرورة عن رأي المجمع أو المجلة.
- تسلسل الموضوعات يخضع لاعتبارات فنية.
- يُرجى ممن يرقد المجلة بمنتجاته الاحتفاظ بصورة منها، فإنها لاتعاد نشرت أم لم تنشر.

مقتويات العدد

□ كلمة التمرير

✽ الثقلان المباركان محورا الحركة التغييرية للإمام الخميني (ع)

..... بقلم رئيس التحرير ٤

□ من أحاقب الضيافة الإسلامية

✽ دور العلماء في بناء الحضارة الإسلامية

..... ولي أمر المسلمين آية الله العظمى السيد الخامنئي (دام ظلّه) ١٧

□ دراسات

✽ هدف الحياة الإنسانية (٢)

..... الشيخ مرتضى المطهري ٥٥

✽ نظرية الإمامة : الإمامة في أهل البيت (ع)

..... السيد محمد باقر الحكيم ٩٢

□ من فضاء مدرسة أهل البيت (ع)

✽ قواعد أصول الفقه :

٣ - قاعدة : الحقيقة الشرعية

٢ - قاعدة : الصحيح والأعم

..... اعداد : لجنة في مجمع فقه أهل البيت (ع) ١١٤

□ من تاريخ أهل البيت (ع)

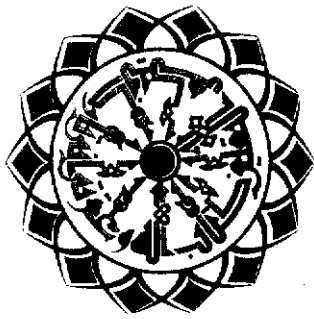
✽ الطاعة والثورة في النهج السياسي للإمام الحسين (ع) (٢)

..... الدكتور أحمد عبدالمجيد حمود (استراليا) ١٣٠

□ من أعلام مدرسة أهل البيت (ع)

✽ الشيخ علي بن محمد السمري «السفير الرابع»

..... حسين الشاكري ١٦٤



المجلد الثاني من سلسلة التذكرة

المجلد الثاني من سلسلة التذكرة

المجلد الثاني من سلسلة التذكرة

المجلد الثاني من سلسلة التذكرة

المجلد الثاني من سلسلة التذكرة

○ العدد السابع والثلاثون

○ السنة العاشرة

○ المحرم الحرام = ربيع الأول

١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م

○ المطبعة، بعلبك

□ رأي

※ نحو انقاذ التاريخ الإسلامي

..... الشيخ فرحان حسن المالكي «الحجاز» ١٨٩

□ أدب في رهاب الثقيلين

※ تصالح الأغراض والمفاهيم المتعارضة في شعر أبي فراس الحمداني

..... الشيخ محمد علي التسخيري ٢١٠

※ قصيدة: أبا الشهداء السيد محمد جمال الهاشمي ٢٢٤

□ من أبناء القرى

※ الجمهورية الإسلامية في إيران :

دعوة من سماحة القائد: تفكير علمي عصري ومكافحة

التحجر لمواجهة مخططات الأعداء ٢٢٧

※ فلسطين : ذهب باراك .. جاء شارون : لاهمائم ولا صقور ..

كلهم ذئاب ٢٣١

تهويد القدس مخطط صهيوني خطير ٢٣٥

※ تركيا : أنقرة تختار طريقاً وعرأ إلى الاتحاد الاوربي ٢٤٣

※ فرنسا : على خلفيات قرار الجمعية الوطنية الفرنسية والاعتراف

بمذابح الأرمن ٢٤٨

※ نفقات التسليح : مليارات لقتل الاصحاء ، والجيايع يئنون ٢٥٢

※ أميركا : مصداقية ما أعلنته الحكومة الأميركية عن ساسيتها

الخارجية أمام الاختبار ٢٥٥

..... اعداد : قسم الأرشيف

□ مع قراء الثقيلين

※ رسائل وتقويمات

«رسالة الثقيلين» قوية الأداء رفيعة المستوى - إبراهيم محمد جواد (سوريا)

عندما قرأت «رسالة الثقيلين» كدت أطيح فرحاً وسروراً - عبدالرحيم روزي النوري

..... غواري (بلتستان شمال باكستان)

..... اعداد : قسم العلاقات ٢٦٠

الثقلان المباركان

محورا المركة التغييرية للإمام الخميني (ع)

بقلم رئيس التمير

إذا كان التعرف على الإمام الخميني الكبير (ع) يتم من خلال النظر إلى تاريخه الجهادي سيرةً ومواقف وخطابات ، فإن تقفّيه وتلمّس أبعاد شخصيته ومنهجه التغييري من خلال وصيته الإلهية السياسية أمر غير عسير ، سيما إذا لاحظنا طبيعة الوصية التي اتصفت بالسعة والشمول ، وتعدّ في محتواها خلاصة لخطه الإسلامي الرائد ، وصورة مجسّدة لمنهجه التغييري الأصيل ، حيث حرص الإمام الخميني (ع) على أن يخلف في الأمة وثيقة تصلح أن تكون برنامجاً فكرياً وسياسياً وأخلاقياً . ليس للجيل الذي عاش في كنفه ونهل من معينه



(*) بمناسبة الذكرى السنوية لرحيل قائد الأمة الكبير ومفجر الثورة الإسلامية الإمام الخميني (ع).

وحسب ، بل وللأجيال القادمة التي سوف تجد قائدها وسرَّ نهضتها وديمومة حركتها في نفحات هذه الوصية الإلهية السياسية ، ولسوف تعي ربانية القائد الذي لم تدركه في حياته ، ولكنه استطاع أن يتواصل معها ويحمل همومها وآمالها بجدارة لا نظير لها . كما تجده في كل كلمة أو نداء موجَّهٍ إليها . فقد أكَّد الإمام الراحل في وصيته على «الأجيال القادمة» بشكل يدلّ على بعدٍ مهم من أبعاد شخصيته ، وعمق نظرته وسعة أفقه واهتماماته الكبيرة ، فالقيادات بلحاظ الامتدادات يمكن أن يكون بعضها منحصراً بحدود الزمان والمكان الذي تعيش فيه ، وربما تكون ناجحة بلحاظ هذه الحدود بيد أن القيادات الأكثر عمقاً ومساحة هي تلك التي تتجاوز المكان والزمان في وجدانها وتأثيراتها ، والأكفأ من النموذجين السالفين القيادة التي تمثل في حركيتها ومحتواها حالة الامتداد والوصل بين الأزمنة الثلاثة (ماضياً وحاضراً ومستقبلاً) ، وهي بطبيعة مهمتها ورسالتها العالمية مستوعبة لجميع المساحات ولبني البشر كافة .

والإمام الخميني رحمه الله يعدّ نموذجاً فريداً في عصرنا الراهن للقيادة الناجحة التي استطاعت أن تسبر غور التأريخ دون أن تتجمد فيه أو تتكلس في موروثاته بقدر ما استلهمته في معانيه وإشراقاته وتجاربه ، واستثمرت ذلك كله في عملية توفيق متحرك نحو الأهداف الكبيرة لم يغفل فيها الحاضر وخصوصياته ، ولم يتوقف عنده أو ينصهر به ، ومن هنا استطاع الإمام أن ينطلق إلى المستقبل ببصيرة رسالية تخاطب الحياة والأجيال والمستقبل ، وهي حاضرة في كل آن ومكان .

بالإضافة إلى ذلك كان الإمام في رتبة النياية العامة عن المعصوم عليه السلام ، صلة السماء بالأرض ، في وقت انقطع الإنسان في غيبوبة جهل وعزلة

عن تعاليم السماء، فظنّ أن لا إبداع لها ولا أثر، فجاء الإمام ليؤكد هذه الصلة فيها، تحدوده غايات وأهداف الرسول ﷺ وأهل بيته الطاهرون (عليه السلام). فهو إذن وعيٌ تشكّل واختمر في كل هذه العوالم والمساحات، فأطلّ عملاقاً آتياً من كبد السماء ومن رحم التاريخ وسكون الحاضر ومن انتظار المستقبل وآفاقه، ومن هنا كان قائداً فذاً ملك قلوب الملايين الأحرار (المسلمين والمحرومين) حباً وولاءً، وقدوة وأسوة، ومثلاً معاصراً قلّ نظيره.

وخصيصة أخرى ارتسمت في وصية الإمام وفي جميع آثاره. تلك هي عالمية النظرة لديه والخطاب حيث تتساوى عنده الشعوب المستضعفة، ويكون الإنسان في وجدانه هو الإنسان أينما كان، ومظلوميته واستضعافه هما مظلومية الحقيقة التي كرّمها الله وأحسن خلقتها، وفي نظره هذه التي جاءت تخاطب الإنسان بمطلقة دون استثناء، تأصل واندكك بطبيعة الرسالة التي أخذ الإنسان في خطابها مركزاً حيويّاً وأساسياً، وتعد هذه الخصيصة من أبرز خصائص القيادات الرسالية الناجحة، والتي تدلّ على عظمة النفوس التي حملت في دواخلها مآسي البشرية واستغاثات المظلومين، لا فرق بين أسودهم وأبيضهم، عربهم وأعجمهم، كما تدلّ على وحدة العوامل التي استضعفت البشرية وعلى وحدة الرؤى والنظرية التي تنفذها من هذا الاستضعاف.

وفي ضوء ذلك يرى الإمام الناس من خلال كونهم فئتين: فئة مستكبرة وأخرى مظلومة مستضعفة، وبينهما أفكار ومناهج وأنظمة هي سبب البلاء، فحينما يدّون نظريته إنما يدّون الأسباب التي تنقذ الإنسان من عبوديته ورقّه لغير الله «والقرآن والسنة مشحونان

بالنصوص المعينة المرتبطة بدور الإسلام الكبير في الشؤون السياسية، ولقد أسس نبي الإسلام ﷺ حكومة كسائر حكومات العالم، ولكنها تمتاز عنها بدافع إقامة العدالة الاجتماعية وبسطها^(١)، ويحتاج الأمر معه إلى ذكر الوسيلة وشمول الخطاب، وبطبيعة الحال ينفذ وعي الإمام الراحل ﷺ إلى أعماق الحقيقة الإنسانية المقهورة، ليأخذ دوره في التحريك والتحرير المقدس «فانتفضوا يا مستضعفي العالم وأيتها البلدان الإسلامية ويا أيها المسلمون وانتزعوا الحق بقوة»^(٢).

وعن ديمومة منهج الإمام وقدرته على الاستمرار والمواكبة نعتقد بأنه مادام يمثل في خطابه (الفكرية والسياسية) وفي غاياته، ذلك الانبثاق الحي للرسالة وغاياتها.

ومادام ينتزع مقولاته من حقيقة الشرع الإسلامي والشمولية المتصف بها، ومادام يتعاطى مع ثوابت الواقع، فإنه ودون شك يحمل معه مقومات الحياة والاستمرار، وسيحكم عليه بالبقاء يلاحق الزمن ويلبي حاجات الإنسان في مستوى أهدافه الكبيرة وحاجاته الملحة تماماً كما اتصفت به سيرة الأئمة الأطهار لأن سيرته من سيرتهم ﷺ، ولهذا فإن استمرارية خط الإمام ومنهجه ليس شيئاً نحاول أن نفرضه أو نتلمس الاستدلال عليه، وإنما هو حقيقة ملازمة لطبيعة فكره ومحتواه، فمنهجه مستمد من الطبيعة الرسالية للتقلين (القرآن والعتر الطاهرة) حيث كتب لهما البقاء والديمومة والرسوخ، ونموذج ذلك وصيته الإلهية السياسية التي لخصت منهجه في كافة المجالات وبالأخص السياسية منها.

(١) الوصية الإلهية السياسية لإمام الأمة الراحل ﷺ.

(٢) م. ن.

والثقلان اللذان أوصى بهما رسول الله ﷺ في الحديث المشهور عند المسلمين سنة وشيعة ، هما كتاب الله وعترته أهل بيت النبوة والعصمة الأئمة الاثنا عشر عليهم السلام . وقد قرن الرسول ﷺ في الحديث التمسك بهما بعدم الضلال ، وبعكسه يكون الضلال .

والسر يرجع في ذلك إلى أن إرادة الله تعالى وحكمته ومعرفته بمصالح عباده قد تجلّت بهذين المظهرين الكتاب والعتره ، ولهذا السبب أمسى وجودهم مرادفاً لوجود الرسالة والأصالة ، ومن هنا لا نفهم من موقف رسول الله ﷺ بعد آخر حجة ، حينما أحسّ بقرب الرحيل بتأكيده على الثقلين في خطابه أمام جمهور المسلمين وصفوفهم العائدين تَوْأً من أداء فريضة الحج ، إلّا كونهما أساس الإسلام وسرّ بقائه وبدونهما تنحرف الأمة وينتشر الضلال ، وهذا ما حدث بعد رسول الله ﷺ ، عندما أقصيت العتره الطاهرة عن دورها الإلهي في قيادة المسيرة ، وتبعاً لذلك أقصي الإسلام عن دوره الحضاري الرائد ، حتّى صارت الأمة الإسلامية غطاء كغشاء السيل تنهاوى عليها الأمم تنال منها ومن كرامتها .

ولا نشك في أن الإمام عليه السلام في ذكره حديث الثقلين في مقدمة وصيته ، ومن ثم تأكيده على المظلومية التي لحقت بهما من حكام الجور آنذاك وحثه الشعوب الإسلامية على التمسك بهما بعد شرحه وتبيانه لآثارهما على مسيرة الثورة والإسلام من إيران ، يقع تحت نفس الغاية والاهتمام اللذين دفعا برسول الله ﷺ على التأكيد عليهما قبل رحيله في حجة الوداع ، بفارق أن الإمام حينما صدع بذكر أهمية حديث الثقلين أراد أن يؤكد - بالإضافة إلى ما أراده الرسول ﷺ - بأن التشيّع لأهل البيت عليهم السلام والثورة الإسلامية والتأريخ الجهادي لأبناء الإسلام ... كلها من ثمرات هذه الحقيقة التي تدعو دوماً للاعتزاز وتهدى إلى الرشد والكمال ، حيث

يقول الإمام في وصيته الإلهية السياسية : «نحن نفخر بأننا أتباع مذهب وضعت أسسه بأمر من الله ورسوله الأكرم ، فيما كلف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، هذا العبد المُحرر من جميع الأغلال ، بتحرير البشرية من كافة القيود والعبوديات ... نحن نفخر بأن أئمتنا هم الأئمة المعصومون بدءاً من علي بن أبي طالب وختماً بمنقذ البشرية الإمام المهدي صاحب الزمان - عليه وعلى آبائه آلاف التحية والسلام - وهو بمشيئة الله القدير حيّ يراقب الأمور ..

نحن نفخر بأن مذهبنا هو المذهب الجعفري ، ففقهنا هذا البحر الزاخر الذي لا ينضب هو من آثار جعفر الصادق عليه السلام .. نحن نفخر بأن أئمتنا المعصومين - صلوات الله وسلامه عليهم - قضوا حياتهم سجناً ونفيّاً وتشريعاً في سبيل رفعة الإسلام وتحقيق أهداف القرآن الكريم»^(١).

والإمام بهذا التأكيد أراد أن يثبت أهداف الأئمة التي هي أهداف القرآن الكريم ، وبالتالي أهداف شيعتهم بعدهم ، ومن هنا نجد الإمام يحث الشعوب الإسلامية على التمسك بحبل العترة وسيرة أهل البيت عليهم السلام بغرض إيقافها على فواعل الانعتاق والثورة والرقى ، حيث يقول عليه السلام : «والتمسك - بكامل التأكيد - من الشعوب الإسلامية أن تسير على نهج الأئمة الأطهار ، فلا تألوا جهداً في التضحية بالغالي والنفيس والأعزة وأتباع هؤلاء ، هداة البشرية العظام ، في المجالات الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية ، وكمصداق على ذلك أن لا يتخلوا ولا ينحرفوا ولو قيد أنملة عن الفقه العريق ، وهو مرآة تبيان مدرسة النبوة والرسالة والإمامة وهو ضمانة رقي وعظمة الشعوب بأحكامه

الأولية والثانوية»^(١).

وهكذا يبين الإمام للشعوب المسلمة أسباب وموجبات الرقي والعظمة ، ويحثهم على التمسك بفقهِه مدرسة أهل البيت العريقة ، هذه المدرسة التي نهل من علومها إمامنا الراحل وتشكّلت شخصيته ضمن أبعادها ومعطياتها ، فأمسى في كل سماته صدوراً واعياً وتجسيداً حياً لملاحمها في شتى الجوانب الأخلاقية والسلوكية والمنهجية والفكرية ، وهكذا «لم يكن الإمام الخميني في طرحه لشعار الجمهورية الإسلامية إلا استمراراً لدعوة الأنبياء وامتداداً لدور محمد وعلي عليهما السلام في إقامة حكم الله في الأرض»^(٢).

وفي هذا المعنى وفي إطار التأثيرات التي تركت بصماتها على نهج الإمام ونظريته التغييرية تلقى الضوء على مفردة كان لها الوجود المميز في نظرية الإمام التغييرية ، وهي تعود في أصولها إلى تراث العترة الطاهرة التي جسدت المعاني الحقيقية للإسلام .

تلك هي رفض الظلم والظالمين ونصرة الحق والمظلومين والإصرار على ذلك ، والذي يُعدُّ معلماً بارزاً وسمة تميّز بها الإمام عليه السلام وشكّلت بعداً صارخاً من أبعاد نهجه ونظريته السياسية قبل نجاح الثورة الإسلامية وبعدها ، لا فرق عنده بين أن يعلنها بوجه الشاه المقبور أو بوجه عملاء أميركا أو القوى الكبرى في العالم ، كما أنه لا فرق عنده بين أن يساند الشعوب المستضعفة والمحرومة كلها ، دونما تمييز بين شعب وآخر . فالاستضعاف عنده حالة عالمية تماماً كالاستكبار ، ومهما تنوعت وتشعبت مصاديق كلا الحالتين في الواقع الإنساني فإنه يظل حيالهما ذا

(١) م . ن .

(٢) الشهيد الصدر، في بيان بعثه للأمة الإيرانية بعد انتصار الثورة الإسلامية.

موقف يتميز بالثبات والمبدئية .

هذه الخاصية إنما هي في حقيقتها مستلّة من واقع الأئمة الأطهار فيما سجّلوه في عصورهم من مواقف بطولية مشرّفة بوجه الظلم والظالمين والمستكبرين ، بحيث شكّلت هذه السمة أساساً ارتكزت عليه سيرتهم وجهادهم ، حتى كلّفهم ذلك حياتهم ، فقتلوا شهداء ، إمّا مقتولين بحدّ السيف أو مسمومين ، فضلاً عمّا أصابهم من أذى ومطاردة وسجن .
وكان ذلك رائداً فكرياً وسلوكياً للإمام ، دعاة غير مرّة للافتخار والاعتزاز : «نحن نفخر بأن أئمتنا المعصومين (صلوات الله وسلامه عليهم) قضوا أعمارهم سجنًا ونفيًا وتشريدًا في سبيل رفعة الإسلام وتحقيق أهداف القرآن الكريم وأحدها تأسيس الحكومة العادلة وأستشهدوا في جهادهم لإسقاط حكومات الجور والطغيان في عهودهم»^(١).

ولا يخفى ما لواقعة الطف وثورة الإمام الحسين عليه السلام من أثر بارز وكأنّه تلك الصرخة التي أطلقها الإمام الحسين عليه السلام في الثورة بوجه الظالمين والمستكبرين ، ومن هنا يؤكد الإمام عليه السلام غير مرّة على إحياء شعائر العزاء والولاء للإمام الحسين عليه السلام ويؤكد أيضاً على ممارسة وإعلان البراءة من آل أمية وظالمي آل محمد واللعن عليهم ، وفي مثل هذه الممارسة استحضار دائم للثورة وللأهداف وتقويم دائم للواقع على أساس معادلة الحق والباطل ومصاديقهما في كل عصر .

ومن هنا يشير الإمام ويوصي الشعوب الإسلامية بأن «لا يغفلوا حتى للحظة عن إقامة شعائر مراسم العزاء للأئمة الأطهار لا سيما سيد المظلومين ورائد الشهداء أبي عبد الله (صلوات الله الوافرة وصلوات

(١) الوصية الإلهية السياسية لإمام الأمة الراحل عليه السلام .

أنبيائه وملائكته الصالحين من عباده على روحه الملحمية العظيمة)، وليعلموا أن تأكيدات الأئمة عليهم السلام على إحياء هذه الملحمة التاريخية الإسلامية وأوامرهم بإدامة اللعن على ظالمي آل البيت نابعة من كونها تمثل كل الصرخات الأبية الشجاعة للشعوب بوجه الظالمين على مدى التاريخ منذ الأزل إلى الأبد، واعلموا بأن اللعن الدائم على بني أمية (لعنة الله عليهم) يمثل ورغم انقراضهم وورودهم جهنم وبئس الورد المورد صرخة اللعن والرقض لظالمي العالم، ففي إحياء هذه الصرخة إبادة للظلم^(١).

وهكذا يصبح الامتداد حياً.. آخذاً صوراً بطولية وملحمية شاخصة في الصراع والتحدي المريرين للشعوب المستضعفة المظلومة وقضاياها الحقّة، وبين القوى الطاغوتية الكبرى والمحلية، كظالمين مستكبرين، والمحصلة النهائية تكون في انتزاع الحقوق المهضومة. «وضروري أن نبين جرائم الظالمين في كلّ عصر ومصر وبصورة معبرة قاصمة ضمن مراسم العزاء ومراثي أئمة الحق عليهم السلام، وفي أشعار مناقبهم أيضاً، ويتأكد الأمر من هذا الزمان وهو زمان تعرّض العالم الإسلامي فيه لشتى أشكال الظلم على أيدي أميركا وروسيا وسائر عملائهم عليهم لعنة الله وملائكته ورسله»^(٢) ذلك بالإضافة إلى أن المراثي الحسينية ومراثي أئمة أهل البيت عليهم السلام التي يقيمها الموالون تتحول تلقائياً بحكم وضعيتها والدوافع التي تأسست من أجلها إلى منابر إعلامية تصنع الرأي العام وتحفّز الهمم والأفكار ضمن مفاهيم أساسيين، هما سرّ الثورات والوعي السياسي والإباء الذي يتميز به أتباع

(١) م. ن.

(٢) م. ن.

أهل البيت عليهم السلام عمّا سواهم :

الأول - الظالمون وجرائمهم .

الثاني - المظلومون ومآسيتهم .

ويظل البحث عن مصاديق هذين المفهومين في كل عصر ومصر ليس عسيراً ، فنجد أن الموقف اللازم اتخاذه ازاء الظلم كامن في طبيعة هذه المراسيم والشعائر ولن يكون غير الثورة والتحدي والجهاد المرير . ولا يشك أحد في أن العترة الطاهرة ظُلمت أيّما ظلم واضطهدت وعملت بتعسف يندى له الجبين ، وتعتصر له القلوب ألماً ومرارة ، ولم يكن لهم من ذنب سوى أنهم كانوا الامتداد الإلهي لخط الرسالة وكانوا أمناءها والرقباء عليها . وكانوا بحق ، وبما يمتلكون من صلة قرابة ونسب مع الرسول صلى الله عليه وآله ، الثقل الذي لا يوازيه غير ثقل القرآن الكريم ، وكلاهما يمثلان الرسالة والدين وهذا ما أراده الله تبارك وتعالى ، ومن هنا فإنّ أيّ تجاوز لأحدهما ينسحب على الآخر : «إن كل ما ألمّ بأيّ من الثقلين بعد الوجود المقدس لرسول الله صلى الله عليه وآله قد أصاب الثقل الآخر وأن هجر أيّ منهما هجرٌ للآخر»^(١) .

وفي النتيجة تنعكس الآثار السلبية على الرسالة والأمة لا بل وعلى مستقبل البشرية جمعاء : «وينبغي القول بأن ما أصاب وديعتي الرسول صلى الله عليه وآله من ظلم الطواغيت ظلم للأمة الإسلامية ، بل للبشرية جمعاء ويعجز القلم عن تبيانها»^(٢) .

وفي السياق التاريخي للظلم الذي لحق بالثقلين كانت البداية مع العترة ، حيث أقصيت من منازلها التي أنزلها الله إياها وأبعدت عن دورها في سياسة العباد وإدارة الحكم ، ومن ثم محاولة إبعادهم عن مواقعهم

(١) م . ن .

(٢) م . ن .

في الحياة وطمس معالمهم وتشويههم وانتهى الأمر بكل واحد منهم إلى المحاصرة في البيت أو في طوامير السجون حتى الشهادة ، وكان طبيعياً أن يسري الانحراف في الأمة . وتشوّه معالم الدين ويتربّع على مناصب الحكم وإدارة المسلمين أناس جاهلون ومنحرفون امتدت أيديهم القدرة إلى الثقل الآخر بعد أن فرغت من العترة ظلماً وتزويراً وإجحافاً : «ولنرى ما جرى على القرآن ، هذه الوديعة الإلهية ، وما تركه موت رسول الله ﷺ من نوائب مفاجئة حريّ أن نبكي عليها دماً ، بدأت بعد استشهاد الإمام علي عليه السلام .

فقد أستغلّ عبّادُ الأنا والطواغيت القرآن الكريم وأتخذوه وسيلة لتأسيس حكومات معادية للقرآن وأبعدوا مفسري القرآن الحقيقيين والعارفين بالحقائق الثابتة ممن تعلموا القرآن كله من الرسول الأكرم ﷺ أبعدوهم بذرائع شتى ومؤامرات معدّة في وقت لم يزل فيه نداء «إني تارك فيكم الثقلين» مدوّياً ، في أسماعهم ، وعطّلوا القرآن الذي كان وما يزال الدستور الأعظم لحياة البشر وشؤونهم المادية والمعنوية حتى يردوا الحوض ، وأبطلوا حكومة العدل الإلهي ، وهي أحد أهداف هذا الكتاب المقدس ، وأسسوا أساس الانحراف عن دين الله وكتابه والسنة الإلهية ، فبلغ الأمر حداً - يخلج القلم عن تبيانهِ» (١) .

هذا الظلم الذي لحق بالثقلين والعواقب الناجمة عنه ، خلّف بصمات مؤثّرة على مستقبل الأمة وأهدافها ضمن اتجاهين :

الأول - إيجابي ، تميز به أتباع أهل البيت طيلة تاريخهم ، وتبلور في قياداتهم ، سيما في القيادة الحكيمة لإمام الأمة الراحل ﷺ ، وهو الوعي التاريخي الصحيح ، حيث يختزن أتباع أهل البيت ﷺ في وعيهم جميع

التدخلات والملابس التاريخية التي انتهت بإقصاء الثقلين عن دورهما في الحياة ، بالإضافة إلى وعيهم لحجم الانحراف وامتداداته في واقع الأمة ومستقبلها ، ومن هنا يمتزج الألم والوعي في نفوسهم على طول الخط ، وتكون المحصلة النهائية دائماً هي الثورة والجهاد .

الثاني - سلبي ، حيث تمادى الانحراف وبلغ أمداً طال حتى الأجيال المعاصرة ، ولن يكتب له التوقف قبل أن تعي الأمة أدوارها وتفهم أصالتها وطبيعة المؤامرة المحاكاة ضد مقدساتها وجذورها الضاربة في أعماق التاريخ الإسلامي .

ومن هنا يقول الإمام في وصيته : «بلغ الانحراف درجة أن الحكومات الجائرة ، والخبثاء من فقهاء البلاط - وهو أسوأ من الطغاة - اتخذوا من القرآن وسيلة للظلم وترويع الفساد وتسويق أعمال الظلمة والمعاندين لإرادة الحق تعالى ووا أسفاه ! أن القرآن وهو كتاب الهداية لم يعد له من دور سوى المقابر والمآتم بسبب الأعداء والمتآمرين والجهلة من الأصدقاء ، كان الحال كذلك وما زال ، فأصبح الكتاب الذي ينبغي أن يكون محوراً لتوحيد المسلمين والعالمين ودستوراً لحياتهم ، أصبح وسيلة للتفرقة وإثارة الخلاف أو عطلّ دوره كلياً ، وقد رأينا كيف يعتبر مرتكباً الكبائر من يناهز بالحكومة الإسلامية ويتحدث باسم السياسة ، في حين أن سيرة الرسول ﷺ والقرآن والسنة مشحونة بالنصوص المعنية بدور الإسلام الكبير في الشؤون السياسية ، وأصبح وصف عالم الدين السياسي مرادفاً لوصفه بالفاسق ، وما زال هذا الوصف موجوداً ، وأخيراً آل الأمر إلى أن تعتمد القوى الشيطانية الكبرى من أجل محو القرآن وحفظ مطامعها الشيطانية إلى أن طبع القرآن بخط جميل ، وتمّ توزيعه على نطاق واسع ، وتنفذ ذلك بأيدي الحكومات المنحرفة التي تتظاهر بالإسلام زيفاً ، وهي بعيدة عن تعاليمه ، وبهذا

المكر الشيطاني تعطل القرآن»^(١).

وهكذا فالفهم الصحيح ، والوعي التاريخي لمظلومية ودور الثقلين يشكل مقدمة أساسية للشعوب المسلمة لكي تعي استمرارية وحجم المؤامرة المحاكاة ضدها ، ولن يكون ذلك كافياً بمفرده للانعتاق والتقدم قبل أن تلتزم الأمة الإسلامية بالنهج الأصيل للإسلام .

وذلك باتباعها ما أوصى به رسول الله ونبينا محمد ﷺ وما أكدّه إمامها الخميني العظيم ﷺ «والتمس بكامل التأكيد من الشعوب الإسلامية أن تسير على نهج الأئمة الأطهار ، فلا تألوا جهداً في التوضيح بالغالي والنفيس والأعزّة واتباع هؤلاء هداة البشرية العظام في المجالات الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية كافة ، وكمصداق على ذلك أن لا يتخلفوا ولا ينحرفوا ولو قيد أنملة عن الفقه العريق ، وهو مرآة تبيان مدرسة النبوة والرسالة والإمامة وهو ضمانة رقي وعظمة الشعوب بأحكامه الأولية والثانوية وجميعها من مدرسة الفقه الإسلامي»^(٢).

وهكذا يبقى نهج الإمام الخميني الكبير ﷺ هو نهج الثقلين المباركين وستستمر ثورته التغييرية على هذا النهج الإلهي في خلفه الصالح الإمام الخامنئي (دام ظله) وستبقى الأمة في نهضتها عزيزة كريمة مجاهدة مادام محورها ثقلاً الرسالة المجيدتين «القرآن الكريم والعترة الطاهرة» حتى يحقق الله وعده الحق : ﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين﴾^(٣) صدق الله العلي العظيم .
والحمد لله رب العالمين .

(١) م . ن .

(٢) م . ن .

(٣) القصص : ٥٠ .

دور العلماء في بناء الحضارة الإسلامية

❁ ولي أمر المسلمين آية الله العظمى
السيد الفاضل «دام ظلّه»

من كلمة لولي أمر المسلمين وقائد الأمة الإسلامية سماحة آية الله العظمى
السيد علي الخامنئي «دام ظلّه» في جمع غفير من الأساتذة والفضلاء وطلبة الحوزة
العلمية في قم المقدسة بتاريخ ٧ رجب ١٤٢١ هـ. ق / المدرسة الفيزيائية - قم
المقدسة .

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا ونبيّنا
سيد الأنبياء والمرسلين ، حبيب قلوبنا أبي القاسم المصطفى
محمد ، وعلى آله الأطيبين الأطهرين المنتجبين الهداة المهديين
المعصومين ، سيما بقية الله في الأرضين .
إنها لفرصة طيبة ومثيرة أن أكون في خدمتكم في هذا الاجتماع
العظيم أيها العلماء المحترمون ، والسادة الأعزاء ، والشباب الفضلاء ،
وطلبة حوزة قم العلمية المثابرين والخدميين ، وخصوصاً في هذه



المدرسة التي تعد محوراً ومركزاً لذكریات عظيمة وأحداث جسام تحتل صفحات متميزة من تاریخ النصف الأخير من هذا القرآن في بلادنا . وإنني لأتقدم بالشكر والامتنان للسادة العلماء المحترمين والأساتذة العظام في الحوزة العلمية ولكافة الأعزاء الحضور والمشاركين في هذا الاجتماع - المجتمعين في مدرسة دار الشفاء من أخوات وإخوة شباب فضلاء - وأدعو الله تعالى أن يشمل مجلسنا ولقاءنا هذا بلطفه وعنايته .

العلماء بمثابة الدم الذي يجري في هيكل المجتمع

إن هذا الاجتماع من الحميمية بمكان ، لأنه اجتماع طلابي ، حيث أن المتحدث والمستمع هم جميعاً من طلبة وأبناء هذه الحوزة وهذه المدرسة . وأن الموضوع الذي اخترته للحديث في هذا الاجتماع المبجل يدور حول الحوزة ، ولكن قضايا الحوزة تعد من شؤون المجتمع بأكمله ، ومن شؤون البلاد ، بل أنها لا تنفك عن قضايا التاريخ بصفة عامة . إن الحوزة والبيئة العلمائية ليست جزيرة منعزلة عما حولها من العالم . وطبقاً لطبيعة نسيجنا الاجتماعي وعلاقتنا الإنسانية فإن الحوزة والعلماء بمثابة الدم الذي لا يتوقف عن الجريان في هيكل المجتمع ، حيث يتحرك في كل مكان ويرتبط بجميع الأجزاء ، مما يجعل لقضايا الحوزة والعلماء ارتباطاً وثيقاً بقضايا البلاد والنظام الإسلامي وقضايا عالم اليوم ، وحتى بقضايا الماضي والتاريخ . وإليك فيما يلي قائمة بهذه المندرجات :

فالموضوع الأول يتعلق بالنظام الإسلامي ، وما هو المنهج الذي يسترشد به في حركته ، والمسير الذي خصصه وافترضه لحركته .
والموضوع الثاني هو : ترى من هم أصحاب الدور الرئيس في هذا

المسير الذي يبدو أنه لا يخلو من الصعود والهبوط والتحديات والكبوات والنهوض ، وأين تقع الحوزة العلمية من كل ذلك ، وما هو دورها ، وبالأحرى دورها الرئيس في توجيه هذا المسير ؟

وأما الموضوع الثالث فهو : أن النظام الإسلامي في الوقت الراهن ، - وطبقاً لطبيعته الخاصة - ، يعاني من بعض التحديات ، فما هي ؟ ثم ماهي الحواجز والمضايقات التي قد تعترض أحياناً سبيل هذا النظام ؟ مما ينبغي أن يهتم بشأنه الحوزويون ويتعاملوا معه بعمق وموضوعية .
وأما الموضوع الرابع فهو : ماهي واجبات علماء الدين اليوم انطلاقاً من هذه المقدمات ؟ إن لدينا واجبات ومستحبات - ولا شأن لنا بالمحرمات - فما هي واجبات الحوزة العلمية والعلماء اليوم ؟ لقد انجز العديد من الأعمال المهمة خلال السنوات القليلة الماضية كما قال مدير حوزة قم العلمية المحترم في تقريره . وسوف تتضح نتائج هذه الجهود في المستقبل المنظور أو البعيد . ومع أن هذه كانت فراغات ملئت ، إلا أنه مازال هناك فراغات أخرى لابد من اكتشافها وملئها . وأما الموضوع الخامس والأخير فهو عبارة عن بعض التوصيات والنصائح لكم أيها الأعضاء من الأخوة والأبناء .

أولاً : المنهج العام للنظام الإسلامي

إن الموضوع الأول هو : ماهو المنهج العام للنظام الإسلامي ؟ وإذا أردنا الإجابة عن هذا السؤال في جملة واحدة ، فإننا نقول : إنه بلوغ الحضارة الإسلامية . وهو جواب مجمل يحتاج إلى توضيح وتفصيل . ولكن هل يمكن أن تقوم حضارة أخرى مقابل الحضارة الإنسانية الراهنة - أي الحضارة المادية الغربية - أو لا ؟ ثم ماهي العناصر التي

تتطلبها هذه الحضارة من أجل البقاء والثبات ، وماهي العوامل المساعدة؟ ففي هذا حديث يطول .

زيف الحضارة الغربية

إنكم لو سألتهم رموز الحضارة الغربية المعاصرة فإنهم سيقولون لكم ، بأن الحضارة الغربية المادية هي حقيقة أبدية لا تقبل التراجع ؛ ففي إبان ازدهار هذه الحضارة - أي منذ القرن التاسع عشر الميلادي - ثار الجدل حول أن كل ما تقدمه هذه الحضارة للبشرية هي أمور حديثة وجديدة وجذابة ومطلوبة ولا مندوحة عنها ، وكل ما هو خلاف ذلك فهو تقليدي ومنسوخ وقديم وزائل . وهذا الجدل بعينه هو ما تجدونه دائراً اليوم في بعض محافل مثقفينا أحياناً ، إلا أنه ليس بالأمر الجديد ، ولكنها إثارات القرن التاسع عشر في العالم الغربي والتي تجد الآن امتدادات لها بهدف أن تسحق الحضارة الغربية كل ما يعترض سبيلها من شتى الثقافات والحضارات وكافة المبادئ والأسس المدنية وجميع العلاقات الإنسانية والاجتماعية وسواها مما ترفضه هذه الحضارة ، فترسخ حاكميتها المطلقة أبد الدهر معززة بضمانة القوة المادية والرأسمالية من ناحية ، والسلطة العسكرية والسياسية من ناحية أخرى ، والسيطرة الإعلامية من جهة ثالثة .

لقد شاهدتم لدى سقوط النظام الماركسي في الاتحاد السوفيتي السابق وأوروبا الشرقية - مع أنه لم يكن قادماً بحضارة جديدة - بل كان فكراً ذليلاً للحضارة الغربية بما لها من قواعد وأسس مادية ، سوى ما كانت تلاقيه من معارضة من قبل الجهاز الرأسمالي الغربي ، والقائمين على أمر الحضارة الغربية - فإنهم تقدموا مباشرة بمشروع النظام

العالمي الجديد وسلطة القطب الواحد ، أي أن الحضارة الغربية اليوم فقدت تألفها وانسجامها ووحدتها وفاعليتها حتى بين ذويها ومدعيها ، وباتت فارغة من مصداقيتها اللازمة . وأما تلك المنطقة التي أحرزت تقدماً مادياً أكثر من غيرها ، فإنها تطمح في السيطرة المتزايدة ، والاستيلاء التام الشامل على من سواها وتجاهل ما عداها ، طبقاً لما تقتضيه طبيعة الحضارة المادية .

إن كل ما يدور من حديث في الغرب - كما تلاحظون في هذه الأيام - ينصبّ برمته حول المشروع الغربي في الألفية الثانية ، فهل كانت الحضارة الغربية سائدة طوال الألفية الأولى حتى تلحقوا بها الألفية الثانية ؟ وهل يشعر العالم بالرضا إزاء هذين القرنين أو الثلاثة الماضية من سيطرة الحضارة المادية الغربية ؟ وهل تمكنت الحضارة المادية الغربية من تضييد الجراح التي عانت منها البشرية في الماضي ؟ وهل زال الفقر من العالم ؟ وهل انتهت المجاعات في المعمورة ؟ وهل تم التغلب على الظلم والتفرقة ؟ وهل تشعر البشرية براحة البال ؟ وهل ساد الرفق والصفاء بين بني الإنسان ؟ أو أنه العكس تماماً . فالحضارة المادية الغربية في عصر الاستعمار ومن بعده في مرحلة الاستثمار - عندما لم تكن سيطرة الحكومات الغربية سيطرة مباشرة كما في مرحلة الاستعمار ، بل انهمكت في استغلال طاقات البلدان المتخلفة والفقيرة وثرواتها ، واستخدمت سيطرتها الخفية في الاستيلاء على كافة قواها ومواردها حتى تُشبع نزواتها الذاتية وتتخم جيوب أصحاب رؤوس الأموال وأرباب الشركات - ، ثم في مرحلة وسائل الإعلام وعصر الاتصالات - أي في هذا العصر - حيث نزلت إلى الساحة في هذه المراحل الثلاث بكل ما تتمتع به من تجبر وغطرسة واستكبار في قمع وحشي

ومتواصل للأطراف الأخرى ، وذلك في الوقت الذي مازالت التفرقة سائدة في أرفع مراكزها ومؤسساتها ، فضلاً عن التمييز العنصري ، بالإضافة إلى الفاشية ، ومع كل هذا التاريخ الأسود ، وكافة هذه المعضلات ، وجميع هذه المشاكل فإن الحضارة المادية الغربية تزعم لنفسها الخلود ، وهو ادعاء واهٍ ومزيف وفاشل .

تجلى الحضارة الإسلامية بصورتها الكاملة في عصر الظهور

نعم ، إن الحضارة الإسلامية ، وبلا شك ، بإمكانها النزول إلى الميدان بنفس تلك الوسائل التي استخدمتها الحضارات التاريخية الكبرى والسيطرة على منطقة - كبيرة كانت أم صغيرة - وإنزال برركاتها أو صدماتها على هؤلاء ، وباستطاعتها أن تخوض هذه التجربة المعقدة والطويلة والشاقة وبلوغ تلك الذروة . ولا مرء في أن الحضارة الإسلامية سوف تتجلى بصورتها الكاملة في عصر ظهور بقية الله (أرواحنا فداء) ، ذلك العصر الذي سوف تتحقق فيه الحضارة الإسلامية الأصلية ويظهر فيه العالم الإسلامي الحقيقي .

إن البعض يتصورون أن عصر ظهور بقية الله سيكون في آخر الزمان ونهاية العالم ، ولكنني أقول بأن عصر ظهور بقية الله هو بداية العالم ، والخطوة الأولى في حركة الإنسان على الصراط الإلهي المستقيم ، سواء أكان ذلك مع القليل من العقبات أو بدونها ، وبسرعة قصوى ، وبتوفير كافة الإمكانيات من أجل هذه الحركة . ولو افترضنا أن الصراط الإلهي المستقيم يشبه طريقاً واسعاً ومستقيماً وممهداً ، حيث جاء كافة الأنبياء خلال القرون الطويلة الماضية لينقذوا البشرية من سبل الضلال ويرشدوها إلى هذا الطريق القويم ، فلا بد وأن حركة الإنسان

ستبلغ ذروتها لدى بلوغ هذا الطريق ، وسوف تغدو حركة عامة وشاملة يحالفها التوفيق بلا أدنى خسائر أو مع الضئيل منها .

إن عصر الظهور هو ذلك العصر الذي تستطيع البشرية أن تتنفس فيه الصعداء ، وتسلك الطريق الإلهي ، وتتمتع بكافة الطاقات الكامنة في عالم الطبيعة وفي وجود الإنسان على نطاق واسع .

إن الإمكانيات البشرية لا تُستخدم بالصورة الصحيحة الآن ، فتضيع الطاقات وتذهب سدى ، وكذلك هي الطاقات الطبيعية ، إن كافة هذه الظواهر التي تشاهدونها في التلوث البيئي مردها جميعاً إلى سوء استخدام الإمكانيات الطبيعية . وإن البشرية تغدُ السير في هذا الطريق بينما هو خاطئ وغير فريد . إن الإنسانية غافلة عن طريق العلم وسواه من الطرق القديمة التي تستطيع السير عليها في ظل النظام الإلهي . ولا أود الآن الخوض في هذا الموضوع ، حيث يتطلب ذلك المجال الأوسع . وعلى أية حال فإن بلوغ الحضارة الإسلامية هو النهج الذي يتمسك به النظام الإسلامي .

حتمية زوال الحضارة الغربية

إن الانحرافات هي السبب في اضمحلال الحضارات ؛ فعندما تبلغ الحضارات ذروتها فإنها تؤول للانحطاط جراء نقاط الضعف والفراغات والانحرافات ؛ وهو ما نشاهده اليوم في الحضارة الغربية التي تقوم على علم بلا أخلاق ، وماديات بلا معنويات ومفاهيم بلا دين ، وسلطة بلا عدالة .

ففي فلسطين المحتلة ، وحيث يحولون دون الفلسطينيين من العيش في بلادهم أو الحياة بيسر وكرامة في وطنهم ، وعندما يضطر أحد

المواطنين الفلسطينيين للقيام بحركة أو إلحاق ضرر بأحد الصهاينة الأجانب الغرباء الغاصبيين ، فإنهم يعبئون كل وسائلهم الإعلامية في الغرب من أجل إبراز هذا الحدث ، ولو حدث أن قُتل أحد الصهاينة فإنهم ينشرون صورة أبيه وأمه وابنه وزوجته ، ويعبرون عن بكائهم وحزنهم في المجلات الأميركية وسواها من الصحف العالمية ! ولكن عندما يُقتل صبي أو شاب فلسطيني وهو في أحضان والده وعلى مرأى منه في فلسطين ، وعندما يطلقون الرصاص على النساء والرجال والأطفال والمسلمين والمصلين في المسجد الأقصى ، فإن الأمر لا يقابل إلا بالصمت أو التعتيم ! ففي اليوم الأول من هذه الحادثة اتصلت أجهزة الاتصالات في الجمهورية الإسلامية بأوروبا حتى تقف على ما هناك من أخبار ، وإذا بالجواب يأتي بأنه لا وجود لأي خبر هنا ! أي أن حدثاً مفاجئاً من هذا النوع يظل طيّ الكتمان في أوروبا ، وفي مناطق سيطرة الحضارة الغربية في اليومين الأول والثاني دون أن تتطرق إليه وسائل الإعلام هناك ، ويظل الأمر كذلك حتى تتصاعد التظاهرات تدريجياً ، وينهض الناس في كل مكان ، وترتفع أصوات الاحتجاجات ، وعندئذ - فقط - تضطر تلك الأجهزة التي تدعي الدفاع عن حقوق الإنسان وتتشدد بالمعلوماتية إلى تناقل الخبر ، وبصورة مقتضبة مشوهة ، وبأسلوب منحاز وغير حيادي ، وبالشكل الذي يصب في صالح الغاصبيين المحتلين ، وليس في صالح الشعب الفلسطيني المظلوم ! هذه كلها من علامات تدهور وانحطاط الحضارة الغربية .

وبالتأكيد فإن ظهور الحضارات أو أفولها لا يأتي طفرة ، بل إنه أمر تدريجي وتاريخي ، ولكن هذه هي إمارات الاضمحلال . لقد توصل العديد من المفكرين الغربيين إلى هذه الحقيقة اليوم ، وها هم يشيرون

ويحذرون من العواقب . ولهذا فإنه لا داعي إلى الدهشة والتعجب فيما إذا ومض ضوء في مكان ما من العالم ، كما ظهرت كافة الحضارات التاريخية ، أو فيما إذا ظهر فكر جديد أو مشروع جديد للبشرية ، يقوم على أساسه نظام سياسي في إحدى جهات المعمورة ، فيجتمع عليه شعب من الشعوب ، ويقوم بدعمه وترسيخه ، ويعمل في إطار الشروط الضرورية التي سوف أوضحها ، ويستعيد خواص وصفوة ونخبة المجتمع فرصتهم وأدوارهم ، ويعملون طبقاً لها ؛ وحينئذ لا يكون من المستبعد أن تزدهر هذه الحضارة كبقية الحضارات وتسطع كالشمس المتألقة في كبد السماء ، وتمنح أشعتها ونورها لكافة أرجاء العالم ، بل إنه لأمر حتمي .

مستقبل حتمي للنظام الإسلامي

وعلى هذا الأساس فإن النظام الإسلامي هو نظام قد رسم لنفسه نهجاً معقولاً ومنطقياً للتحرك .

إن هذه مسيرة لا يمكن لها التوقف أو النكوص ، وإنها حركة تكاملية بما تتمتع به من مراحل مختلفة تضمن لها الاستمرار والخلود . لقد تولدت هذه الحركة مع بداية الثورة الإسلامية ، وسطع هذا الوميض في هذه النقطة من العالم ، فأدهش الألباب ، ثم نجح في تشكيل وتحقيق النظام الإسلامي الذي أخذ بزمام الحركة وسار بها قدماً إلى الأمام ، رغم ما يعترض طريقه من تحديات وعقبات وقلة الإمكانيات .

إن هذا النهج لو تواصل بجد وعزم ومساندة ومعرفة بالثوابت الضرورية ، وعمل بكل ما هو تكليف ؛ فإن النتيجة الحتمية ستكون ازدهار الحضارة الإسلامية من جديد ، واستعادة رقعتها الواسعة في

العالم . ولا يعني هذا بالضرورة أن يتوسع النظام السياسي الإسلامي في بلدان العالم الأخرى قبل عصر الظهور ، كلا . بل إنه يعني ظهور حضارة تقوم على أساس فكر جديد ، ومنطق جديد ، وتنظر نظرة جديدة إلى قضايا البشر وحياة الإنسان ، وتجد علاجاً لآلام البشرية ، وتتحدث بلغة جديدة تفهمها الأجيال الحديثة وطبقات العالم المحرومة ، وتحمل رسالة للقلوب والأفئدة ، مما يمهد لها الانتشار تدريجياً في أوساط المجتمع الإنساني ، وهذا شيء يمكن حدوثه . وطبقاً لما أراه اليوم في بلدنا ، وما ألمسه من عمق للفكر الإسلامي لدينا ، وانطلاقاً من هذه الحركة الواسعة والعظيمة التي أخذت في تعميق هذا الفكر منذ بداية الثورة ، والتي حققت الكثير من الانجازات حتى اليوم ؛ فإنه يبدو لي أن هذا المستقبل هو مستقبل حتمي وأكيد بالنسبة للنظام الإسلامي .

ثانياً : موقع علماء الدين في هذه الحركة

وأما الموضوع الثاني فهو : من هم أصحاب الدور الرئيسي في هذه الساحة ؟ إننا نود أن نعرف ماهو موقع علماء الدين في هذه الحركة ، ونريد أن نعرف لماذا وفيما أخرتم شبابكم أنتم أيها الطلاب الشباب الذين تدرسون في هذه الحوزة ، وأين تريدون استثماره ؟ ومن هم أصحاب الدور الرئيسي في هذا المضمار ؟

تحقيق الحضارة الإسلامية حركة تدريجية

أولاً لابد لنا وأن نعلم بأن هذه الحركة العظيمة للنظام الإسلامي والمنطلقة نحو هذا المستقبل المنشود -أي تحقيق الحضارة الإسلامية ؛ تلك الحضارة التي يتواكب فيها العلم مع الأخلاق ، وتتحقق فيها المنافع

المادية جنباً إلى جنب مع المصالح المعنوية والدينية ، وتسود فيها السلطة السياسية إلى جانب العدالة - هي حركة تدريجية .
إنه لأمر مثير طبعاً ، ولكن على كل منا أن يعرف ماهو بصدد . إن كل خطوة يخطوها تمثل له حدثاً مثيراً ، بيد أنه لا ينبغي الخلط بين هذا العمل التاريخي العظيم الذي يتعلق بأجيال وقرون متواصلة ، وبين الأعمال الجزئية والشعارية والتي تأتي طفرة . إن هذا عمل يحتاج إنجازاً إلى أن يكون خطوة خطوة ، على أن تكون كل خطوة أشد رسوخاً من سابقتها ، مع فهم دقيق كل خطوة نخطوها ، ونظرة ثاقبة تقدمية فيما يخص المسيرة التي نتحرك في إطارها .

عنصران أساسيان لتحقيق الحضارة الإسلامية

إنه لا بد من توفر عنصرين أساسيين لتحقيق حضارة إسلامية - كما هو الأمر بالنسبة لسائر الحضارات - وهما :
إبداع الفكر ، وتربية الإنسان . فالفكر الإسلامي هو بمثابة بحر عميق ومحيط زاخر ، وكل من وقف على شاطئ المحيط لا يستطيع الادعاء بأنه قد خبر هذا المحيط .

كما أنه ليس بوسع كل من سبح لعدة أمتار بالقرب من الشاطئ أن يزعم بأنه قد بات عارفاً بهذا المحيط ؛ فالغوص في هذا المحيط المتلاطم وبلوغ أعماقه وسبر أغواره - كما يستفاد من الكتاب والسنة - هو عمل ينبغي على الجميع القيام به ، وهو أمر لا بد من الإتيان به على طول الزمان .

إن الانتاج الفكري في كل زمان بما يتناسب مع متطلبات ذلك الزمان هو أمر ممكن بالاعتراف من هذا المحيط المعرفي الهائل .

إن كلام المرحوم الشهيد المطهري كان يبدو غريباً بالنسبة للبعض في يوم ما ؛ لقد كان كلامه كلام الدين ، وكلام القرآن ، وكان كلاماً إسلامياً ، ومع ذلك فإن الكثيرين من المعنيين بالدين والقرآن والإسلام كانوا يعتبرونه كلاماً غريباً ؛ إن هذا ممكن في كل زمان بالنسبة للمفكرين الواعين ، والعارفين بالقرآن والحديث وأساليب الاستنباط من القرآن والحديث والواقفين على المعارف الإسلامية وفكر القرآن والحديث والسنة الإسلامية ، بحيث أنهم لو كانوا مدركين لمتطلبات العصر لكان بوسعهم تلبية هذه المتطلبات ومعرفة ما تريده البشرية واستخراج لغة العصر من المعارف الإسلامية .

إن هناك الجديد دائماً مما يقال ، وإن الابداع والإنتاج الفكري يعتبر نبراساً هادياً على طريق البشرية .

العلماء هم اصحاب الدور الخلاق في هذه الحركة

والعنصر الثاني هو تربية الإنسان ؛ فانظروا من هم أصحاب الدور الخلاق ، حيث يجب إبداع الفكر وصناعة الإنسان .

إن أصحاب الدور الخلاق هم أولئك الذين ينبغي عليهم أن يعرفوا كيفية ترشيد الأفكار ، وهذا هو أحد أبعاد القضية . ولأنه لا يمكن السير على هذا السبيل إلا بالإيمان وطاقاة الإيمان والمحبة ، فلا بد من وجود أولئك الذين يستطيعون تربية الروح الإيمانية في الإنسان . ولا ريب أن مدراء المجتمع هم من أصحاب الدور ، وكذلك هم السياسيون والمفكرون والمثقفون ، وأيضاً فإن أبناء الشعب يستطيع كل منهم على نحو ما أن يجعل لنفسه دوراً ، إلا أن دور علماء الدين ودور أولئك الذين يستخدمون الأسلوب الديني في سبيل تنمية إيمان الجماهير هو دور

فريد وبلا نظير .

إن مدرء المجتمع في حاجة أيضاً لعلماء الدين من أجل أن يكون دورهم دوراً سليماً ، وكذلك هم السياسيون والعاملون بالحقل السياسي، علاوة على البيئات العلمية والثقافية المختلفة . فمن الممكن أن يومض ضوء كلمات عالم دين زاهد وعارف بزمانه ، فيكون سبباً في انجلاء الظلمات عن الأفئدة ، وكثيراً ما حدث ذلك . وإن دوراً من هذا النوع لهو دور فريد .

إننا لا نحصر الدور بعلماء الدين ، ولكننا نراه لدى علماء الدين أبرز منه لدى الفئات الأخرى . ولهذا فمن الواضح أن الفكر والإيمان الديني والإبداع الفكري كلها من الأمور الضرورية واللازمة للإنسان لاجتياز هذا الطريق ، وهو ما لا يتحقق إلا بوجود علماء الدين في الساحة . ومن الطبيعي فلا بد أن تتوفر في عالم الدين الشروط اللازمة للقيام بهذا الدور ، وهي شروط سوف أوضحها في نهاية هذا الحديث . وبالتأكيد فإن من بين أفراد الشعب من يقوم بدور ديني ، وذلك عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والاستعداد لأن يكون في موقع يمكنه من أداء دوره .

الشروط اللازمة للقيام بهذا الدور

إن الأوساط الحوزوية وعلماء الدين بوسعهم أن يكونوا أصحاب دور فريد فيما لو شبّوا وترعرعوا في بيئة تربوية سليمة وارتقوا المدارج اللازمة ، وهو ما جعل من إمامنا العظيم الراحل نموذجاً لعلماء الدين ؛ فلولا وجود الإمام بحماسة المتوقد ومنطقه السديد وثباته وصموده على هذا الطريق ، ولو لم يستطع أن يجمع حوله كل هذا الحشد الغفير من علماء الدين ، لما قام الشعب الإيراني بهذا التحرك العظيم

بالتأكيد . إنه لم يكن بمقدور أي حزب سياسي أو أحد رجالات السياسة أو الجامعات أو أية شخصية اجتماعية مرموقة ومحبوبة بثّ الروح الحيوية في جماهير الشعب الإيراني العظيم ودفعها للخروج إلى الشوارع ، إلّا علماء الدين بقيادة الإمام العظيم بكل ما له من خصوصيات متفردة والتي لولاها لما كان هذا الانجاز أمراً يسيراً . فهذا هو دور عالم الدين الذي يتمتع بالشروط اللازمة والذي يظهر في الوقت المناسب ، فيغدو صاحب دور عظيم يحفظه له التاريخ .

إن على طالب الحوزة العلمية الذي يمارس العلوم الدينية ويطبق برامج الحوزة أن يصبو للقيام بدور خلاق في هذه الحركة الشعبية العظيمة ، ولا يجب بالضرورة أن يكون هذا الدور على غرار دور الإمام ، بل إن هناك العديد من الأدوار التوعوية والإرشادية ممّا يقوم به الأنبياء ، إذ إن صناعة الإنسان القويم والمؤمن تعتبر من الأهمية بمكان بحيث لو أنفق عالم الدين كل عمره وسعيه في سبيل تحقيقها ؛ لكان قد قام بإنجاز عظيم .

إن على طلاب وفضلاء الحوزات العلمية أن يقوموا بدور بناء في هذه الحركة الجماهيرية الواسعة ، وذلك الخط المستقيم الذي ينتهجه النظام الإلهي والإسلامي بعظمة وتألق ، وأن يضيفوا على هذا التحرك ما ينبغي له من حتمية ويسر في انطلاقته الرائدة ، إن ثمة تحديات جساماً تواجه النظام الإسلامي ، فلو لم نكتشف هذه التحديات - الموجود منها والمتوقع - فلن يمكن القيام بالدور على ما ينبغي ، ولن يمكن فهم الواقع ومواجهته . إذاً فالقضية التالية هي معرفة معضلات وتحديات النظام الراهنة .

إن الشرط الأول الذي يجب توفره فيمن يريد السير على هذا الطريق

هو معرفة الكمائن والموانع التي ينبغي مواجهتها والاستعداد لاجتيازها، حيث أن «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس». والعالم بالزمان ليس هو الشخص الذي تربطه علاقات حميمة بعدد من الناس فحسب، ولا الذي تطرق سمعه أخبار من هنا وهناك، بل هو الذي يعرف أين يعيش من هذا العالم، وماهي صفوف المعارضة القائمة أمامه، وماهي أسباب هذه المعارضة وأهدافها، وماهي خطة المناوئين لبلوغ هذه الأهداف؛ فهذا هو العالم بالزمان. وبالتأكيد فإن هذا العداء وهذه المناوأة ليست أمراً شخصياً، فليعرف أين هي، وماهي الحواجز التي تعترض نظامه وتعوق طريقه وتحول بينه وبين الوصول إلى أهدافه.

إنني أقول لكم بأن العقبات والمشاكل والكمائن الماثلة على طريق أي مجتمع أو نظام أو مجموعة لا تمثل طريقاً مسدوداً رغم ما فيها من أذى ومضايقات. ويمكن القول - من زاوية - بأن المشاكل تعدّ من النعم لأنها سبيل التطور.

إن الشعوب لا يمكنها بلوغ طموحاتها دون معالجة ما يعرّ على طريقها من حواجز وعقبات؛ فلو لم يخض الشعب الإيراني غمار حرب امتدت على طوال ثماني سنوات، برغم ما تكبده من خسائر وأضرار فادحة؛ لما حقق لنفسه هذه الثقة بالنفس وهذا الازدهار العلمي والعسكري والصناعي، وهذه العزة الماثلة أمام أنظار العالم، ولما جفّت آمال التسلط على هذا الشعب في قلوب الأعداء الألداء وأصابهم اليأس، ولا سيما العقلاء منهم؛ حيث أن غير العقلاء مازالوا يعيشون هذا الأمل! ولهذا فإن المشاكل هي هكذا دائماً، وعلى كل شعب أو مجتمع إنساني أن يتخطى هذه الموانع إذا أراد الانطلاق على سبيل الصلاح والفلاح وطريق بلوغ الأهداف المنشودة.

إن لكل مجموعة أو بلد أو مجتمع مشاكله الخاصة في كل زمان، وثمة علاقة بين أهداف كل شعب، وما يعترض طريقه من عقبات ومعضلات، لا بد له من التغلب عليها؛ فكلما كانت الأهداف رفيعة وسامية كانت المشاكل بالقدر المتناسب مع هذه الأهداف، وكلما كانت هناك أصولية في الأهداف؛ اعترضتها الأزمات وواجهتها المعارضات بصورة طبيعية، ولهذا فثمة صلة مباشرة.

ثالثاً: التحديات التي يواجهها النظام الإسلامي

والآن، ماهي العقبات التي تعترض طريق النظام الإسلامي، وماهي هذه التحديات؟

إنه لا يمكن أن نقارن عصرنا هذا بعصر صدر الإسلام ونبي الإسلام الأكرم ﷺ؛ فمع أن هناك بعض وجوه الشبه، إلا أن ثمة أيضاً بعض وجوه الاختلاف؛ ففي صدر الإسلام كانت المواجهة الأساس خلال عشر سنوات من حياة الرسول ﷺ مع جبهات ثلاث هي: جبهة المنافقين في الداخل، وجبهة أهل الكتاب واليهود - الذين كان لهم وضع خاص في المدينة وفي ظل حكومة النبي -، وجبهة الكفار والمشركين. فهذه هي الجبهات الثلاث الرئيسية التي تعرفون ما مارسته من تحديات كما ورد في آيات القرآن الكريم، ولا سيما في سورة البقرة المباركة؛ فالمواجهة مع اليهود لم تكن كالمواجهة والعداء مع كفار قريش، حيث أن اليهود كان لهم ماضٍ، وتاريخ، ومفاخر، وكتاب، ممّا حوّل لهم سلطة على الأميين والجاهلين بالمعارف الإلهية من نوع تلك السلطة التي تفرضها مجموعة مثقفة على مجتمع أمّي. ولذا فقد كان النبي الأكرم ﷺ يضع أصابعه على المواضع الحساسة في مواجهته مع هؤلاء طبقاً لتعاليم

الوحي الإلهي . وقد وردت أبعاد هذا التحدي الذي كان بين النبي الأكرم وبين اليهود - وكذلك المنافقين - بشكل تفصيلي في سورة البقرة .

إنه لا يمكن لنا اليوم أن نقول بأننا نواجه مجموعات من هذا القبيل فقط ، ولكن أمامنا مجالات للمواجهة والمجابهة بما يتناسب مع وضعنا نحن ووضع نظامنا ، وليس المقصود هنا هو المعارضة السياسية بالتأكيد ، ولا نريد القول بأن الذين سوف نعدّهم الآن هم معارضون سياسيون للنظام أو أنهم يكافحون النظام ، كلا ، بل إنها مجالات للمكافحة ، وإنها تحديات يواجهها النظام الإسلامي بصورة طبيعية .

إن ثمة من يعارضون الدين في الأساس ، ولهذا فإنهم يرفضون نظاماً قائماً على أساس السياسة الدينية ، لأنهم يرفضون أصل الدين في قرارة أنفسهم . وثمة من يعارضون السياسة الدينية ، وهم يعتبرون الدين مناسباً للحكومة ، وللسياسة ، ولإدارة شؤون الناس ، لأنهم يرفضون أصل الدين . فأَيّ دين هذا ؟! إنني لا أدري ؟!

لقد أطلق النبي الأكرم ﷺ شعارات منذ بداية حركته وفي عصر البعثة كانت تستعصي على الفهم والإدراك إلا بهجرته إلى المدينة وإقامة النظام الإسلامي .

إن ذلك التوحيد الذي يدعوه له رسول الإسلام ، والذي يشجب التفرقة الاجتماعية ، ويثير الغلمان والعبيد المظلومين ضد ساداتهم ، والذي يجعل الشباب الواعي والمستنير يثور ضد ممارسات الآباء السيئة والخاطئة والمنحرفة ، ليس توحيداً فردياً وقلبياً وباطنياً وانعزالياً ، بل إنه التوحيد الذي لا بد من رفع لوائه ، والذي يعيش المجتمع بفضل أسسه ومبادئه ، أي عصر المدينة والهجرة . ولقد أقام الرسول ﷺ الحكومة الإسلامية منذ بداية الهجرة . ولا أدري أن ذلك الذي يؤمن بدين محمد بن

عبدالله ﷺ ولكنه لا يؤمن بهجرتة وحكومته وولايته وسلطته ، كيف يستطيع إقناع نفسه بذلك ؟! وعلى أية حال فإن ثمة مجموعة لا تستطيع أن تقبل بالسياسة الدينية ، ولا بالدين السياسي .

وهناك مجموعة أخرى مصابة بالنفاق الديني ؛ أي أنها تعتقد بضرورة الدين اسماً وعنواناً ، ولكنها ترفض حقيقته وكنهه ، وهؤلاء لا يستطيعون التنازل والقبول بسهولة عندما يبرز الدين في المجتمع بواقعيته وحضوره واقتداره ويقيم نظاماً ويرسي أساساً للحكومة . ولقد رأينا أولئك الذين يتحدثون باسم الدين والقرآن ونهج البلاغة ، ولكنهم يرفضون المفاهيم الحقيقية للقرآن ونهج البلاغة .

وهناك أيضاً مجموعة ممن يحملون لواء التبعية للثقافة الغربية والمبهورين بالغرب ، والذين ينظرون لشعبهم وحضارتهم وتراثهم العلمي وماضيهم نظرة ضعة واحتقار ؛ لقد سحقوا تاريخهم حتى يستطيعوا معرفة الثقافة الغربية المستوردة وتلك الاصطلاحات والمفاهيم والمناهج التي تطرحها تلك الثقافة وتلك الحضارة ، والتقرب منها . ولقد كان هناك من قالوا بأنه لا بد لنا وأن نكون غربيين من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين ، وهم أولئك الذين سببوا التخلف لهذا البلد مقدار مائة عام ، والذين كلما أمعنا النظر اليوم في ممارساتهم وأخطائهم وتقصيراتهم هم وحكامهم والموالين لهم في الحقبة الماضية ؛ اتضحت أمامنا أكثر من ذي قبل ، إنهم أولئك الذين كانوا يعتقدون بأنه لا خير في إيران والإيرانيين إلا أن يغيروا تماماً من ماهيتهم وأخلاقياتهم وسلوكهم وتصرفاتهم وملابسهم ولغتهم وكتاباتهم وكل ما لديهم ، ويصبحوا كالشعوب الغربية . وهذه مقارنة في غاية السذاجة والحماسة ، فلأن ذلك الشعب يعدّ متقدماً من الناحية التقنية ، إذاً فمن الممكن الأخذ بكل ما عنده ، وإذا كنّا نطمح في بلوغ هذه المكانة العلمية ؛ فلا بد لنا أن نقلد

ذلك الشعب ونعيش مثله في أخلاقه وسلوكه وعقائده وعاداته وتقاليده .
وفي الحقيقة فإن المرء ليعجب كيف يمكن لإنسان يدّعي الثقافة والتنور
أن يفكر هكذا بسذاجة وضيق أفق ؟ فهذه مجموعة أخرى أيضاً كانت
ولا زالت .

وهناك مجموعة من عشاق السلطة والمتعطشين للقوة ، ولا شأن لهم
بالدين أو الأخلاق أو العقيدة أو الله ومثل هذه الأمور ؛ فالذي يهمهم
بالدرجة الأولى هو الأخذ بزمام السلطة وهم المتعطشون لها ، وهؤلاء
يمثلون أيضاً تحدياً أمام النظام الإسلامي .

وهناك مجموعة ممن لا يستطيعون استيعاب المفاهيم الإسلامية
على النحو الصحيح .

هذه هي مجالات التحدي أمام النظام الإسلامي .

ومن الطبيعي فليس كل من ذكرناهم يعتبرون بالضرورة معارضين
للنظام الإسلامي ، كلا ، فمن الممكن ألا يكونوا من المعارضين ، غير أن
النظام الإسلامي ليس بوسعه أن يغض الطرف عنهم ، ولا يمكنه أن
يتجاهل وجودهم وفكرهم ومحاولاتهم وأهدافهم ونواياهم ومطامحهم
وكل ما يدور بينهم وما يبدر منهم .

فمن الحكمة والتدبير للنظام الإسلامي أن يفتح عيونه على هؤلاء وأن
يعرفهم وأن يسعى لمعالجتهم ؛ ولا نعني بالمعالجة استخدام القوة
والقمع .

فلا ينبغي التصور أن المقصود هو استخدام القوة كلما يقال بأنه
يجب معالجة هذا الفكر أو ذلك الشيء ، لأن القوة هي سلاح من لا منطق
له ، وإن كل من يتمتع بالمنطق بإمكانه التوسّل بحرية الاستدلال والمنطق
بالصورة التي تعجز عنها كل حرية أخرى وكل قوة مادية ؛ ولهذا فإنه لا
حاجة إلى القوة .

آفات في طريق النظام الإسلامي

فما هي المجالات الموجودة داخل النظام الإسلامي ، وبين مسؤولي الحكومة ، وشخصيات وقادة النظام ، والمؤثرين في الوسط الحكومي والشعب من أجل شقّ هذه الصفوف المختلفة ، وكل من يريد أن يشق صفوف النظام ؟

لقد دوّنت بعض النماذج : فمن ذلك التحجر ؛ إن عدم النظر إلى الأمور نظرة جديدة ، وتجاهل حركة التاريخ وتطور الفكر الإنساني ، والتنكّر للسموّ والارتقاء الفكري والسبل الحياتية ، يعتبر تحجراً . إن كل علم تشاهدونه بما فيه من رفعة وتقدم هو صيحة ضد التحجر ؛ فلو كان من المقرر أن نتوقف مؤكدين على كل ما اعتدناه ، ومتصورين أن ذلك شيء جيد ؛ لما تطورت أصولنا ، ولما قطع فقهننا منذ ألف عام وحتى الآن كل هذا الشوط من التطور والتقدم ، وهكذا هي الحياة بكافة أبعادها ، فالتحجر آفة من أخطر الآفات .

وإلى جانب التحجر ، هناك التساهل الفكري والعملي ، فالتساهل والتسيب ، سواء في الفكر - أي أن يجذب الإنسان نحو كل ما يطرح في الساحة من فكر وينبهر به دون روية وتقويم ونقد وفهم دقيق ، مع ما في الأمر من حساسية - أو في العمل ؛ أي الجانب المقابل للتقوى ، والتقوى هي نقيض التساهل ، والتقوى تعني الدقة والمراقبة والمواظبة ؛ خشية أن يبدر من الإنسان عمل يتجاهل الموازين ، سواء كان ذلك في القول أو الفعل ، وسواء كان ذلك العمل من الجوارح أو الجوانح ؛ فهذه هي التقوى . وأما التساهل في مجال الفكر ، أو العلم ، أو في أي مجال آخر ؛ فحيثما كان التساهل والتسيب - والذي يستتبعه التساهل في القبول والفعل والفهم - فإن العواقب سوف تكون وخيمة .

إن التقليد الأعمى ، وخصوصاً للغرب ، هو أيضاً إحدى الآفات . ولأن الحضارة الغربية على قدر من التقدم التقني المبهر ، فإنهم يقلّدونها في كل ما تصدره من فلسفة وأخلاق ونظريات مختلفة .

كما أن التعايش هو الآخر إحدى الآفات الخطيرة ؛ فالتطلع نحو المنصب والمسؤولية والمنزلة الاجتماعية ؛ وحتى نحو العلم بصفته وسيلة للتكسّب والتعيش ، هو أيضاً إحدى الآفات . كما أن الانتهازية من نفسية وأخلاقية وسلوكية تمثل مظاهر المعارضة ومجالات التحدي أمام النظام الإسلامي ؛ وهي تابعة من داخلنا نحن .

وجود العدو الخارجي

وأما من ناحية ثالثة فهناك العدو الخارجي ، إن خطة العدو الخارجي هي استخدام كل هذه الإمكانيات وتكريسها لمواجهة النظام في الداخل . إنني كلما حذرت في حديثي من مؤامرات الأعداء ؛ فإن البعض يستأثرون ويقولون لماذا نتحدث عن العدو الخارجي دون الإشارة لقضايانا ومشاكلنا الداخلية ؟! فلا بد إذاً من التوضيح .

إن العدو الخارجي إذا لم يضع نصب عينيه مشاكلنا ومعضلاتنا ونقاط ضعفنا في الداخل ؛ لما كان بوسع السيطرة والنفوذ ، وهذا شيء واضح وبديهي قد أشرنا إليه مراراً .

إن نجاح العدو الخارجي ، يأتي في الأساس عند وجود نقاط ضعف وفراغ في الصفوف الداخلية للنظام ، أي داخل البلد وفي أوساط المجتمع ، وهو ما لا شك فيه ، غير أنه لا يمكن تجاهل هذا العدو الخارجي لأنه يستغل كافة نقاط الضعف هذه بقدر ما يستطيع .

إن أحداً لن يطري مجتمعاً وإنساناً والأكبر منهما مسؤولاً فيما لو تجاهل العدو الخارجي ، وتعامى عن خططه ومسايعه ، وتناسى

استغلال هذا العدو لنقاط الضعف من أجل النفوذ والتغلغل في الداخل ، نعم إن العدو الخارجي هو حقيقة لا مرء فيها ، غير أنه يستغل نقاط الضعف لدينا . وإن العدو الخارجي ستيخيب آماله إذا ما استطعنا واستطاع النظام الإسلامي التغلب على نقاط الضعف في الداخل ، ولكن عندما يشنّ العدو الخارجي هجوماً ؛ فلا بد من المواجهة العاجلة والسريعة . ولنفرض أن العدو هاجم حدودنا - كما هو شأن الحرب العسكرية - فإن واجبنا الأول هو أن نهبّ لمواجهته وصد هذا الهجوم . ولا مجال هنا لأن نجلس ونقول: ترى لماذا قام هذا العدو بمهاجمة حدودنا ، ولربما قمنا بما أغضبه وأثاره علينا ، أو لعلنا انتهكنا بعض المجالات مما أثار حنقه علينا ؟! لأن الوقت ليس وقت مناقشة هذه الأمور . فكيفما كان السبب ، وأياً كانت نقطة الضعف ، فلا بد لنا أولاً أن نصدّ الهجوم ، ثم نأتي بعد ذلك لمناقشة الوضع وبحث هذه القضايا .

والواقع أن النظام الإسلامي يتعرض اليوم لحقد وضغينة وعداء مراكز السيطرة العالمية في الساحة الدولية . ولاشك أن النظام الإسلامي نظام قوي وراسخ ممّا جعلهم عاجزين عن توجيه ضربة مؤثرة له ، ولو لم يكن الأمر كذلك ؛ لما توانوا عن ضربه لحظة واحدة .

إن هذا النظام يتميز بخصوصيات لو توفرت في أي نظام آخر ؛ لجعلته راسخاً وقوياً ، فهذا النظام نظام شعبي ، ونظام إيماني ، ونظام نابع من إرادة وإيمان الجماهير . وإن مسؤولي هذا النظام ليسوا من أولئك الطامعين في ملء جيوبهم وتحقيق الربح المادي ؛ إن المسؤولين رفيعي المستوى في هذا النظام نزلوا إلى هذه الساحة بنوايا طيبة ، وإنهم يبذلون الكثير من الجهد والمساعي ، وهو ما ليس بالقليل ؛ وما مردّ اللطف والعناية الإلهية إلا لهذه الصفات ؛ فعندما يصمد أحد الشعوب ،

ويتحمل المصاعب في سبيل الله ، ويخلص مسؤولوه النية لله تعالى ، فإن الله ينزل نصره ، وهذه أمور لا يمكن مواجهتها ومكافحتها ، وإلا فإن مطامع الأعداء كثيرة ، وهو ما لا يمكن تجاهله .

والآن فإن الحوزات العلمية ، وفي مقدمتها حوزة قم ، ومن ثم حوزات المحافظات - كبيرها وصغيرها - تقف وجهاً لوجه أمام مثل هذه التحديات .

إنكم أنتم - أي الحوزات الدينية والعلمية - الذين تريدون النهوض بصرح الحضارة الإسلامية الشامخ وإضاءة مشعل الهداية الإسلامية في منارة النظام الإسلامي السامقة ، والقيام بما قام به كافة الأنبياء والمرسلين ، وإرشاد البشرية إلى الصراط الإلهي المستقيم والسبيل الرباني الأصيل ، والاقتراب بهم من هذا السبيل الأعظم والصراط الأقوم ؛ فالحوزة تواجه هذه التحديات ، وتتحرك بهذا الهدف . فانظروا كيف يجب أن تكون الحوزة العلمية ، وماذا يجب عليها عمله ، وماهي واجباتها .

وحتى إذا لم أقل شيئاً حول ما أتصوره ضرورياً للحوزات العلمية ؛ فإن هذا الوضع الحساس الذي أشرنا إليه ، وهذا الهدف الرفيع المتوخى ، وهذه العقبات والتحديات التي أوضحناها والتي تعترض سبيل النظام الإسلامي ، تقتضي جميعاً أموراً لا بد من معرفتها بدقة ، وسوف أتحدث عن ذلك باختصار .

رابعاً : واجبات الحوزات العلمية

القسم الرابع من حديثنا يختص بواجبات الحوزات العلمية . إن حوزة قم العلمية تعتبر اليوم حوزة بارزة في الحقيقة ، ولقد قلت هنا في صالة الاجتماعات بالمدرسة الفيزيائية قبل بضعة أعوام بأنه لا يوجد مجمع

علمي عريق وعظيم كالحوزة العلمية في قم منذ بداية تاريخ الإسلام وحتى يومنا هذا بالتأكيد ؛ فلقد كانت هناك بالطبع حوزات علمية ضمت في أكنافها علماء كباراً في بغداد والحلة والنجف وكربلاء وبلدان أخرى ، إلا أنها لم تكن بهذا الكم الوافر ، وهذا التنوع ، وكل هؤلاء الأساتذة والطلبة ، وكل هذه الحلقات العلمية . كما أن الحوزة العلمية اليوم تختلف أيضاً عن الحوزة العلمية في زمان المرحوم آية الله العظمى البروجردي (رضوان الله تعالى عليه) ؛ ففي ذلك الزمان كنّا طلبة في هذه الحوزة وفي المدرسة الفيضية والمدرسة الحجتية ، وكانت هناك نقاط بارزة ومشرفة متعددة ، إلا أنه لا يمكن المقارنة بين ما يوجد في الحوزة الآن من حركة وجهد ووعي وشعور بالمسؤولية علاوة على هذا العدد الضخم من الأساتذة والطلبة وبين ما كان يوجد في الحوزة العلمية حينذاك . ولا شك أن أساتذة كباراً وبارزين كانوا موجودين في هذه الحوزة يومذاك ، ولكنّ أشياء توجد في الحوزة الآن لم تكن موجودة في ذلك العهد ، ومنها درجة الوعي والمعرفة والتسلّح بوسائل التبليغ المعاصرة . وطبقاً لذلك فإننا نرى أن ثمة واجبات للحوزة . وبالطبع فإنني لن أذكر كافة الواجبات ، فلم أستطع استقصاءها ، أي لم أرد استقصاءها ، فلن أتحدث إلا حول المهم منها كما قدّرت .

اعتبار النظام جزءاً من الحوزة العلمية

أول هذه الواجبات هو أن على الحوزة العلمية أن تعتبر هذا النظام - أي نظام الجمهورية الإسلامية - جزءاً منها ، وأن تبذل أقصى جهودها للرقى به إلى مدارج الكمال وسد فراغاته . لقد نبغ هذا النظام من نفس تلك الحركة والنهضة العظيمة التي تأسست في هذه المدرسة الفيضية

والمسجد الأعظم . وإن النظام الديني هو نظام وضعت لبناته على أساس المعارف والأحكام والقيم الدينية ؛ فلا يمكن للحوزة أن تقف موقف اللامبالاة من هكذا نظام . ولا توجد أية منفعة أو هدف شخصي أو فئوي أو سياسي يستطيع أن يحول دون مساندة الحوزة للنظام ، ولا يحق له ذلك .

وإن الأنكى من عدم الدعم والمساندة والعمل على التكامل والسعي الحثيث لإصلاح نقاط الضعف لدى النظام هو مدّ يد العون لأعداء النظام ؛ فممّا يؤسف له أن أقدر وأرذل وأحقّر أعداء النظام يستمدون الدعم والتأييد من قبل البعض أحياناً ! فلماذا ؟ ! وبأيّ سبب ولأيّ دليل ؟ ! لأنه يوجد نقص ما في النظام ؟ وهل ينبغي تأييد أعداء النظام إذا كان يعاني نقصاً ما ، أو أنه يجب التغلب على هذا النقص ؟ ! إن ثمة نقاط ضعف بالتأكيد في مسؤولي النظام من أعلاهم إلى أدناهم ، وأنا في مقدمتهم ، ولا شك أن هناك الكثير من العيوب ونقاط الضعف التي لا تحصى . فلا بد إذاً من التغلب على نقاط الضعف هذه وإصلاحها والتعاون على إزالة العيوب .

إنه لا يمكن القول بأنه لا بد من حكومة إسلامية مائة بالمائة وإلا فلا ؛ أي أن نكون مثل حكومة الرسول الأكرم وأمير المؤمنين ، وإلا فمن الأفضل أن تقوم حكومة من الكفار والفسقة والفجار وما إلى ذلك ! فهذا ما لا يمكن التفوّه به ، وليس من المنطق في شيء . وهذه هي القضية الأولى .

إن الحوزة العلمية لا يجدر بها ، أن تتعاون مع أعداء النظام مهما كانت الأسباب والذرائع والأهداف ، ولا شك أن الحوزات العلمية تقف اليوم خلف النظام كطود عظيم .

إن مراجع التقليد العظام والفضلاء الكبار والشخصيات الرفيعة

والطلبة والفضلاء الشباب قد ساندوا النظام في وقت الحاجة بكل ما لديهم من قوة وشجاعة في كافة المجالات العلمية والسياسية .

إيجاد الصلاحيات اللازمة لمواجهة الأزمات الفكرية

وأما الأمر الثاني الذي اعتبره من واجبات الحوزة العلمية فهو أنه لا بد من التعجيل قبل فوات الأوان بإيجاد الصلاحيات اللازمة في أوساط الحوزات من أجل مواجهة الأزمات الفكرية ؛ ولعل البعض لا يدرون بما يدور في أذهان جمع من الشباب والمجتمع لأنهم لا يهتمون بذلك .

إن هناك اليوم من المراكز - في الداخل والخارج - من تصب كافة جهودها على محاولة تغييب الشباب عن مباني الإسلام والمفاهيم الإلهية ، وذلك عن طريق خلق المشاكل وإثارة الشكوك والريب بكلام لا مضمون له ، وإن كن برّاقاً في مظهره . لا يمكن للحوزة تجاهل هذه النشاطات التي بمقدوره إلقاء الشباب في خضمّ الأزمات الفكرية .

فيوماً ما - ومنذ حوالي أربعين عاماً - كان الفكر الإلحادي الماركسي يمثل إحدى الأزمات في هذا البلد ، سواء في الجامعات أو المحافل والبيئات المختلفة ، حتى في إحدى زوايا بعض الحوزات العلمية ، كنّا نلمح آثار هذا الفكر ، ولم يكن يدري بأصل القضية سوى عدد معدود من الناس ؛ فكانوا يكافحون ذلك الفكر ، ولم يتحرك الكبار إلّا بعد أن اتضحت ملامح الخطر ، فهل يجب أن نتصرف هكذا ؟ وهل نقف مكتوفي الأيدي حتى تظهر الأزمة الفكرية فتفسد عدداً من القلوب والعقول والضمائر المؤمنة ثم تفكر في إيجاد الحلول ؟

إن على الحوزات العلمية أن تكون قادرة على استشراف المستقبل والتنبيؤ بالأزمات الفكرية . وإن الأزمات الفكرية ليست كالأزمات

السياسية ، حيث أنها تتسلل بهدوء ، وتترك بصماتها بالتدريج ، ثم تبرز فجأة عندما لا يكون العلاج أمراً يسيراً .

إنني أعلن هنا أن الحوزة العلمية في قم قد حققت تطوراً ملحوظاً - والحمد لله - على نطاق الفقه ، والتي قلنا مراراً بأنها تمثل الفرع الأساس في حوزاتنا العلمية . فلا ينبغي التخلي أبداً عن رفع لواء الفلسفة الإسلامية ، لأنني أشعر بالخطر . إن الفلسفة الإسلامية فلسفة متعالية تماماً . وإنما هي التي يمكنها الكشف عن زيف الكثير من الأفكار الفلسفية وشبه الفلسفية .

إن الفلسفة الإسلامية هي مفخرة الحوزات العلمية ؛ ولقد كانت الحوزات العلمية هي الرافعة دائماً للواء الفلسفة الإسلامية ، ولا سيما الحوزة العلمية في قم في الحقبة الأخيرة ، فلا تتخلوا أبداً عن هذا اللواء . لقد طرق سمعي بعض التحذيرات من عدة قنوات ممّا جعلني أحس بالقلق شيئاً ما .

فلا بد من تدريس الفلسفة الإسلامية على كافة المستويات وبأسلوب جيد وعن طريق الكتب القيمة والاستعانة بالمتون الراقية .

منح المناعة للطلبة من الناحيتين الفكرية والسياسية

ثالثاً : يجب على مدراء الحوزة المحترمين وعلى الكبار والأعلام أن يمنحوا المناعة للطلبة من الناحيتين الفكرية والسياسية ؛ فلا بد من منح هؤلاء الطلبة المناعة على نطاق الفكر الإسلامي والأساليب الدقيقة في التعامل مع التيارات الفكرية المختلفة . وينبغي عمل شيء من أجل أن يشعر أي طالب بمقدرته على مواجهة أي فكر يبدر أمامه ، حتى ولو لم يكن يعرفه مسبقاً .

كما يجب أن يمنح الطلبة القدرة على التحليل السياسي في المجالات السياسية. إن هذا الحشد الكبير من الشباب في هذه الحوزة هو جمع بمقدوره، ويجب أن يكون بمقدوره تحليل الأحداث السياسية، وفهم كل تحرك تقوم به التجمعات والأجنحة المختلفة في الداخل والخارج، حتى يكون بوسع هذا الجمع أن يضع ذلك الخط المستقيم والصراط الإلهي نصب العين في خضم الأحداث، دون أن يقع فريسة للخداع.

وبالطبع فإن الفهم السياسي يختلف عن التسلية السياسية؛ وإنني لا أشعر بأمل كبير في هذه التسالي السياسية وبعض هذه التكتلات السياسية المصطنعة؛ فأنا لا أقصد هذا، بل ولا أنصح به، بل إنني أقصد الفهم السياسي والقدرة على التحليل السياسي الذي لا يخلو عن الأساليب والطرق الممكنة. فباستطاعة كبار الحوزة، وعليهم أن يقوموا بتنفيذ ذلك وهو ما ليس بالأمر العسير، ولا حل لهم سواه.

إنكم إذا لم تعلموا هذا الشباب الحوزوي التحليل السياسي؛ فإن أولئك الذين يدفعون التيارات السياسية ويثيرونها بهدف الاستغلال والتكسب - كما أشرنا - لن يقولوا بأنه لا داعي لملاحقة شباب الحوزات لأنه غير مستعد لذلك، بل إنهم سيأتون ويستغلون هذا العجز في الفهم والتحليل السياسي إلى أقصى درجة ممكنة، وهذه خسارة، فلا حل لكم سوى تدارك هذا الأمر.

إذاً فلا بد من منح الطلبة التوعية السياسية والقدرة على الفهم والتحليل السياسي. وينبغي للطلبة أن يعرفوا حقيقة هذه التحركات التي يقوم بها العدو إزاء هذه الشوكة التي اكتسبها الإسلام في الحقبة الراهنة، كما يجدر بهم أن يقفوا على كنهه وكيفية تحركات العدو في مقابل نفس الحوزات العلمية.

اختصار المنهج الدراسي في الحوزة

وأما النصيحة التالية التي أراها ضرورية في هذا المجال ، فهي أنه لا بد من اختصار المنهج الدراسي في الحوزة على أن يكون مفيداً ومثمراً وذا آثار عملية واضحة . لقد تحدثت سابقاً حول موضوع مناهج الحوزة ، وقلت إنني لست مع تهميش ولا تسطيح ولا تفرغ المناهج الحوزوية الذي يجزّ الجهل على الدارسين إطلاقاً ، فلا تتبادر الأفكار الخاطئة إلى الأذهان . وإنني أقول بأنه يمكن دمج هذه المرحلة الدراسية التي نقطعها عن طريق استخدام الأساليب الدراسية الحديثة ؛ ففيما يخص الأدب مثلاً ، ولا أعرف ماهي المدة التي تستغرقها دراسة الأدب في الوقت الحاضر ، فإن الأدب الذي ندرسه الآن في كتاب المغني أو مختصر المغني أو المطول أو مختصر المطول هو أدب استدلالي ، أي إنه طريق للاجتهاد في الأدب ، وهذا ما لا يحتاج إليه طلبتنا ؛ فالفقيه لا يحتاج لأن يكون مجتهداً في الآداب ، وإن ما يقال بأن الاجتهاد ضروري في كافة مقدمات الاجتهاد ليس بالكلام المتقن .

إن الاجتهاد ضروري في بعضها بالتأكيد ، ولكنه لا يلزم الاجتهاد في مثل هذه الأشياء ، بل ينبغي معرفة ماهي المعاني التي تستخدم فيها هذه الكلمة أو تلك ، وهذا هو القدر المتفق عليه في الأدب . وأما «لماذا تستخدم هذه الجملة أو هذه الكلمة بهذا المعنى ، وإن هذا النحويّ قال كذا وهذا هو استدلاله ، بينما قال الآخر كذا وهذا هو استدلاله» فما وجه الحاجة إلى هذا الكلام ؟! فلا بد من أن تكون الدراسة قوية وبلغة حديثة ومدتها قصيرة ، بحيث تكفي سنة أو سنتان لاجتياز مرحلة الأدب منذ البداية وحتى النهاية .

إن الطلبة الذين يلتحقون بالحوزات في أيامنا هذه بوجه خاص لديهم غالباً بعض المعلومات وعندهم مطالعات وقراءات بشكل ما ، ولا حاجة

لهم بهذه الكتب الفارسية والعربية والمختلطة . وثمة أيضاً جهات نظر حول الفقه والأصول ، وإن كانت القضية هنا تعتبر أكثر تعقيداً وصعوبة ، حيث أن مرحلة السطوح هي مرحلة في غاية الأهمية ، وهي الأساس لكل ما يعدها . وعلى أية حال فلا بد من الاهتمام دائماً بالمناهج والنظم الدراسية .

إن النظم والكتب الدراسية هي من الأمور التي تتغير وتتطور باستمرار في برامج المراكز التعليمية الكبرى ، فهم دائماً يتلافون ما فيها من نقائص وعيوب ، وذلك بما يتناسب من خصائص للتربية والتعليم .

معرفة الكفاءات الموجودة في الحوزة

والنقطة الأخرى هي ضرورة معرفة الكفاءات الموجودة في الحوزة ، وهو ما أشرت به منذ بضعة أشهر على مدراء الحوزة المحترمين . إن الحوزة تعتبر تجمعاً للكفاءات المختلفة ، فلا بد من اكتشافها ، لأن اكتشافها سيكون عاملاً مساعداً في استخدامها في المجالات المختلفة من معارف وعلوم ونشاطات علمية وتحقيقية من أجل ترشيد هذه الكفاءات .

الهجرة بهدف التعليم والتزكية

وأما الأمر الآخر الذي يعد من واجبات الحوزة فهو موضوع الهجرة ، أي الهجرة بهدف التعليم والتزكية والحضور بين الجماهير . ولقد قلنا هذا أيضاً في السابق ، حيث قدم الأصدقاء وبعض فضلاء الحوزة مشروعاَ تمهيدياً حول الهجرة ؛ فكل من يصل إلى حد من المعرفة والوعي والعلم في الحوزة ، عليه الذهاب إلى المناطق التي تحتاج إلى ذلك ، وما أشد الحاجة إلى الفضلاء الشباب والنشطين في شتى أرجاء هذا

البلد؛ ليس فقط في القرى، بل وفي المدن، وحتى في بعض المدن الكبرى. ففي الماضي كان يوجد في كل منطقة من المحافظات غالباً أحد المجتهدين المسلّم باجتهادهم؛ فلو طبقنا ذلك الآن أيضاً بما أصبح لدى الفضلاء والمجتهدين من معارف حديثة؛ فلسوف تعم النعمة كافة هذه المناطق. إن الهجرة إلى المحافظات والمراكز تجعل ارتباط وصلة العلماء بالجماهير أمراً ممكناً، وإن الاختلاط بالناس لمن الأمور الفائقة الأهمية.

إكمال المناهج الدراسية الحوزوية

وأما الموضوع الآخر في قائمة واجبات الحوزات العلمية، فهو إكمال المناهج الدراسية الحوزوية، ومن أبلغها ضرورة في نظري علم التاريخ. إنه لا ضرورة إطلاقاً في تدريس التاريخ، ولكن من الممكن أن يكون التاريخ مادة إضافية في المنهج الدراسي، إلا أن الطلبة يؤدون فيها امتحاناً وأن تكون ذات علاقة بتقدمهم الدراسي.

إن على طلاب الحوزة العلمية أن يكونوا على معرفة بالتاريخ، ولا سيما تاريخ صدر الإسلام، فهذا أمر لمن أهم المواضيع التي تستنير بها عقول الدارسين. وكذلك هو تاريخ المشروطة، منذ عهد المشروطة وحتى الآن، فهذا أيضاً من الأهمية بمكان. كما توجد مراحل تاريخية أخرى على درجة من الأهمية وإن كنت لا أود الخوض في الجزئيات.

ونفس الشيء بالنسبة لعلم الحديث، حيث لا بد من وجوده في البرنامج العملي للطلبة. إن على الطلاب أن يكونوا على علم بالحديث، وأن يعرفوا «الكافي»، وأن يعرفوا بعض كتب الحديث الخاصة.

إن قراءة كلمات الأئمة أمر ضروري بالنسبة لنا، لأن مطالعة كلام أئمة الهدى عليهم السلام تثير في الأذهان الكثير من الأفكار السامية، وكذلك الحال بالنسبة لنهج البلاغة.

ترشييد أمر التحقيق

وثمة موضوع آخر أجده ضرورياً بالنسبة للحوزة ؛ إن الكثير من فروع الأبحاث والتحقيقات توجد اليوم - ولحسن الحظ - في حوزة قم العلمية ؛ يتعلق بعضها بالحوزة ، وبعضها الآخر بخارج الحوزة ، وبعض يتعلق بالأقسام الخاصة .

إن الطلبة والفضلاء الشباب يقومون بنشاطات تحقيقية ، فيجب أن يكون ذلك مع التدبير ، وأن تعمل إدارة الحوزة على أن يكون أحدها مكملاً للآخر ، بحيث تنبثق عن مجموع هذه التحقيقات منظومة كاملة لرصد الغزو والهجوم الفكري والإعلامي الذي يشنه العدو ، وإمكانية مواجهة هذا الهجوم . وبذلك تتخذ غالبية هذه الأبحاث في الأقسام والتخصصات المختلفة بعداً عملياً . ولا بد من اختيار أسلوب مناسب ، بحيث يقوم كل من يريد أن ينشئ مجموعة للتحقيق بالتشاور مع إدارة الحوزة حتى تكون على علم بالأمر ، وأن يعمل بإرشاداتها بصورة ملزمة ، وأن تلقي نظرة شاملة على برامج التحقيق في الحوزة بحيث تتخلص التحقيقات والأبحاث من الأعمال التكرارية والعديمة الجدوى والفائدة ، حتى لا يذهب وقت الحوزة سدى ؛ وهذا أمر ضروري جداً .

الاهتمام بقضية إدارة الحوزة العلمية

لقد كانت هذه بعض المحاور التي وددت الحديث عنها فيما يخص واجبات الحوزة والتي يتعلق أغلبها بالإدارة . وإنني أريد الاستفادة من هذه الفرصة فأقول : أيها الأعضاء .. انظروا بجدّ واهتمام إلى قضية إدارة الحوزة ، حيث أن البعض لا يعيرون أهمية لهذا الموضوع الجاد ؛ فلو كان باستطاعة أحد المراجع العظام أن يأخذ على عاتقه مسؤولية إدارة

الحوزة بصورة تنفيذية فله الأولوية ، لأن موضوع إدارة الحوزة على قدر كبير من الأهمية ؛ فإذا تمكن أحد مراجع التقليد من التخلي عن كافة النشاطات المتعلقة بالمرجعية - من إفتاء وإنجاز لمطالب المقلدين وتدريس وغير ذلك - وصبّ كل اهتمامه على إدارة الحوزة فحسب ؛ لكان قد نهض بالعبء الجسيم ، فإدارة الحوزة أمر بالغ الأهمية . وعلى كل حال ، فإن بعض الأعضاء يتحملون هذه المسؤولية الآن والحمد لله ، فيجب على الجميع التعاون معهم حتى تنجز الإدارة أعمالها على ما ينبغي في طريقها نحو الأمام . وعلينا جميعاً أن نعرف قدر من تحمّلوا المسؤولية التنفيذية للحوزة العلمية وأن نجلّهم .

خامساً : نصائح وإرشادات

وأما القسم الخامس والأخير من حديثي فيختص ببعض النصائح والإرشادات لكم أيّها الأعضاء :

الجد في الدراسة

أولاً : عليكم أن تكونوا جادّين في الدراسة ، فلا تتركوا منهجاً من المناهج جانباً لما فيه من بعض العيوب ، بل عليكم بمواصلة هذا المنهج بجد ومثابرة ما لم يتغير . ونصيحتي لكم قبل الفراغ من مرحلة السطوح هي ألاّ يُشغل الطلبة أنفسهم بأمر آخر قبل الانتهاء من السطح ؛ فالدراسة قضية مهمة جداً ، والعلم والمعرفة هما القاعدة الأساسية التي لا يمكن القيام بأيّ دور بدونها ، أو بالأحرى عدم القيام بأيّ دور على الوجه الصحيح . إن القيام بدور بصورة خاطئة أشدّ ضرراً بكثير من عدم القيام بأيّ دور على الإطلاق .

الحفاظ على الزي الديني

وثانياً : الحفاظ على الزي الديني . فما هو هذا الزي ؟ إن باستطاعتي تعريفه في جملتين : الزهد مع الكرامة ، والنظم في الدراسة والحياة ؛ فطالب العلم عليه أن يحيا حياة الزهد . ولا شك أنني مندهش ومتألم جداً من الأوضاع المادية في الحوزة العلمية ؛ فبعض ما يصلني أحياناً من أخبار حول المشاكل التي يعاني منها الكثير من الطلبة والفضلاء - أي المشكلات المادية - هو أمر مؤلم ومحرز للغاية ، وهذا موضوع آخر لا بد من العثور على حل له في الحقيقة .

إن طلاب العلوم الدينية اليوم يعانون من شظف العيش أكثر من كل طبقات المجتمع - بضمنها الموظفون والعمال وسواهم - وهذه حقيقة لا شك فيها ، في حين أنهم يقومون بواحد من أعظم الأعمال وأشرفها . إنه لا يمكن الحكم على الظواهر كثيراً ؛ فما كان يتمتع به طلاب العلوم الدينية من مناعة وعزة نفس وترفع منذ الماضي لا يدع مجالاً لمعرفة مواطن الأمور أمام السطحيين والذين يحكمون على الأشياء بظواهرها . إنني لا أريد الخلط بين هاتين المقولتين ، إلا أن ما أقوله الآن هو أن الطلبة - سواء منهم المستغني أو المحتاج - عليهم أن يحافظوا على زيهم الديني ، أي حالة الزهد والقناعة التي لا تنفك عن عزة النفس ، فهذا هو الأمر الأول . وأما الثاني فهو النظم في الدراسة وبالتالي في الحياة ، حيث أن النظم من مميزات طلبة العلوم الدينية .

التحلي بالأخلاق الإسلامية

وأما نصيحتي التالية لكم أيها الأعزاء فهي ضرورة معرفة الأخلاق الإسلامية - كبيراً وصغيراً وخصوصاً الشباب - وكذلك التحلي بالأخلاق .

إن دروس الأخلاق تُلقى الآن في الحوزة ولحسن الحظ ، ولكن إعلموا يا أعزائي أن دروس كل منّا أن ينازع ما بداخله من رذائل ومثالب بقلبه وعمله وأن يهتم بهتذيب نفسه بشكل متواصل . فاقراءوا دعاء (مكارم الأخلاق) الشريف - وهو الدعاء العشرون من أدعية الصحيفة السجادية - باستمرار ، حتى تعرفوا ماهي الأمور التي سألها الإمام السجاد عليه السلام من الله تعالى في هذا الدعاء . إننا نجهل الكثير من هذه الأدعية كفصل مهم من باب الأخلاق الحميدة .

إن المفاهيم والمضامين الواردة في الدعاء الخامس من الصحيفة السجادية : «يا من لا تنقضي عجائب عظمته» والذي تقول بدايته «اللهم اغننا عن مبة الوهابين بهبتك ، واكفنا وحشة القاطعين بصلتك» تعتبر كلها دروساً لنا . فلنتعرف كلمات الأئمة وأدعية الصحيفة السجادية وهذه الأدوية الناجعة التي تشفي أدواءنا الأخلاقية وتضمّد جراحنا وآلامنا . اعرفوا قدر الدعاء والتوسل والتوجه إلى الله ، وما يضيف به من نور على نفوسنا ، وهذا كل شيء .

لقد كان إمامنا العظيم - كما سمعت من كبارنا - يتعبد منذ شبابه في حرم السيدة المعصومة . وقد نقل لنا المرحوم الميرزا جواد الطهراني في مشهد قبل الثورة بعدة سنوات فقال : ذهبت إلى قم للدراسة في الحوزة ، وكنت في كل يوم أذهب فيه إلى الحرم أرى وجهاً نورانياً ، ورجلاً وقوراً ، وشاباً نورانياً ، وسيداً نورانياً ، وقد غرق في العبادة ، فأنجذبت إلى نورانيته وتعبدته ، وسألت عنه ، فقالوا إنه الحاج السيد روح الله الخميني .

وكان هذا في ذلك الزمان عندما لم يكن إمامنا العظيم - هذه الشخصية البارزة - قد بلغ الثلاثين من عمره . نعم ، فهذه هي نتائج تلك العبادات والتوجهات والاتباط والاتصال بمعدن نور الغيب الإلهي والأولياء

الإلهيين . فاعتنموا هذه الإشراقات في قلوبكم الشابة وقدروها حق قدرها .

الثقة بالنفس علمياً وسياسياً

وأما نصيحتي الأخرى لكم أيها الأعزاء ، فهي أنه يجب عليكم أن تتمتعوا بالثقة الكاملة في النفس من الناحيتين العلمية والسياسية . إن علمكم شيء ثمين جداً ، لأنه علم كفيل بحل الكثير من معضلات البشرية .

إن وعيكم السياسي وموقفكم السياسي وكذلك وعيكم الفكري وموقفكم الفكري والعقائدي لابد وأن يكون بالشكل المؤثر في مختلف البيئات ، بحيث لا يشعر الطالب الشاب بالتزعزع في مواجهة العواصف الفكرية المضادة ، ولا يحس بالضعف أو الخشية . وإن عليكم باكتساب العزة والثقة بالنفس والاعتماد على النفس ، ولذلك مراحل لابد من المرور بها .

الغيرة الدينية إلى جانب ضبط النفس

كما وأنصحكم بأمرين - يشته به بينهما أحياناً - فيما يخص القضايا السياسية ، وهما :

أولاً : وكما نصح وينصح الكبار دائماً ، ضرورة الغيرة الدينية ؛ فلا تدعوا الغيرة الدينية تتلاشى من محيط الحوزة العلمية وأبنائها .
وثانياً : ضبط النفس في القضايا السياسية . فلا ينبغي الخلط بين هذين الشيئين .

إن البعض يشتاقون لأن يروا الحوزة العلمية بمن فيها في حالة من العصبية والاضطراب والتصرفات السياسية الهوجاء ، فلا تدعوهـم

يحققون هذه الرغبة .

إن الحضور السياسي ، والخطابة السياسية ، والمواقف السياسية ، أمور جيدة وضرورية وتقتضيها الغيرة الدينية أحياناً ، ولكن المرفوض هو التحرك الأهوج والمنفعل ، الذي لا يمكن الدفاع عن مردوداته في موضع النقاش ، فلا . ففرّقوا بين هذين الأمرين ، واجعلوا دائماً حداً فاصلاً بينهما .

إفشال مؤامرة فصل الحوزة عن الجامعة

والنقطة التالية هي أنني أنصح الإخوة الأعزاء في الحوزة العلمية بإفشال مؤامرة التفرقة والنزاع بين الحوزة والجامعة ؛ فاعتبروا الجامعة نظيراً علمياً لكم ، لأن الجامعة نظير الحوزة ، إلا أنكم تدرسون في فرع ، ويدرس الآخرون في فرع آخر ، فهاهنا مجمع علمي ، وهناك مجمع علمي آخر هو الجامعة . لقد كانت مساعي العدو منصبّة دائماً على خلق الكراهية والعداوة والبغضاء بين الحوزة والجامعة ، فلا تدعوا ذلك يتحقق . فإذا ما قام أربعة أفراد بحركة مرفوضة في أحد أركان الحوزة من تصرف مرفوض أو خاطئ ؛ فلا يمكن تعميم هذا ولا ذاك . وإنني أعني بالصلة بين الحوزة والجامعة تلك الصلة العاطفية الصرفة ؛ وطبعاً فإن الصلة العلمية والعملية يمكن تحقيقها بينهما بفضل المدراء ، ولكنني أقتصر هنا على الصلة العاطفية .

المرونة والتواضع في الصلة بال جماهير

وأما نصيحتي الأخيرة ، فتتعلق بالصلة بين طلابنا الأعزاء والشباب والفضلاء المحترمين وبين الجماهير ؛ فلا ينبغي تناسي المرونة والتواضع والمدارة ، وفي نفس الوقت التأثير والتبليغ والهداية مطلقاً ،

كأصل مهم في هذه الصلة .

إن ميزة طلاب وفضلاء الحوزة العلمية هي قدرتهم على استمالة الناس وجعلهم يتأثرون بكلامهم قاصدين الهداية والإرشاد ؛ فإذا ما انعكس الأمر ، جاءت النتيجة معكوسة .

إن الكلام إذا لم يكن صحيحاً ولم تكن الفكرة صائبة ، وكان التصرف متعالياً ومترفعاً وخشناً ؛ فإن القلوب لن تميل إليكم ، ولن تُسلم العقول لكم قيادها .

إن اليوم هو ذلك اليوم الذي تحتاج فيه الحوزة العلمية إلى استمالة الأفكار الأخرى إلى فكرها السامي والفكر الإسلامي الرفيع ، كما تحتاج إلى استحصال رفقة الآخرين وتعاونهم ولفت أنظارهم إليها واستمالة قلوبهم .

اللهم إننا نسألك بمحمد وآل محمد أن يكون ما قلناه وما سمعناه خالصاً لوجهك وفي سبيلك وأن تتقبله منا .

اللهم واجعل نظامنا الإسلامي قوياً ومتماسكاً ، وامنحه قدرة مواصلة طريقه الطبيعي والمنطقي والرشيد على خطى الأنبياء العظام .
اللهم وبلغ نظامنا الإسلامي هدفه العظيم في رفع قواعد الحضارة الإسلامية .

اللهم انصر الإسلام والمسلمين في كل مكان ، وادحر أعداءهم أجمعين . اللهم وتفضل على حوزاتنا العلمية بما ينبغي لها من تطور علمي وعملي وسياسي واجتماعي . اللهم واحشر روح إمامنا العظيم الذي كان فاتح هذه السلسلة الكريمة والمباركة مع الأرواح الطاهرة للأنبياء والأولياء والشهداء ، واحشر شهداءنا الأعزاء مع الرسول ﷺ .
اللهم ووفق طلابنا الشباب وفضلاءنا الشباب للقيام بالدور الرفيع والخلق في كافة الساحات والمجالات .

هدف الحياة الإنسانية

(٢)

✽ الشيخ مرتضى المطهري

المذهب والنظرية الكونية

ويمكن التعبير عما سلف بنحو آخر فيقال :



إن المذهب الاجتماعي الكامل ، والايديولوجية الصحيحة يحتاجان إلى (نظام فكري وفلسفي) كما يحتاجان إلى عنصر الإيمان . أما النظام الفكري الفلسفي فهو يشمل نظرة كونية محكمة ، وموقفاً منطقياً خاصاً مجهزاً بالاستدلال القوي حول العالم ، منظماً تنظيمياً شاملاً مترابط الأجزاء .

أما معنى امتلاك عنصر الإيمان فهو أن يمتلك المذهب القدرة على إيجاد الحب والعلائق القلبية الحارة بين أتباعه وأهدافه ، والهدف الأسمى الذي يفوق أية مصلحة فردية وشخصية .

والنقص الذي يلزم بعض المذاهب الاجتماعية بل يتوفر في أغلب

المذاهب الاجتماعية اليوم كالمذهب الوجودي ، هو أنهم يسعون لطرح الأيديولوجية مجردة من الإيمان . أي من دون شيء هو فوق الإنسان يعشقه الإنسان ويحبه فهو في الواقع -وبنحو ما -مورد لعبادة الإنسان إنهم يريدون أن يوجدوا المذهب على أساس من الفلسفة المحضة . وهو أمر لا يكون . ذلك أن الأيديولوجية إنسانية كاملة إذا قامت على أساس من فلسفة محضة مجردة من الإيمان والعشق والحب لهدف أسمى وأعلى .

وربما رأينا الأمر شبه دوري (توقف الشيء على نفسه) . فمن المعلوم أنه اتباع للخيال أن يستفاد من قوة الخيال البشري ، فيجعلون الأيديولوجية موضوعاً للإيمان لأنهم يحسون بالنقص والفراغ ، والأيديولوجية نفسها يجب أن تعتمد على الإيمان ، الإيمان بهدف أسمى . هذا في حين أن الأيديولوجية شيء يجب أن يشتمل على الإيمان ، أي أطروحة تشتمل على الإيمان ، ولأنها مشتملة عليه فهي مقدسة . أما لو لم تكن بنفسها كذلك وكانت مجرد نظام فكري واريدها أن تكون موضوعاً للإيمان ، أي أريد للأفراد أنه يعشقوها ويحبوها ويؤمنوا بها ، فهذا هو الأمر المجانب للمنطق ، أي أنه أمر يراد إلقاؤه وتلقيه وتعميقه بالقوة ، وهذا ما قد يحصل ، ولكنه على أي حال بلا أساس منطقي معتد به . ونحن الآن نستذكر بعض الملاحظات الماضية حول المذهب :

«إن المذهب عبارة عن نظام فكري وعملي موحد» بمعنى أنه ليس نظاماً فكرياً نظرياً صرفاً يتعلق بالعلوم النظرية ، وليس في ما ينبغي فعله .

وحسب الاصطلاح الفلسفي المتداول بيننا فإن المنهج الفكري النظري يعني التفكير في ما هو كائن ، كأن نقول فرضاً «إن فيزياء ارسطو نظام

فكري نظري، بمعنى أنه نوع من التفكير في ماهو واقع وفي كلفته» أو نقول : «إن ففزيا نوتن هي نظام فكري نظري آخر حول ماهو كائن» . أما النظام الفكري العملي فهو يعني النظام الفكري الذي يدور حول ما ينبغي .

والكمة في اصطلاح القدماء تقسم إلى نظرية وعملية ، فالنظرية تعني الكمة والإدراك الصحيح لما هو كائن ، والعملية تعني الإدراك الصحيح والواقعي لما ينبغي أن يكون .

وعلى هذا فالمذهب الذي هو نظام واحد فكري وعملي يعني النظام الفكري الدائر حول ما ينبغي أن يقع . فما يطرح يدور حول ماهو الأفضل أن يكون ، وهذا يعني بالطبع البحث حول ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان وكيف يجب أن يكون الفرد والمجتمع ؟

وهنا يجب أن نضيف كلمة أخرى عندما نتحدث عن المذهب الاجتماعي ، فنقول : «إن المذهب الاجتماعي عبارة عن نظام فكري اجتماعي علمي واحد ، لا مجموعة من الأفكار غير المتناسقة والتي لا تشكل جهازاً واحداً» . فلنلاحظ أي جهاز مصنوع ، إنه مشكل من مجموعة أجزاء لكل منها عمل معين ومحل مشخص ، إن البناء يشكل جهازاً واحداً لأن كل جزء منه يؤدي وظيفة خاصة ، والمجموع يؤدي هدفاً واحداً . ومن هنا نقول : إن الأفكار المتفرقة لا تشكل مذهباً ومدرسة لأنها لا تؤدي إلى وحدة متكاملة ، وجهاز واحد .

فمجموع الأفكار المتناسقة التي ترتبط بالحياة العلمية - بما ينبغي وما لا ينبغي - يشكل مذهباً يقوم على أساس من الأفكار النظرية ، وهذه الأفكار تشكل روحاً لهذا المذهب . ومن هنا قلنا إن الأيديولوجية يجب أن تقوم على أساس من نظرة كونية . فالنظرة الكونية هي : نظرة للكون كما

هو كائن . والأيدولوجية هي نظرة إلى الإنسان كما ينبغي أن يكون ويصنع .

إنَّ أساس أيِّ مذهب ومادته الأصلية هي الروح التي يجب أن تمنح جميع الأجزاء وحدتها ، وتحولها إلى جهاز واحد وجسم واحد ، أما الأشياء الأخرى فهي بمنزلة الأعضاء والجوارح الرئيسة وغير الرئيسة ، وحتى أن بعضها بمنزلة الشعر الذي ينبت على الجسم ، أي هي إلى هذا المستوى من عدم الأصالة . تماماً كما نقول في السلوك هذا لازم وهذا غير لازم ، وهذا مستحب وذاك واجب . والفكرة الوحيدة التي يمكنها أن تشكّل روحاً للمذهب هي تلك التي تشكّل - من جهة - الأساس النظري الكوني لهذا المذهب ، أي تعطيه نظريته وموقفه وتقييمه للوجود ، ومن جهة أخرى تمنحه هدفه . وهذا هو ما أكدناه من قبل من أن الأيدولوجية يجب أن تمتلك أساساً فلسفياً وأساساً إيمانياً .

والمقصود بالأساس الفلسفي : الأساس المنطقي الذي يثبت له ما هو واقع بالمنطق والاستدلال . أما المقصود من الأساس الإيماني فهو أن يقوم المذهب بعرض شيء يشكّل موضوع الإيمان وموضوع الهدف الكبير ، أي يشكّل معشوقاً ومحبباً له ، ويحرّك البشر نحو هذا المعشوق والمحبوب . فيجب إذن أن يمتلك فلسفة ومثالاً أخلاقياً ومثالاً اجتماعياً .

إن الطاقة للنظرة الكونية هي قدرتها على صياغة المثل الأعلى . وإلا فمجرد كونها نظرة للكون لا تحرّك الطاقات . تماماً كأن تقوم أكبر مدرسة في علم الفلك والنجوم بعرض المسائل الفلكية فتحصل في قبال ذلك على مجموعة من المعلومات عن العالم ، دون أن يكون لذلك أي تأثير في خلق رابطة بينها وبيننا . بمعنى أنه سواء وجدت هذه النجوم أم

لم توجد فلا تأثير ذلك على حياتنا أو هدفنا .

إن (التوحيد) له هذه الخصيصة فهو - من جهة - أساس فلسفة كونية ومادتها الأساسية وموقف من الوجود ككل ، ومن جهة أخرى نوع من المثل الأعلى . وهذا ما نجد بالضبط في كلمة (لا إله إلا الله) فجانبا النفي (لا إله) يعطينا المفهوم الفكري وفي جملة (الإثبات) يبين مفهوم أصل الوجود .

وقد كان قدماؤنا يعبرون بتعبير متميز فيقولون :

إن التوحيد على أقسام :

فهو توحيد في الذات ، وتوحيد في الصفات ، وتوحيد في الأفعال ، وتوحيد في العبادة .

فالتوحيد في الذات يعني الاعتقاد بوحداية الذات الإلهية ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ .

والتوحيد في الصفات يعني أن ذاته لا تغاير صفاته ، وليست هناك أية صفة هي غير الصفة الأخرى . فهو في عين البساطة والوحدة ... له كل الكمالات بنحو البساطة والوحدة :

وكذلك التوحيد الأفعالي : كل هذه أفكار نظرية فلسفية تقول كلها إنه هكذا ولكننا نجد إلى جانبها :

التوحيد في العبادة ، فهو يؤكد بأن الله يجب أن يعبد لا غير ، وأنه أهل العبادة ، وأن عبادته تمتلك جذورها في الروح والنفس الإنسانية ، ﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض ﴾^(١) .

إن عبادتنا التي نؤديها هي في الواقع نوع من التسليم والتبعية الاختيارية لعبادة تكوينية تقوم بها كل الموجودات ﴿ يسبح لله مافي

(١) آل عمران : ٨٣ .

السموات وما في الأرض ﴿١﴾ ﴿سبح لله ما في السموات والأرض﴾ ﴿٢﴾ ولله يسجد من في السموات والأرض ﴿٣﴾ .

ومن هنا فما يدعونه باسم (التوحيد في العبادة) يعني أن الذات الإلهية هي المثل الأعلى للبشرية .

فكما أن الذات الإلهية واحدة لا مثل ولا كفاء لها . وكما أنه لا تركيب في ذاته .

وكما أنه مبدئ الكون الوحيد فهو الذات الواحدة التي يجب أن يعبدوها الإنسان ، والمؤهلة للعبادة .

وهذا ما نعنيه من أن التوحيد يملك الخصيصتين معاً ، فهو من جهة نوع من النظرة ونوع من التقييم للوجود ومن جهة أخرى هو هدف أعلى للبشر .

أما الماركسية فليست كذلك . إن النظرة الماركسية للكون نظرة كونية مادية ، والنظرة الكونية المادية موقف وتقييم للوجود وفلسفة له ؛ لها أثرها بالطبع في توجيه الحياة والمعيشة فيها ، ولكنها ليست بنفسها ، مثلاً سامياً . إن الماركسية لن تمنح البشرية مطلقاً هدفها السامي ، إن الهدف الذي يمكنها أن تعرضه للبشرية هو الجانب الاقتصادي لا المادي بمعنى أن الماركسية الاقتصادية تعرض أمام البشرية هدفاً ، ولكنه ليس هدفاً إنسانياً سامياً إنها تعرض أمام الطبقة المحرومة منافعها كهدف سام وتقول لها : أيتها الطبقة المحرومة إسعي للحصول على حقوقك . إنها لا تتجاوز هذا الحد . فهي من حيث طرح الهدف السامي أيديولوجية ناقصة . لأن هذا الموقف إنما يؤثر إذا لم يصل الإنسان إليه ، فإذا وصل

(١) الجمعة : ١ .

(٢) الحديد : ١ .

(٣) الرعد : ١٥ .

فماذا يكون الموقف ؟ وسوف تصل الطبقة المحرومة إليه بسرعة ، إذ بمجرد القضاء على الطبقة الحاكمة ونزولها عن عرش استبدادها فإن الهدف سوف ينتهي وتتم الأيديولوجية .

هذا علاوة على أن المعنى لا يمكنه أن يطرح نفسه كهدف مقدس . إن الهدف المادي ، مادي مئة بالمئة ، وليس هدفاً يتجاوز الأبعاد الإنسانية ، ولذلك فإن التضحية في سبيل هذا الهدف سوف لن تكون منطقية لأنها تتضاد والهدف . إنه يسعى للحصول على المنفعة في حين يطلب منه أن يضحي بتمام وجوده ، فما قيمة هذا الهدف الذي يفقد نفسه في سبيل تحصيله ؟

إن الماركسية بنفسها ليست هدفاً سامياً ، وإنما هي في الهدف مذهب بل مثل أعلى ، وهي رجوع إلى الغرائز الفردية . وهذا يعني أن ما هو المادة الأساسية للنظرة الكونية فيها هو بنفسه ليس فكرة وهدفاً فردياً أو اجتماعياً .

إن القوة الماركسية تتوفر في كسر القيود وتحطيمها ، ولكنها لا تستطيع بعد ذلك أن توجه كل شؤون الحياة التي تعم الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية ، اللهم إلا بأسلوب غير مباشر ، وحينئذ (العدالة) و (الأخلاق) يفقدان مفهومهما الواقعي .

وبعبارة أخرى فإن روح المذهب ، هي تلك التي تصوغ المذهب - عبر نوع من الارتباط العلوي والمعلولي - والمؤثر أكثر في هذا الارتباط هو الهدف والمثل الأعلى الذي يعطيه المذهب ، ولهذا نجد أنه ليست كل نظرة كونية - مهما كانت - صالحة لتشكيل روح المذهب ، فإن بعض النظرات لا تملك الهدف السامي .

إن الإنسان في بنائه الحياتي ينظر للمستقبل ، لا إلى الحال أو الماضي .

فما هو العالم وكيف كان ويكون ؟ لا ربط له بمسألة : ما الذي أعمله لكي أحصل على عالمي المثالي المطابق لميولي ؟ وبعبارة أخرى فالفلسفة ليست كافية لوحدها . كما أن هناك فرقاً بين النظرات الكونية من زاوية أخرى ، وهو أن بعضها يوجد نوعاً من الالتزام ، الأمر الذي لا يوجد البعض الآخر .

إن النظرة الكونية التوحيدية توجد الالتزام وتفرض المسؤولية ، خلافاً للنظرات الكونية غير التوحيدية . فإننا مهما فكرنا في كيفية أداء الوجودية إلى الالتزام فإننا سوف لن نصل إلى نتيجة ، لأنها لا تملك أساساً وقاعدة . إنهم يتحدثون كثيراً عن الالتزام والمسؤولية ، ولكننا لانعلم أين هي القاعدة التي يبتني عليها الالتزام هذا ؟ أنا مسؤول عن نفسي ، ذلك فقط لأنني حر . إن هذه الحرية لا تعني أكثر من أن الآخرين ليسوا مسؤولين مقصرين . فلو كنت مجبوراً فليست أنا المقصر ؛ وإنما الآخرون ولكنني عندما أكون حراً فما الموقف ؟

وطبيعي أن الحرية التي يطرحونها لا مفهوم لها أساساً ، بل هي مغلوطة مئة بالمئة ، لأنها تعادل الحرية التي يقول بها الأشاعرة عندنا والذين أرادوا أن يثبتوا أن الإرادة الإنسانية حرة تماماً ، ولا ربط لها بأي شيء . وتتوجه لهذا الكلام اعتراضات هامة . ولكن لنفرض بأنني حر ولا تحكمني أية جبرية فلا توجد طبيعة إنسانية لها لوازمها ، ولا يوجد جبر بيئوي ، كما لا يوجد جبر إلهي ، وكنت مطلق الحرية حينئذ يقول هؤلاء : أنا مسؤول عن نفسي . والحد الأعلى لهذا الكلام هو أن يقصد أنه ليس هناك أي عامل مقصر تجاهي ؛ فإذا شقيت فأنا المقصر . ولكن هل يعني هذا المسؤولية أمام الآخرين ! لأقول بعد ذلك : إنني مسؤول أن أختار شيئاً ، أختار وجوداً ينفع الآخرين أيضاً ؟

إنهم يريدون أن يلقوا مسؤولية الآخرين على عاتقي ، ولكن من أين ينبع هذا الإحساس بالمسؤولية في أعماقي ؟ فإذا قيل : إنني أؤثر في الآخرين ؛ فليكن الأمر كذلك ، ولكن المسؤولية شيء آخر . ذلك ؛ أن الآخرين أحرار أيضاً ، وتلك الحرية المطلقة لا تنسجم مع المسؤولية تجاه الآخرين .

إن مثل هذه الحرية التي يطرحونها لا يمكن أن تكون نموذجاً . فكوني حراً يعني إنني مسؤول عن نفسي ، ولأن أي طريق اختاره يعني أنه حسن ، ويتضمن بالملزمة - كما يصطلح - أن عليكم أن تختاروه ، بمعنى أنني أمنح طريقي الكلية المطلوبة ، وأقول أنه الطريق الحسن ليس لي فقط ، وإنما للجميع ، فأنا أدعو الآخرين إلى هذا الطريق .

وكما قلنا فإن الآخرين أحرار أيضاً ، وليس هناك أي عامل يرجح إرادة أحدهم على إرادة الآخرين ، كأن يؤثر مثلاً في اختيارهم .

ثم : لنفرض أننا قبلنا هذا الأمر وهو إلى هذا الحد صحيح ﴿ وكونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم ﴾ فما أفعله يعني أنني أراه حسناً ، وأشجع الآخرين على العمل به ، فأنا أؤثر في اختيار الآخرين ، ولكن هذا التأثير في إرادة الآخرين شيء غير الإحساس بالمسؤولية ، ذلك لأن هذه المسؤولية يجب أن تتوفر أولاً في وجداني .

إن كوني مؤثراً ليس أكثر من كوني مدركاً بأنني سبب شقاء الآخرين ، ولكن ذلك لا يوجد أي التزام أو مسؤولية تمنعني من العمل ضدهم ، فأقول : لأنني مسؤول ؛ فسوف لن أفعل ذلك ، لأنه من الذي سيحاسبني ؟ هل أن هناك إلهاً يحاسبني ؟ إنه يرفض ذلك . هل الوجدان ؟ وهو أيضاً يرفض وجوده ، فمن سيكون المحاسب إذن ؟

أما النظرة الكونية التوحيدية فهي لهذا السبب تقدم المثل السامي ،

وتزرع المسؤولية ، وهي بعد هذا هادية بمعنى أنها ترسم الطريق أمام الإنسان ، وتوضح أسلوب الوصول إلى الأهداف ، وهي بالتالي تتبع الحماس وتطمئن القلوب وتبعث نحو التضحية والفداء .
وهناك حقيقة أخرى :

فكما ذكر العلامة الطباطبائي (صاحب التفسير الرائع : الميزان) فإن مبدأ استحالة اجتماع النقيضين ، هو مبدأ تنتهي إليه كل القضايا ، وبدونه لا يحصل أي يقين بأي مبدأ ، أو على الأقل فإن اليقين بأي أصل لا ينفي احتمال أي أصل مخالف له ما لم نؤمن بمبدأ استحالة اجتماع النقيضين ، نعم ، كما أن الأمر هنا بهذا النحو فإن مبدأ التوحيد له هذه الصلاحية ؛ لأن يروي جذور كل شيء كالماء تماماً ، ويوصل المدد لكل الأجزاء في البناء العام كالدّم بالنسبة للجسم ، ويبعث الحياة في كل الجهات ويحرّكها تماماً كالروح .

وفي مجال المثل السامي ، نجد سارتر وغيره يطرحون بعض الآراء ، فيقولون : «إن على الإنسان أن لا يقف عند حد معين ، بل يتقدم دائماً ويقتحم كل الحدود ، ويغير أطروحاته ، فإذا وصل إلى هدف ، تجاوزه إلى آخر ، وهكذا يَمْضِي إلى الأمام» بمعنى أن الحركة اللامتناهية غير واضحة عند بدء المسير ، ولكنه ما إن يتحرك باستمرار ؛ حتى تتفتح أمامه الآفاق أفقاً أفقاً ، ولكنه لا يعلم شيئاً عن الهدف النهائي ، بل لا يعرفه أبداً لأنه لا يريد أن يصل إلى نقطة ثابتة يعتبرها موتاً له .

أما في التوحيد فإننا نجد الهدف منذ البداية ، واضحاً مشخصاً ولا متناهياً في نفس الوقت . وهذا أمر له أهميته الخارقة ، ذلك أن ذات الهدف ، لا متناهية ، فهو دائماً هدف جديد ولا يبلى مطلقاً .

وعلى هذا فليست أية نظرة كونية - مهما كانت - صالحة لأن تشكل

أساساً وروحاً للمذهب الحياتي بحيث تكون له هدفاً أسمى ، كما تعطي طاقته المحركة سواء من زاوية تعيينها للهدف أو من حيث زرعها للمسؤولية . فتكون بذلك : قوة محرّكة ، ومنبعاً للمسؤولية ، وهادياً لسبيل الوصول إلى الأهداف ، وبالتالي تكون باعثة على الحماس والتضحية ، ومغذية لكل أجزاء البدن ، ومحافظة على حياتها ، وبالتالي نافذة إلى الجميع نفوذ مبدأ الاستحالة إلى كل المبادئ - كما أسلفنا - .

ومن هنا فإننا نعتقد أن النظرة الكونية التوحيدية هي وحدها التي تمتلك كل هذه الخصائص في آن واحد .

الإيمان والكمال الإنساني :

هناك مسألة أساسية تناسب بحثنا هذا وهي :

ماهي حقيقة الإيمان المطروح في الإسلام والذي يلوح لنا في شتى الآيات القرآنية فيشكل محور المسائل كلها ؟

طبيعي أن الإيمان يكون بالله في الدرجة الأولى ، وبعد ذلك بالأمور الأخرى التي يطرحها القرآن الكريم (الملائكة ، الكتب ، الرسل ، اليوم الآخر ، وغيرها) فهل أن الإيمان - أساساً - هدف للإنسان بنفسه ، أو وسيلة ؟ بمعنى أن الإنسان يجب أن يؤمن ، والإسلام يريد مؤمناً لهدف آخر ، أو أن الإيمان هو الهدف ؟

يجب أن لا يغيب عن البال أن المقصود هو الهدف الإنساني . ولسنا نقصد أن الإيمان هدف الله أو وسيلة لتحقيق الأهداف الإلهية ، كلا فإن الأهداف كمالات وأهداف للإنسان نفسه .

فهل الإيمان ، بنفسه ، كمال للإنسان ؟ وهل أن الدعوة إليه بنفسها من جهة كونه كمالاً للإنسان ، وأن الكمال الإنساني يكمن في إيمانه ؟ أو أنه

دعي إلى الإيمان لوجود الآثار المترتبة عليه ، وهي آثار لصالح الإنسان ؟
فالإيمان شيء نافع للإنسان وله آثاره الحسنة . وإذا أردنا أن نستعير
التعبير الفلسفي قلنا :

هل الإيمان خير للإنسان أو نافع له ؟

ذلك أن هناك فرقاً بين الخير والنافع ، فالخير هو ذلك الشيء الذي هو
كمال مطلوب بذاته ، أي يريده الإنسان لذاته لا للحصول على شيء آخر ،
أما النافع فهو شيء حسن لقرتب الآثار الحسنة عليه ، فهو مقدمة للخير
وليس الخير نفسه .

وهذا الموضوع يجب توضيحه تماماً في المعرفة الإسلامية
باعتبارها أيديولوجية ومذهباً حياتياً . فماذا يرى الإسلام ؟ هل يرى
الإيمان بنفسه هدفاً ومطلباً وخيراً له بغض النظر عن أثر من آثاره ،
(ولنفترض أن هذه الآثار التي نعرفها له غير موجودة) ؟ أم يرى أن الخير
هو شيء آخر ، وإن الإنسان دعي للإيمان باعتباره مقدمة الخيرات ؟ إننا
عندما نبحث عن الإيمان ، نبحث عن آثاره دائماً ، فيقال إن الإنسان إذا
آمن ؛ اطمأن قلبه ، ولم تستول عليه النوائب ، وإذا آمن أفراد المجتمع ،
استطاع كل منهم الاعتماد على الآخرين وتفتشت الخيرات بينهم ، وانتفت
الشُرور . إننا نتحدث هكذا عن الإيمان . فما هو الموقف الأصيل ؟

لا يشك أحد في وجود مثل هذه الآثار . ولكن هل هو حسن لوجودها
أو أنه بنفسه كمال وخير وسعادة للإنسان ، وأن الإنسان مدعو للإيمان
لأنه بنفسه خير وليس لآثاره المترتبة عليه ؟

وهنا ينطرح هذا السؤال : ماهو الكمال الإنساني -أصولاً- ؟ لكي نفهم
الجواب عن السؤال الماضي يجب أن نعرف الجواب عن هذا السؤال
ونعرف بأي شيء يتم الكمال ؟

إن تشخيص الكمال الإنساني أصعب وأدق من تشخيص أي كمال لأي موجود آخر . وتعتبر هذه المسألة من المجهولات التي ترتسم أمامه حول وجوده هو ، فبأي شيء يكون الكمال الإنساني ؟

إننا نستطيع أن نشخص كمال أكثر الموجودات في هذا العالم . فإذا سئلنا عن التفاحة الكاملة وكيف هي ؟ أجبنا بوضوح عن صفاتها الكمالية التي تقابلها صفات النقص . وكلها أمور واضحة لدينا . وهكذا يمكننا بسرعة أن نتحدث عن التفاحة الكاملة من خلال صفاتها المطلوبة .. طعمها .. لطافتها .. لونها وبالتالي شكلها . فإذا توفرت تفاحة ذات طعم لذيق حلو ورائحة طيبة ، لطيفة نظيفة ، سهلة غير مؤذية للأسنان؛ اعتبرناها كشيء مفيد ، تفاحة كاملة .

وهكذا يمكننا أن نوضح البيت الكامل ، والحصان الكامل ، إلّا أن أشكل الأمور هو أن نعرف الإنسان العامل . ولذلك فنحن بحاجة إلى الحديث عن النظريات المطروحة في الإنسان الكامل لنعرف أيها الصحيح وأيها الخطأ . أو إذا لم نستطع أن نصل إلى الحقيقة باجتهادنا وسعينا الفكري فلنرجع - على الأقل - إلى القرآن الكريم لنعرف أي النظريات هي الأصح وإلى أي مدى يؤيدها القرآن الكريم ؟

وأول ما يطرح في هذا المجال هو أن يقال :

إن الإنسان الكامل هو الإنسان القادر . فالإنسان الكامل هو الإنسان المستفيد من الطبيعة والبيئة التي يعيشها ، والذي يمتلك هذه الأمور ، والذي يتنعم بها .

ومن المسلم به أن هذا التعريف خاطئ . إن كمال الإنسان لا يحصل بتوفره على الأشياء فيقال إن الإنسان الأكمل هو الإنسان الأكثر استفادة من الأشياء ، ذلك :

أولاً: لأننا لا نعرّف أي شيء آخر بمثل هذا الأسلوب . إننا لا نقول إن الحصان الكامل هو الحصان المتوفر ، وإنما نركز عليه في صفاته ووضعه الخاص ، فليس الحصان الكامل هو الحصان الذي تناول علفه أكثر من غيره بالأمس مثلاً ، وليست التفاحة الكاملة هي التفاحة التي توفرت لديها العناصر الطبيعية (الهواء ، الماء ، النور) .

ثانياً: أي وجدان يقبل هذا التعريف وهو أن أكمل الناس هو أكثرهم توفراً وقدرة على الاستفادة ؟ إن لازم ذلك أن الأقل توفراً على الاستفادة من الطبيعة هو الأقل كمالاً . فالمتوفر المالك هو الكامل وغيره هو الناقص!

وعليه فلو كان أماننا إنسانان أحدهما مثل معاوية كل همه الاستفادة من الحد الأكثر من نعم الدنيا في كل الظروف - حتى أنهم ينقلون عنه قوله : «إننا أخطأنا في أكل نعم الدنيا» فقد قضى ثمانين عاماً من عمره . ٤٠ عاماً حاكماً على الشام (عشرون منها كوالٍ قوي ، والعشرون الأخرى كخليفة قوي) والثاني كالإمام أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان يعيش في حياته الزهد بتمامه ، وكانت له فلسفته في زهده - أيا كانت هذه الفلسفة - رغبته في أن يعيش حراً ، أو رغبته في الإيثار ، أو مواساته للآخرين ، أو أن لا يقع أسيراً للذائد الدنيوية ويفرغ قلبه للمعنويات . على أي حال فقد كان رجلاً كل حظه من الدنيا - خلال سنين - سبعة عشر مثلاً من خبر الشعير . فهل نقول عن الأول إنه كامل وعن الثاني إنه ناقص ؟ إذا قلنا هكذا ، جعلنا الإنسان أخس من الحيوان واقعاً . ذلك أننا لا نقيس أي حيوان بمقياس استفادته من الطبيعة .

والواقع أننا إذا تأملنا في تصرفات الكثيرين وجدناهم من هذا النمط ، فهم لا يفكرون إلا في التمتع والالتذاز ، وكل شيء حقق لهم هذه الفائدة

كان حسناً وإلا فسيء، كأنَّ الغاية والكمال الأصلي للإنسان هو هذا لا غير .
إنه أمر خاطئ بلا ريب ، بل ويمكن أن يطرح هنا موضوع دقيق آخر
وهو أنه :

«لا يوجد هناك إنسان يعتقد - بصراحة - إن كمال الإنسان يكمن في
مدى استفادته من الطبيعة مما يؤدي إلى نفي أي عنصر معنوي من
حياته ، ونفي أي عمل إنساني ، وإلا فإن ذلك يعني أن الإيتار أمرٌ خاطئ
لأنه نقص وتنازل» .

وهنا قد يغير الموضوع فيقال : كما يخطر على بعض الأذهان - : إن
التنعم بنعم الدنيا ليس كمالاً ، ولكن ماهو الموقف من التنعم بالآخرة ؟
فنقول : إن كمال الإنسان يكمن في تنعمه ولكن في الآخرة ، ولا نقول
بالتنعم في الدنيا ؛ لأن ذلك سوف يحرمانا من الآخرة - حسب هذا التصور
- ولكن ما المانع من التنعم الأخرى ؟ فكمال الإنسان يكمن في ذلك الأكل
والحصول على النعم الإلهية ، وبما أنها لم تكن متوفرة في هذه الدنيا فإن
النظر سوف يركز على نعم الآخرة ، ولذا تجد الزهاد - العوام - يعبدون
لكي يحصلوا على نعم أخروية أكثر ، أليست العبادة للحصول على الجنة
هي للحصول على خير أكثر ؟ إن العبادة مقدمة التنعم الأكبر ، وبالطبع
فإن ذا المقدمة أفضل من مقدمته وأشرف .

ذلك أن العبادة وسيلة لهذا التنعم .

يقول ابن سينا في النمط الثاني من إشارته :

«العبادة عند غير العارف معاملة ما كان يعمل في الدنيا ليأخذ أجراً
في الآخرة - مثلاً - فهو يعمل كعامل له أجره» . إن العامل المأجور هدفه
المال الذي يحصل عليه ، وإلا فليس مستعداً للعمل ، وهذا الشخص أيضاً
يعبد للحصول على نعيم الآخرة .

وهكذا يعود الكمال مرة أخرى إلى القدرة على التنعم؛ وإن لم يكن ذلك في الدنيا بل في الآخرة .

وإن من المسلم به في التعاليم الدينية أن العبادة التي تستهدف الحصول على نعيم الآخرة عبادة ناقصة جداً ، بمعنى أن العبادة هي بالمقدار الذي يتوقعه الإنسان من الله بإزائها ، أنه يتوجه إلى الله لكي يحصل على الآخرة والجنة ... أنه يعبد ليطيع أمر الله فيعوضه الله في الآخرة ... فالعبادة وسيلة جعلها الله له ليصل إلى النعيم .

إننا نلمح في كلمات الأئمة وفي نهج البلاغة ، نصوصاً تتحدث عن هذه الحالة من مثل :

«إن قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجار ، وإن قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد ، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار»^(١) .

والعبارات مختلفة في هذا المعنى .

فهناك قوم يعبدون طمعاً ، وآخرون خوفاً ، وآخرون يعبدونه شكراً وحباً له ، فحتى لو لم يكن هناك ثواب أو عقاب فهم يعبدون . وقد نقلت عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عبارة أصرح من سابقتها وهي قوله : «إلهي ما عبيدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك» .

وعلى هذا ، فالنظرية القائلة بأن كمال الإنسان في قدرته على التنعم إن كانت تنظر إلى الدنيا فقد نفت كل الفضائل ، وإن نظرت إلى الآخرة فهي غير صحيحة أيضاً ، وإلا لكانت أكمل العبادات تستهدف التنعم ، في حين لاحظنا أنها من العبادات الناقصة بل أنقصها ، فلا يمكننا أن نقول إن كمال الإنسان في قدرته على التنعم .

وهناك نظريات أخرى غيرها ، بعضها روحاني والآخر مادي .

والنظريات المادية ترجع بالتالي إلى نظرية التنعم . أما النظريات الروحانية فهي على النحو التالي :

١ - أول نظرية وأهمها أهلية للبحث هي نظرية العارفين ، والواقع أن العرفاء هم الذين طرحوا للبحث مسألة «الإنسان الكامل» ويمكن القول بأنهم استمدوا نظريتهم من الأديان حتماً ... إنهم استلهموا نظريتهم من موضوع (آدم) وموضوع (النبي) و (الولي) والإنسان الكامل في (آخر الزمان) المهدي الموعود والآتي ذكره في جميع الأديان .

ولـ «ماسينيون» المستشرق المعروف كتاب تحت عنوان «الإنسان الكامل في الإسلام» ترجمة عبدالرحمن بدن إلى العربية يقول فيه : «إن فرضية الإنسان الكامل ليس ميراثاً هيلينياً أي ليس ميراثاً يونانياً ، ذلك أن الفلسفة اليونانية لم تتحدث عن الإنسان الكامل ولم تبحث فيه» .

وفي العالم الإسلامي طرح العرفاء هذا البحث وخصوصاً محي الدين ابن العربي حيث بحث فيه كثيراً ، وكتب فيه الكثيرون منهم عبدالكريم الدبلي حيث ألف كتاباً باسم (الإنسان الكامل) ، وكذلك ألف عبدالعزيز النسفي كتاباً بنفس الاسم ، وكذلك ألف السيد محمد البرقي أخو السيد المرحوم حسن البرقي - وكان رجلاً عرّافاً شاعراً ..

إن للعرفاء مسلكهم ونظريتهم الواضحة في الكمال الإنساني والإنسان الكامل ، وهي وإن لم يقبلها غيرهم ، لكنها عندهم مسلمة تماماً ، وهم على أساس منها يحكمون حكماً قاطعاً على الأفكار . وعلى أي حال فكلامهم عجيب .

إن العرفاء يعتقدون أن الحقيقة واحدة لا غير وهي الله . إنهم لا يرون غير الله حقيقة بل يرونه دائماً ظلاً للحقيقة وسيماء لها ، ويعتبرون حقيقة كل شيء - رغم كونها ظاهرية - إنما هي باعتبار

انتساب ذلك الشيء لله . فكل شيء في نظر العارف هو شأن وصفة واسم لله ، أما إذا رأينا الأشياء في قبال الله ، فقد اعتبرناه شيئاً وكانت الأشياء شيئاً آخر . وهذا يعني أننا جعلنا له ثانياً .

وهم يرون أننا في الكفر والشرك والجهل والحجاب المحض سادرون فإذا متنا في «ظلام» أي لم ندرك الحقيقة . وإنما يكمل الإنسان إذا أدرك الحقيقة ووصل إليها . ولديهم اصطلاح «الوصول للحق» ولا يعني -والعياذ لله- أن يحل الله في الإنسان إذ إن ذلك هو المحال في حق الله ، أو أن يتحد مع خلقه ؛ فإنهم لا يرون الله ثانياً مطلقاً .

يقول الشبستري - ما ترجمته :-

إن حلولاً واتحاداً محال تعدد الواحد عين الضلال
فإذا قال بـ (الحلول) فقد جعل الله ثانياً وهو عين الشرك وهو ما يفر منه . وإذا قال بـ (الاتحاد) فهناك شيئان اتحدا مع أنه لا يرى للشيء شيئية بحيث يكون ثانياً لله . إن الخلق في نظر العارف تجل لا غير ، والخلق لا يعني إلا الظهور .

وعلى هذا فالوصول يعني الفناء فيه ، والفناء يعني أن يصل الإنسان إلى حيث يدرك الحقيقة كما هي ، ويدرك نفسه بعد ادراك الحقيقة . فهو قبل كل شيء يدركه - تعالى - فيقول ما مضمونه «ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله وبعده ومعه» وحينئذ فلا يبقى هناك فرق بين الأنا والنحن . هذا هو الفناء .

فأصل كلام العرفاء ، هو أن الحقيقة شيء واحد لا غير ، وغير الحقيقة أياً كان ليس ثانياً له ، وإنما هناك تجليات وأسماء . والوصول للحقيقة يعني أن يصل الإنسان إلى حيث يدرك هذه الحالة تماماً ، ويرى الله في

كل شيء ومع كل شيء ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾^(١) مع كل شيء بل قبل كل شيء ، ولا يرى قوام كل شيء إلا به ، ويرى كل شيء - في الواقع - فيه ، ومن ذلك نفسه هو وحينئذ فلا تبقى (أنا) في البين . وهذا هو معنى (الفناء) الذي يقولون عنه بأن الإنسان إذا وصل إلى هذه الحالة وحصل هذا الفناء والاتصال فإن الفرد حينئذ يصبح - كما يعبرون - يد الله الباسطة . والعرفاء يعتقدون بالوصول .

وهذا هو «السلوك» و «السير إلى الله» و «السلوك إلى الله» . ونحن إذ نعبر بـ «التقرب» نقصد به القرب منه تعالى . ولأنهم يعتقدون بالسير والسلوك والحركة إلى الله ، وطى المنازل إليه ، ويرون لمثل هذه المنازل نظاماً خاصاً كالمنازل المكانية ، بحيث ما لم يُطوَّ المنزل الأول فمن المحال الوصول إلى المنزل الثاني فقد عينوا منازل لوصول الإنسان إلى الحقيقة . إن كمال الإنسان - في نظرهم - واضح جداً . فالإنسان الذي لم يصل إلى الحقيقة ناقص محجوب ، وغير ناضج وواصل . وإنسانية الإنسان واستعداده الأصلي ، في هذا لا غير ، وهو أن يعرف الحقيقة ويصل إليها . والذي لم يصل فهو متأخر . أما مركب هذه المسيرة فهو «العشق والحب» و «الإنس» . والطريق طريق القلب لا طريق الفكر والفلسفة .

وكل شيء آخر وكل كمال آخر في نظرهم ينشعب من هذا الكمال . نعم كل شيء كما له إما باعتبار أنه سبيل لذلك الكمال أو ناشئ منه . فعندما نسأل :

هل الزهد كمال ؟ يجيبون نعم ، لأنه شرط الطريق .

وهل التواضع كمال ؟ يقولون ، نعم لأنه من شروط سلوك الطريق .

وهكذا ، فكل المحاسن الأخلاقية والهداية والإرشاد هي أشياء حسنة لأنها آثارٌ لهذا الأمر .

وعندما يصل الإنسان ؛ يصبح مظهراً لاسم الهادي وهو بهذا يرشد الآخرين ويهديهم .

وهكذا نجد من الواضح لدى العرفاء أن الكمال يساوي الوصول إلى الحقيقة . فالحقيقة واحدة لا تتعدد ، وكمال الإنسان يعني الاتصال والوصول لهذه الحقيقة .

٢ - وللحكماء والفلاسفة نظرية أخرى حول الكمال الإنساني ، فالإنسان الكامل في تصورهم يعرف بتعريف آخر يختلف قليلاً عما يقوله العرفاء .

وليس في تعبيرات الفلاسفة تعبيرات وحدة الحقيقة ، والوصول ، والسير ، والسلوك والوصول والفناء بالشكل الذي نجده لدى العرفاء ، وإنما نجدهم يرون الكمال الإنساني كامناً في شيئين :

أحدهما «إدراك الحقائق» وبعبارة أخرى «الحكمة» . أما كلمة «العلم» فلا تفي بالمقصود . فالعرفاء يطرحون «الحقيقة» والفلاسفة يطرحون «الحكمة» ويقصدون بالحكمة إدراك الحقائق كما هي ، وإدراك عالم الوجود كما هو عليه . وبالطبع يقصدون إدراك النظام الكلي . أما إدراك الجزئيات فهو من واجبات «العلم» كمثّل إدراك خواص التفاح ، فهو علم لا حكمة . إذ هناك فرق بين الإدراك الكلي - للبيت مثلاً - والإدراك المتعلق بجزئياته ، وهكذا الاطلاع الكلي على مدينة طهران مثلاً يختلف عن الإدراك الجزئي لسائق التاكسي لبعض أزقتها في حين يجهل الكثير من الحقائق عنها : من أين تشرب ؟ من أين تأتيها الكهرباء ؟ ما هو نظام البلدية ؟ وأساليب البوليس ؟

إن الحكيم الفيلسوف يرى الكمال الإنساني في معرفة العالم الكلية معرفة صحيحة بحيث يصبح هو عالماً علمياً . فالعالم العيني يتجسد في ذهنه عالماً علمياً ، ولذا يقولون في تعريف (الحكمة) أنها :

«صيرورة الحكمة من حيث غايتها . ففي العالم العيني - مثلاً - يوجد واجب الوجود ، والنظام الكلي لعالم المجردات والمتوسطات والماديات ، وكل ذلك يعلم به الإنسان .

فالإنسان الكامل في تصورهم هو الإنسان الذي تلقى الحكمة . ويمكننا أن نبحث في مصداق الحكمة ، أما في أصلها فلا مجال للبحث . يقول القرآن الكريم : ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾^(١) .

فكمال الإنسان - بنظرهم - يكمن في الحكمة : هذا هو الأمر الأول .
والأمر الثاني هو العدالة . ويقصدون منها العدالة الأخلاقية .
أما العدالة الاجتماعية فتتبع العدالة الأخلاقية ويقصدون بها التعادل والتوازن الذي يجب أن يتم بين القوى والغرائز الإنسانية تحت سيطرة القوى العاقلة . ويعنون بها سيطرة العقل على جميع القوى الشهوانية والغضبية والوهمية - أو كما يطلق ، اليوم - (جميع الغرائز والميول) بحيث يقوم العقل بإعطاء كل قوة نصيبها دون إفراطٍ أو تفريط ، ودون أن يضيع حق أي قوة أو تُعطى أكثر مما تستحق .
ولأن الحكماء يعتقدون أن للإنسان جنبتين ، جنبه اليد الفوقية ، وجنبه اليد البدنية .

فمن جانب اليد الفوقية يكمن كمال الإنسان في الحكمة .
ومن جانب اليد البدنية يكمن كمال الإنسان في العدالة .

فالأول يعتبر كمال العقل النظري، والثاني كمال العقل العملي .
فالإنسان الكامل - من وجهة نظر الحكماء - إنسان ذو عقل حكيم في
المسائل النظرية ، ومعتدل من حيث الأخلاق في المسائل العملية، ذلك
أنهم يعتقدون أن كل الأخلاق الحسنة معتدلة ؛ بمعنى أنها الأخلاق التي
تستوفي فيها كل قوةٍ وغريزة ، حقها بعدالة .

وهم يرون أن الحكمة في نفسها كمال لا مقدمة للكمال .
وكما قلنا سابقاً بالنسبة للإيمان وطرحنا هذا السؤال هل أنه هدف أو
وسيلة ؟ نطرح الآن هذا السؤال : هل الحكمة هدف للإنسان أم وسيلة ؟
وكذلك بالنسبة للعلم - وهو مسألة قائمة اليوم - يقال منذ عدة قرون : هل
العلم هدف للإنسان أو وسيلة ؟ أو هو هدف ووسيلة في آن واحد ؟
وهل العلم كمال للإنسان ؟ ومن الطبيعي أنه إذا كان كمالاً تترتب عليه
منافع ، بل أن العلم إنما يتم لتحقيق المصالح ، فإذا لم تكن هناك منافع فإن
العلم غير نافع ، فكل علم كانت منافعه أكثر كان أفضل والعكس بالعكس .
٣ - هناك نظرية أخرى وهي أن كمال الإنسان يكمن في «العواطف» أي
في «المحبة» أو أن المحبة على الأقل هي أحد أركان الكمال الإنساني .

وهكذا نجد أن رأي الحكماء يجعل الكمال في «الحكمة والعدالة»
والعرفاء في «الحقيقة» وهذا الرأي - وهو رأي أخلاقي - يجعله في
«المحبة» . فالإنسان الكامل هو من كانت محبته للآخرين أكثر وكلما
ازدادت محبة الإنسان لغيره (وخصوصاً لأفراد الإنسان أو على الأقل
الأحياء أو على الأقل أيضاً كل العالم فهو يعشق غيره) كان الأكمل .

وكلما نضبت عيون المحبة تجاه الغير - حتى لم يعد يحب إلا نفسه -
كان أنانياً ناقصاً ، وهو إنسان تدينه الأخلاق ، لأن محور الأخلاق السيئة
هو الأنانية . وبالمقدار الذي يتخلص فيه الإنسان من أنانيته - فيحب غيره

ويعشقه - تكون أخلاقه ممدوحة . وهذه هي النظرة التي يؤكد عليها الهندوك وهو تأكيد في محله .

فهذا غاندي في كتابه (هذا هو مذهبي) يؤكد على هذا المعنى كأروع ما يكون . وطبيعي أن الهندود يؤكدون على مسألة (الحقيقة) وكذلك (المحبة) وهم ينتقدون المدنية الغربية لأنها رفضت هاتين القضيتين .

٤ - وهناك نظرية أخرى تعتبر كمال الإنسان في جماله وحسنه . وطبيعي أن المقصود ليس الجمال الجسمي - لوحده - وإنما التركيز على الجمال الروحي . وبعبارة أخرى فإنه يكمن في الفن والأعمال الجميلة ، والنشاطات الرائعة الناشئة عن روح لطيفة ، فكل شيء يأتون به ينطوي تحت هذه العناوين . حتى الأخلاق التي نسميها حسنة يقولون عنها إنها كمال لأنها جميلة . والعلم هو من مقولة الجمال ، والحقيقة نفسها لأنها جميلة فهي كمال . وعليه فإن الكمال الإنساني يتلخص بالجمال . وطبيعي أن هذا تعبيرٌ مستقل ولكنه ليس رأياً يغير ما قبله .

٥ - هناك نظرية أخرى هي النظرية الغربية المتداولة ، حيث يملك الكمال الإنساني فيها جانباً مادياً ، في حين أنه كان يمتلك في النظريات الماضية جوانب روحية . فالحقيقة والحكمة والعدالة والمحبة والجمال لم يكن أي منها مادياً . في حين أن هذا الرأي يركز على أن الكمال الإنساني في القدرة ، فكلما كان أكثر قدرة وأكثر سلطة على الطبيعة والبيئة - وحتى الآخرين من أبناء جلدته - فهو أكثر كمالاً .

والتكامل الدارويني يقوم على هذا الأساس ، فالموجود الأكمل في تصور دارون هو الموجود الأقوى ، والموجود الأقدر على حفظ وجوده ونفسي ضده ومنافسه في ميدان تنازع البقاء ، ولهذا أشكل على دارون بأنك عبر طرح مسألة تنازع البقاء نفيت الأخلاق ؛ لأن هذه النظرية تعني

أن الكمال في ذلك مما يزلزل أساس الأخلاق .

وهذا هو الذي ركزت عليه الدعاية الغربية وحاولت أن تعطيه ، وجهة رائعة ، وتصفه بأنه اكتشاف عظيم ينفي خطأ عمره ألف سنة . وهو أن الآخرين كانوا يسعون خلف العلم دون أن يفكروا في هدف طلب العلم . إلا أننا نقول إن العلم هو ما ينفع الإنسان ويزيد من قدرته ويرفع من مدى سيطرته على الطبيعة . ومن هنا فقد اتبعوا العلم التجريبي ، العلم الذي يقدم أفضل وسيلة للإنسان . وعلى هذا تقدمت المدنية والصناعة . وطبيعي أن التقدم المذكور صحيح ولكنه أضر بالبشرية أكثر مما نفعها .

فلندع مسألة الحقيقة ، وكذلك مسألة الحكمة والعلم ، بعنوان أنها كمال . ولكن نفس القدسية فقدت قدسيتها ولم تعد كمالاً ، وهكذا المحبة التي اعتبرت كمالاً فقدت شرفها . والإيمان الذي اعتبر نفسه كمالاً للإنسان فقد قدسيته ، وعاد كل شيء مقدمة للقدرة ، وقد غير هذا مسير البشرية . ومن هنا فمهما ادعت البشرية ؛ فإنها لم تستطع الاعتقاد بأية معنوية ، وحتى لو قالت ؛ فإن عملها يكذب قولها .

وقد قلنا - في موضع آخر - إنهم يُشكّلون على الفيلسوف (نيتشه) أنه قال كلاماً غريباً ، ولكني أعتقد أنه لا مجال للعجب ؛ فقد كان نيتشه أصرح من غيره لا غير . فإن لازم تغيير مسير العلم الذي تم على يد بيكن وغيره هو أن نقول في الأخلاق ما قاله نيتشه ، وأن النتيجة المنطقية للأسلوب الذي أتبعه بيكن وغيره - فجعلوا العلم في خدمة القدرة ، وحصلوا الكمال الإنساني صرفاً في القدرة - هي هذه العبارات التي تفوه بها نيتشه في الأخلاق والمسائل الاجتماعية .

المثل السامي في التصور الإسلامي :

لقد كان بحثنا حول الهدف الأصلي للإنسان في تصور الإسلام، وها نحن نتحدث عن تصور الإسلام للكمال الإنساني .

فما هي صورة الإنسان الكامل لدى الإسلام ؟

من الطبيعي أن على كل مذهب إذا أراد أن يصوغ أتباعه ويريهـم السبيل ، ويحرك فيهم الإرادة ؛ فلا بد أن يعرفهم هدفه ويدعوهم للسير نحو هذا الهدف .

ومن هنا فإن هدف الإسلام من الإنسان الكامل بالطبع ، يعني الهدف الواقعي للمسلم والذي يجب أن يصوغ كل أعماله وفقه . وعلى هذا فعندما نبحث عن الإنسان الكامل في التصور الإسلامي ، فإننا في الواقع نبحث عن الهدف والمثل السامي الأصيل في الأيديولوجية الإسلامية .

ولكي يتوضح الأمر جيداً يجب أن نستعرض النظريات التي ذكرناها عن الإنسان الكامل ، وكمال الإنسان لنعرف موقف الإسلام منها ، وهل له موقف آخر مستقل ؟

والخلاصة : إننا قلنا إن العرفاء كانوا أول من طرح هذا البحث ، وهذا العنوان هو من تعبيراتهم ، وأنهم أكدوا - في نظرتهم العرفانية إلى الكون - على أن الحقيقة واحدة لا غير ، وتلك الحقيقة مساوية لذات الله الحق ، أما المخلوقات فهي عبارة عن نوع من تجليات الذات الإلهية ، فليست أمراً مابيناً لذات الحق ، ولما كان الإنسان مخلوقاً جامعاً - أو تعبيرهم أكمل مظهر للأسماء والصفات الإلهية - فإن كمال الإنسان يكمن في رجوعه إلى أصله .

فهم - إذن - يرون الحقيقة واحدة ، وهي ذات الحق ، ويرون غير ذات الحق بمنزلة «ظل» لذات الحق و «سيما» له ، بمعنى أن غير ذات الحق

بالنسبة لأنفسها أمور حقيقية ، ولكن بالنسبة لذات الحق هي (النسبة بين الشيء واللا شيء) بل هي نسبة الشيء والفيء .

وعندما يأتي الحديث عن الحق فهو تعالى «الحق المطلق» وليس في قبالة أي حق . إنهم يعتقدون أن الإنسان ميسور له «الوصول إلى الحق» أو كما يعبرون «الفناء في الحق» ، والإنسان عند التشبيه يشبه موجوداً انفصل عن أصله فهو - كما يعبرون - يعيش الغربة ؛ وكماله وسعادته في عودته إلى وطنه الأصلي ، وهو ذات الحق ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ .

وهم يعتقدون بالسبيل والمركب ، ولكن هذا السبيل يستوعب تمام وجود الإنسان (أي قلبه وتطوراته وتحولاته) حيث يقولون إن الإنسان يعبر الكثرات - من الكثرة - ، وترتفع الحجب ليصل إلى الوحدة الكاملة . ومركب هذا الطريق في تصورهم هو العشق والعبادة وتركية النفس وغير ذلك .

أما الحكماء الإلهيون فليس لديهم مثل هذه الأفكار بل إنهم يرون أن جوهر الإنساني يكمن في (القوة العاقلة) له . فالإنسان الواقعي - أصولاً - هو عاقلة الإنسان وما غيرها هي فروع وغصون لها .

وكمال الإنسان عبارة عن كمال القوة العاقلة ، وكمال (القوة العاقلة) - نظراً لأنه ذو جانبين (نظري وعملي) - يتم عبر «الحكمة» ككمال في الجانب النظري ، وتعني الحصول على الأشياء كما هي على حقيقتها ، و«العدالة» في الجانب العملي . ويقصدون من العدالة أن يتحكم العقل في وجود الإنسان لا غير ، فليست هناك أية سلطة لأية قوة أخرى . فيكون الجميع محكوماً للقوة العاقلة .

ولإفلاطون في مجال «المجتمع» فرضية فيها أن المجتمع إنما يتحول إلى مدينة فاضلة إذا كان الفلاسفة هم الحكام والحكام هم الفلاسفة ، وهم

يطبقون نفس هذه الفرضية في الفرد، فيؤكدون أن الفرد إنما يكون سعيداً إذا كان الحاكم في وجوده فيلسوفاً ، والفيلسوف حاكماً . أي إذا كانت القوة العاقلة - وهي قوة التفكير الإنساني - حاكمة في الوجود الإنساني دون أية قوة غيرها .

وليس في كلامهم حديث عن الوصول إلى الحقيقة وغير ذلك ، إنهم يتحدثون عن الفكر لا القلب والروح ، وسبيلهم هو سبيل المفاهيم والتفكير ، ينتقلون من فكرة إلى فكرة وهم يمتطون القوة العاقلة ويطوون الطريق على متن العقل والمنطق والاستدلال .

وكما قلنا فإن مجموعة أخرى جعلت الكمال الإنساني في (المحبة) وترى أن الإنسان الكامل هو الإنسان الذي ينسئ ذاته بالنسبة للآخرين ... يتخلص من نفسه بالنسبة إليهم ... يحبهم كما يحب نفسه فلا حدود بين ذاته والآخرين ، ويكره لهم ما يكره لها ، فكمال الإنسان في المحبة ، وهو يعتمد في هذا على «العواطف الإنسانية السامية» حيث تنمو وتتصاعد هذه العواطف لدى الإنسان الكامل .

وأكد مذهب آخر على «الجمال» ، وجعل كمال الإنسان في مدى جماله وحسنه لا الحسن الجسمي فقط، حيث لا يعتبر له قيمة كبرى وإنما الحسن المعنوي والأخلاقي الرفيع فهو كامل لأنه جميل وفضيل . والواقع أن مذهب (الفضيلة) عند سقراط - في المجال الأخلاقي - ينبع من هنا . فإذا قيل : إن الشيء الفلاني فضيلة فهو الحسن العقلي . إنه يقول : إن الصدق حسن لأنه جميل وليس لديه كلام أسمنى من الحسن ، وأن الحسن في الأمور الأخلاقية مثل الحسن في الأمور الحسية فهناك حسن حسي وآخر عقلي .

والعلم - في تصورهم - كمال من حيث أنه جمال . فالجهل قبيح والعلم

جميل . وكذلك القدرة ، ولذا نجد أن كل شيء في مذهب سقراط - الذي يجعل كل شيء بين حدَيِّ الفضيلة والرذيلة ، ويعتمد على الحسن والقبح العقليين - يعود في النهاية إلى نوع من الجمال العقلي : الشعر ، الفن ، الإبداع وغير ذلك . فلأنه يخلق الجمال فهو يعود إلى الجمال ، إذ أن خالق الجمال لو لم يكن جميلاً لم يخلق الجمال ، وما لم تكن الروح الإنسانية جميلة ؛ لا يمكنها أن تقول الشعر الجميل ، أو ترسم الصورة الجميلة . يقال إن أحد سلاطين الأسرة القاجارية (في إيران) قال مقطوعاً من الشعر ولم يستطع اكمال البيت ، فطلب الشعراء واستعان بهم فقال كل منهم شيئاً وفاز أحدهم في النهاية وذلك المصراع هو :

لم يَزْ مثلُ يوسف في الجمال .

فأكملهُ أحد الشعراء بقوله :

الحسن للخالق فهو الكمال .

وهذا هو الواقع . فخالق الجمال ما لم يكن يملك الحد الأعلى من الجمال - وإن لم يكن من نوع الجمال الجسمي - لا يستطيع ايجاد الجمال . وعلى هذا فمن يقدم لوحة شعرية رائعة ، أو يترك أثراً جميلاً ، فإنه يعبر بذلك عن جمال روحه بشكل أسمن وأروع .

كانت هذه نظريات مختلفة في البين .

والآن لنعرف رأي الإسلام (ويجب أن نتنبه إلى أن مثل هذا الموضوع لم يطرح من قبل فهو فعلاً في مراحله الأولى) .

فهل الإسلام في الحقيقة دعا إلى هذه المعاني الآتفة أم لا ؟ إننا لا نستطيع الإذعان لكلام العرفاء تماماً ، إلا أننا نعلم أن الله الذي يقول به الإسلام ليس مجرد موجود من الموجودات نسبته إليها نسبة الأب إلى الأبناء ، موجد لها وخالق إذ يأتي السؤال وماذا بعد الخلق ؟ الأب يوجد

ولده ويقوم إلى جنبه ، أو أن نقول هو رازق للموجودات بمعنى ما نعرفه من أن يكون رزق مجموعة بيد أحدهم ، أو هو مثل محرك أرسطو الذي هو المحرك الأول لحركات العالم ، كلا فليس الله كذلك .

إن منطق الإسلام حول الله يعلو هذه التصورات . إنه شيء لا تملك الأشياء في قبالة شئيه ، فإذا كان الله حقيقة فما عداه (سراب) و(ظل) ... ﴿الله نور السماوات والأرض﴾^(١) فهو كما هو وكل شيء غيره في ظله . نور السماوات والأرض كلها هو . وهذه هي تعبيرات القرآن في حقه تؤكد أنه «الحق المطلوب» إذ يقول :

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾^(٢) وليس «أنه حق» فهناك بينهما فرق شاسع .

والواقع أن المؤمن عندما يؤمن بالله فلا يعود غيره في نظره شيئاً يذكر ، فهو لم يصل إلى شيء في مقابل الأشياء الأخرى وإنما وصل إلى شيء ، كل الأشياء في مقابله لا شيء .

وهذا الشاعر الإيراني سعدي يوضح هذا الأمر إلى حد جيد في كتابه (بوستان) حيث يذكر الفرق بين الفيلسوف والعارف حول الله على النحو التالي :

«إن سبيل العقل ليس إلا اللف والدوران» .

«أما العارف فلا يرى أمامه غير الله شيئاً» .

ولكي يوضح أنه ليس هناك شيء عدا الله ، وهل أن الوجود هو الله أو أن هذه الأشياء لا تمتلك ذلك الحظ وليس هناك إله . يقول : «يمكننا أن نقول لمن يعرف الحقيقة» .

(١) النور : ٣٥ .

(٢) فصلت : ٥٣ .

«حتى ولو اعترض علينا أهل القياس».

«بأنه - لو صح ما تقولون - فما معنى السماوات والأرض؟».

«وما معنى وجود بني آدم وغيره؟».

ثم يجيب بأنه لا منافاة في البين فيقول:

«لقد سألت سؤالاً جيداً أيها الإنسان الواعي».

«فلأجيبك جواباً يقبله أهل الدراية والعلم».

«بأن الشمس والبحر والجبل والفلك».

«وبني آدم والغيلان والجن والملك».

«كلها مهما كانت فهي أقل من أن».

«نطلق عليها اسم الوجود في قبال وجوده».

«فإذا كان الله موجوداً فهذه لا شيء».

﴿قل الله ثم ذرهم﴾^(١).

فإذا قلت (الله) وتأتي (ذرهم) عقيبها، فمن المحال أن يعرف الله أحد،

ثم يميل إلى قطب آخر. بل لا يستطيع أن يفرض في قباله قطباً آخر.

ومن هنا فإن الإيمان الذي يطرحه الإسلام بالله أسمى من التشبيه

بالصانع، بل هو شيء لا يمكن أن يفرض غيره حقيقة إلى جنبه إذا كان

هو حقيقة... إنه عظيم عظيم.

أما ما يقوله الفلاسفة. فهل أن الإسلام يطرح الحكمة بمعنى معرفة

حقائق الأشياء؟ (وسوف لن نتنازع في المصداق فعلاً) وهل أننا نعتبر ما

يسميه الفيلسوف بالحكمة أم لا؟.

إن الإسلام يطرح مفهوم الحكمة، وهل هناك ما هو أفضل من التعبير

القرآني ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(١). وقد أطلق على الحكمة هنا الخير الكثير للإنسانية فهي شيء يساوي الكمال ... هي خير لا مجرد أمرٍ نافع . بمعنى أنه يجب اختيارها لا أنها أمرٌ يختار للوصول إلى شيء آخر .

وهكذا العدالة . ونقصد العدالة الأخلاقية (وطبيعي أن العدالة الاجتماعية لا ترتبط بالكمال الفردي، وإنما هي كمال للمجتمع الإنساني ونحن نتحدث عن الكمال الفردي) .

وللإسلام رأيه في العدالة الأخلاقية ، إذ أن نظرتة إلى القوى والغرائز نظرة معتدلة ، فلا إفراط فيها ولا تفريط، وإنما تعطى كل قوة حظها . وطبيعي أنه لا يقبل حكومة العقل لوحدها - وهو الواقع - فالعقل لوحدة غير قادر على أن يتحكم في القوى والغرائز ، فيحب أن يكون هناك إيمان . إلا أنه - على كل حال - من أنصار العدالة ، وإن كان يرى فكرة «إن الحاكم الوحيد هو القوة الفلسفية الإنسانية لا غير» أمراً واهياً وليس صحيحاً . فإن القوة العاقلة للإنسان إن لم يُصاحبها إيمان ومثل سام غير قادرة على إقرار العدالة في مملكة الوجود .

وخلاصة الحال أن الفيلسوف الحاكم في الوجود الإنساني عاجزٌ عن الإدارة العادلة ، أما الحاكم القادر فهو الفيلسوف المؤمن .

أما بالنسبة للمحبة ، فماذا ننتظر أكثر من أن يقول الإسلام «أحبب لغيرك ما تحب لنفسك واطره له ما تكره لها»^(٢) وأمثال ذلك ممّا ورد في باب التراحم والتعاطف . وهناك في كتاب (الكافي) باب خاص بالتراحم والتعاطف والعواطف المتبادلة . وعندما يسأل رسول الله ﷺ أصحابه .

(١) البقرة : ٢٦٩ .

(٢) نهج البلاغة . الوصية رقم (٣١) صفحة : ٢٩٧ ضبط «صبحي الصالح» .

أي عرى الإيمان أوثق ؟

يبدأ الأصحاب بالإجابة واحداً بعد الآخر : الصلاة ، الصوم ، الحج ،
الجهاد ... الخ .

وحينئذ يقرهم الرسول على ما يقولون ، ولكنه لا يعتبر أيّاً منها أوثق
العرى ، فيتساءل الأصحاب ، ما هو إذن يا رسول الله ؟ فيجيب : الحب في
الله .

وهكذا ليس حب الله فقط وإنما محبة الآخرين في الله ، وهو في الواقع
ناشئ من حب الله ، إنه الحب في الله والبغض في الله . أي النظر إلى عدو
الله عدواً للذات وعدواً للحقيقة وهو لازم حب الحقيقة .

فالإسلام إذن يقول بكل ذلك ، ولكن يجب أن نعرف أيها الأصل وأيها
الفرع ؟ وهل أنها كلها أصل أم لا ؟ .

وطبيعي أنه يوجد في الإسلام شيء آخر وهو نفس مسألة «العبادة»
إذ يقول القرآن الكريم : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ^(١) حيث ذكرت
كفاية للإنسان .

فحتى لو فرضنا أنه لا توجد مجموعة تؤيد المذهب القائل بأن
الإنسان خلق للعبادة ، وأن الهدف والكمال الإنساني يكمنان فيها ، ولكنها
على أي حال هدف ذكره القرآن فيجب التأمل فيه .

هذا وقد ذكرنا قبل كل شيء نظرية (التنعم المادي) وقلنا إنها ترجع
إلى نفي الكمال الإنساني ووجود الإنسان الكامل حيث جعلوا هدف
الإنسان ومقصوده هو الحياة ، والمقصود منها التنعم ، وهدف الإنسان -
أصولاً هو أن يتنعم أكثر ، وكل شيء بالقياس إلى تنعم الإنسان حسن - .
فالعلم حسن للإنسان من زاوية أنه وسيلة لوصوله إلى القدرة التي هي

(١) الذاريات : ٥٦ .

منشأً التنعم .

إن التكامل الإنساني يعني التكامل في التنعم ، والتكامل في تواجد الظروف الأفضل للتنعم .

وإن المسيرة الإنسانية تقريباً منذ عهد بيكُن تتجه بهذا الاتجاه وخصوصاً اليوم ، إذ يقال هذا مجتمع متقدم ومتكامل، فماذا ينطرح في الأذهان ؟ هل المجتمع الواصل للحقيقة ؟ أم المجتمع المؤمن ؟ أم الواصل إلى الحكمة والعدالة ؟ أم البالغ إلى مرتبة المحبة ؟

كلا . وإنما يراد المجتمع المتنعم أكثر ... والذي تتوفر لديه النعم ، والواصل إلى المستوى الصناعي والعلم الذي يطور الصناعة ... هذه الصناعة التي تنظم حياة الإنسان وهي بالتالي تجعله متنعماً أكثر .

وهذا التنعم لا يروونه أرقى مستوى من التنعم الحيواني والنباتي ، وإنما يروونه بنفس المستوى الذي يحقق نمو البدن وسلامته ، وهو الأمر المشترك بين الإنسان والنبات ، فتكون التغذية جيدة ، وهي أمر مشترك بيننا وبين النبات ، ويكون تكاثره جيداً وهو مشترك بيننا وبين النبات ، والمتطلبات الشهوانية الإنسانية جيدة وهي مشتركة بين الإنسان والحيوان ، وليس هناك - فوق هذا - تنعم وتمتع .

فالكمال الإنساني ليس شيئاً وراء الكمال النباتي والحيواني .

أما العلم للإنسان فحكمه حكم القرون للحيوان . إنه وسيلة التنازع مع الطبيعة للبقاء ، أو تنازع الناس فيما بينهم .

والآن لنطرح مسألة العبادة .

لِمَ العبادة ؟ يوجد هنا أمران :

فتارة نقول كما يقول الناس العاديون : لماذا يعبد الناس الله ؟ فيجيب لكي يثيبهم الله في العالم الآخر فيتنعموا تماماً هناك .

وهذا يرجع إلى التنعم وإن كان هناك في العالم الآخر لا في هذا العالم ، أما الحد والمرتبة فواحدة . منتهى الأمر أن التنعم هنا محدود ، إننا نعبد لكي نتمتع وتنعم في العالم الآخر ، ونقصد بالتمتع والتنعم مثل هذا النوع من التنعم الذي نراه في هذه الدنيا ، ولكنه هناك أكمل وأكثر : الحور والقصور ، ... الخ .

إذا كنا نطرح الأمر هكذا فلم نخط بالإنسان كثيراً عن المستوى الحيواني ، وطبعي إننا جعلنا الإنسان موجوداً يقبل البقاء في العالم الآخر ... إنه حيوان يستطيع أن يديم حياته في العالم الآخر أيضاً . ولم نقل بكمال آخر للإنسان .

إنها عبادة الأجراء أو عبادة العبيد - كما يعبر أمير المؤمنين عليه السلام - وليست عبادة الأحرار . إن العبادة في منطق الأحرار ليست وسيلة مطلقاً إلى هذا التنعم ، كما أنها ليست وسيلة للخلاص من الآلام المادية الجسمية . يقول أمير المؤمنين عليه السلام كما في (نهج البلاغة) .

«إن قوماً عبدوا الله (طلباً) للجنة فتلك عبادة الأجراء ، وإن قوماً عبدوا الله (خوفاً) فتلك عبادة العبيد ، وقوماً عبدوا الله (شكراً له) ، وقوماً عبدوا الله حباً له - كما في تعبير لحديث آخر - فتلك عبادة الأحرار .

إن الأمر يختلف كثيراً ، إذ أننا إذا طرحنا هذا المعنى فإن الأمر يرجع إلى أن الكمال الإنساني فوق المشتهيات الحيوانية ، حتى مع كونها في العالم الآخر ، أنه بمستوى العبادة (الشاكرة) (المحبة) (العاشقة) وهناك يكون للعبادة مفهوم يساوي مفهوم العشق للحقيقة . وحينئذ لا يعود الله وسيلة لحياة الإنسان حتى في الآخرة ، بل يكون الله بنفسه حقيقة وبنفسه مطلوباً حقيقياً .

«ياولي المؤمنين ، يا غاية آمال العارفين ، يا غياث المستغيثين ، يا حبيب قلوب

الصادقين» .

ومن هنا تكون مسألة العبادة تقارب مسألة (الحقيقة) إنها عبادة الحق، ونفس العبادة تكون لها موضوعية «معبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك بل وجدتك أهلاً للعبادة فمعبدتك» وهنا يكون للعبادة أوجهها الرفيع فيختلف الأمر باختلاف الأرض والسماء ، فأين العبادة التي هي وسيلة للمشتبهات الحيوانية للإنسان ولو في العالم الآخر ، من تلك العبادة التي هي بنفسها عبادة لها أصالة للإنسان ؟

فنظرية العبادة إذن تنتهي بالنهاية إلى أن العبادة لها مراتب، ولكن العبادة - لتحقيق المشتبهات الحيوانية في الآخرة - تعتبر كملاً بالنسبة إلى حالة عدم العبادة والإخلال إلى عالم الماديات ، لأن الإنسان جعل الله واسطة لذلك الأمر الباقي وهو كمال عظيم بالنسبة لعبادة الهوى والنفس، ولكن الفرق بين هذه العبادة وتلك العبادة في الأوج المذكور ، هو الفرق بين الأرض والسماء . فعندما ذكر ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ وعندما طرحت مراتب ؛ فإنه يُعلم أن الهدف الأصلي ليس المرتبة النازلة وإنما المرتبة العالية ، ومع ذلك فإن المرتبة النازلة خير من عدمها .

وقد جاء في تفسير ابن عباس (ليعبدون - أي ليعرفون) وبالشكل الذي فسرنا فيه العبادة يكون التعبيران شيئاً واحداً ، لأن المعرفة هنا هي المعرفة الكاملة الشهودية، والعبادة التي تكون في هذه المرحلة لا يمكنها أن تكون إلا في مثل هذا العرفان .

إن المعارف العامة والطفولية لا يمكنها أن تؤدي إلى هذه العبادة . فالعبادة ترجع إلى نظرية الإيمان ، والإيمان يرجع بدوره إلى نظرية الحقيقة . إن الإسلام يدعو إلى الإيمان والعبادة حيث يمتلك الإيمان التحاماً، ادراكياً مع الحقيقة ، وتلتحم العبادة أيضاً التحاماً عملياً مع

الحقيقة ... إنه دعا إلى الحكمة والعدالة ... دعا إلى المحبة ... دعا إلى الجمال
«إن الله جميل ويحب الجمال» ولدينا في كتاب الكافي باب تحت عنوان
«التجمل والزينة وغير ذلك».

إن الإسلام دعا لكل هذا، ولكن ماهو الهدف الأصلي؟ وهل هي جميعاً
في عرض واحد؟ أو أن الهدف الأصلي شيء واحد، أما الأخرى فهي إما
مقدمة أو لازم للهدف. كأن تكون العبادة مقدمة للوصول إلى الهدف،
وغيرها لازماً من لوازم الهدف. بمعنى أنه إذا وصل الإنسان إلى الحقيقة؛
فإن يعشق كل ما هو شأن من شؤون الحقيقة.

يقول الشاعر الفارسي:

«إنني سعيد بهذا العالم لأنه يستمد سعادته منه تعالى».

«وأنا أعشق كل ذرات العالم لأنها كلها منه».

«إننا نعتقد أن الهدف هو «الحقيقة» أي نفس «الله».

ففي منطق الإسلام، الهدف شيء واحد وهو الله. والتوحيد الإسلامي
-أصولاً- لا يقتضي غير هذا. إن التوحيد الإسلامي إذا طرح هدفاً آخر مثل
الجنة أو الخلاص من جهنم فإنها أهداف في الدرجة الثانية لخلاص
الأناس المنحطين من الأهداف الجهنمية، وإلا فنفس الحكمة -بما هي
حكمة، وبغض النظر عن إيصالها إلى الله -ليست هدفاً. نعم إذا أوصلت
الحكمة الإنسان إلى الحقيقة؛ كانت حسنة وتكتسب حسناتها من هذا
الإيصال. وإلا فليست مطلوبة بالذات.

والعدالة كذلك. إن العدالة مطلوبة حينما تقف في وجه النفس الأمارة،
وترفع هذا المانع من سبيل الوصول إلى الحقيقة، وما لم يكن قطر
الوجود الإنساني قطعاً متعادلاً فلا يمكنه أن يسير إلى الله.

أما المحبة فيمكنها أن تكون من حيث الأثر لا من حيث المقدمية، فهي
لازم الوصول إلى الحقيقة.

وعلى أي حال فإننا نرى الإيمان هدفاً في الإسلام لا وسيلة .
وهذه هي خلاصة الكلام .

وهنا قد يطرح سؤال حول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا ﴾ (١)
فهل الإيمان هدف أو وسيلة ؟ ولا شك في أن للإيمان آثاراً كثيرة ، ولكن
هل طرح الإيمان لأجل آثاره ؟ هل على الإنسان أن يؤمن ليتخلص من
القلق ؟ وعليه أن يؤمن لئلا يعتدي على الآخرين ؟ أو ليمتلك الأفراد الثقة
المتبادلة وغير ذلك ، وهل الإيمان مقدمة لهذه الأمور ؟ أو أن كل هذه
الأمور هي آثار مترتبة عليه ؟ أما الإيمان فيقطع النظر عنها هو هدف . لأنه
يعني ارتباط الإنسان بالحق والحقيقة .

إذن ؛ فنحن ننظر للإيمان بالله كهدف ، وبعبارة أخرى أن الله ذاته
هدف ، وأن الإيمان في الإسلام - مع كل آثاره - لم يكن واجباً لهذه الآثار
لتتحقق آثاره لأنها فوائد الإيمان . إن الإيمان واجب لأنه يعني ارتباط
الإنسان بالحق ، ونفس ارتباط الإنسان بالحق في نظر الإسلام كمال .
والعلم كذلك ليس هدفاً . إن العلم بمعنى من المعاني هو نفس الحكمة ،
وهي العلم بحقائق الأشياء .

ليس الجمال هدفاً ، ولا العدالة هدفاً ، ولا المحبة هدفاً ولا الجمال ، بل
الهدف هو الله والحقيقة لا غير ولا غير ، ولكنها حقيقة ملازمة لهذه
الأشياء الأخرى أما من باب المقدمة أو من باب النتيجة .

وهكذا بحثنا في آخر الأهداف والمثل السامية في الأيديولوجية
الإسلامية التي لا ترى إلا الله شيئاً آخر . ومن هنا فإن العبادة العليا هي
وسيلة لارتباط الإنسان بالله وليست وسيلة ارتباط الإنسان بالأشياء
الأخرى .

نظرية الإمامة الأئمة الاثنا عشر

السيد محمد باقر الحكيم

قد يثار سؤال يرتبط بهذا الموضوع ، وهو أنه إذا كان استمرار الإمامة في أهل البيت عليه السلام ضرورياً ، فماذا عن تعيين عدد الأئمة الهداة في الإثني عشر إماماً فقط ، دون أن يكون باب الإمامة مفتوحاً في أهل البيت بصورة عامة ، كما يذهب إلى ذلك بعض فرق الشيعة ، كالإسماعيلية والزيدية ، فما هو تفسير هذه الظاهرة التي يتبناها خصوص الإمامية الإثني عشرية ، حيث أنهم يتبنون ضرورة استمرار النبوة في الإمامة ، كما يتبنون استمرار ضرورة أن تكون هذه الإمامة في خصوص أهل البيت ، ويتبنون في الوقت نفسه أن تكون الإمامة في اثني عشر دون التوسع في أعداد الأئمة ؟

وعندما أبحث في الإمامة ، طبعاً أبحث عن الإمامة المعصومة التي



تكون في هذا العدد الخاص ، فما هو تفسير هذه الظاهرة ؟
وفي هذا الموضوع يوجد جانبان من البحث :

أدلة العدد المحدود :

الجانب الأول : جانب يرتبط بعلم الكلام ، وهو جانب مهم جداً ، يذكر في هذا المجال مجموعة من الأدلة والقرائن التي تؤكد هذه الحقيقة ، وسوف نتناول - إن شاء الله في القسم الثاني من البحث - هذه الأدلة والقرائن ، ولكن أشير إلى بعض عناوينها :

أولاً : هناك نصوص عديدة يجمع عليها المسلمون وردت عن النبي ﷺ ، تؤكد أن الخلفاء بعد رسول الله هم هذا العدد ، أي إثنا عشر^(١) خليفة ، وهذه النصوص يمكن أن يستدل بها على ثبوت هذه الحقيقة .
ثانياً : أن هناك نصوصاً أخرى - أيضاً - وردت عن أهل البيت ﷺ تؤكد هذه الحقيقة^(٢) (وأهل البيت أدركوا بما فيه) ، أي أن علياً عليه السلام لا يشك أحد من المسلمين في صدقه ومعرفته ، وهكذا بالنسبة إلى فاطمة والحسن والحسين عليه السلام ، لا يشك أيضاً أحد من المسلمين في صدقهم وعلمهم ومعرفتهم ، فعندما ترد النصوص عن أئمة أهل البيت ﷺ تجدهم موضع الإحترام والتصديق المطلق من قبل المسلمين ، وهي تؤكد - أيضاً - هذه الحقيقة ، وهذا يمكن - أيضاً - أن يشكل قرينة ودليلاً وبرهاناً على صحتها .

ثالثاً : يؤكد ذلك - أيضاً - شخصية أئمة أهل البيت ﷺ التي تتميز بمواصفات لا نعرف لها نظيراً في التاريخ الإسلامي ، في خصائصها

(١) راجع بحار الأنوار ٣٦ : ٢٢٦ - ٢٧٣ ، باب نصوص النبي ﷺ على الأئمة ﷺ ، وصحيح البخاري ٥ : ٩٠ و ٩٢ ، صحيح الترمذي ٢ : ٣٥ ، وغيرها من الصحاح .
(٢) بحار الأنوار ٣٦ : ٢٧٣ - ٤١٤ .

ومواصفاتها ، والحديث في هذا الموضوع - كما قلت - له مجاله الخاص ، وسوف نشير إلى هذه الخصائص والمواصفات ، بحيث يتبين بصورة واضحة أن هؤلاء الأئمة الاثنى عشر يتصفون بمواصفات وخصائص لا يشبههم فيها أحد من الناس .

رابعاً: إن دراسة الجماعة الصالحة - التي التزمت بهذه العقيدة وآمنت بها - في خصائصها ومواصفاتها وطبيعة حركتها ونموها وتطورها المستمر في خطها البياني يؤكد - أيضاً - هذه الحقيقة ، وهذا بحث يحتاج إلى شرح وتوضيح ، يأتي في محله .
وهذه الأمور الأربعة تؤجل البحث فيها إلى دراسة أخرى .

تفسير العدد المحدود

ولكن يبقى عندنا الجانب الآخر ، وهو ما نريد أن نبحثه في عرض النظرية ، وهو تفسير هذه الظاهرة مع قطع النظر عن هذه الأدلة ، ما هو تفسير أن يكون العدد محدوداً بهذه الصورة ، مع أن الرسالة الإسلامية رسالة خاتمة ، والأمة الإسلامية أمة باقية حتى تقوم الساعة ؟ ولماذا توضع الإمامة محصورة بعدد معين من الناس ، ويكون هذا العدد هو اثني عشر ؟

هذه القضية تحتاج إلى تفسير كبقية الظواهر الكونية والاجتماعية ، بما ينسجم مع نظام الحكمة الإلهية ، ومع قطع النظر عن الأدلة السابقة المشار إليها التي نستدل بها في علم الكلام ، من أجل تصديق هذه الظاهرة ، وبيان نسبتها إلى الإسلام وإلى الرسالة الإسلامية .
في تفسير هذه الظاهرة يمكن أن نشير إلى أمرين رئيسيين :

التفسير الغيبي للظاهرة :

الأمر الأول : هو الأمر الغيبي ، فقد ذكرنا في حديثنا عن النظرية وهنا - أيضاً - نذكر ذلك ، وسوف نبقي نؤكد هذا الموضوع أن الرسالة الإسلامية وكل الرسالات الإلهية هي ظواهر غيبية ، مرتبطة بعالم الغيب ، وحياة الإنسان الذي أرسلت إليه هذه الرسالات - أيضاً - فيها جانب غيبي ، لأن الله تعالى وإن كان قد خلق الإنسان من طين لازب ، ومن ثم ففيه هذا العنصر المادي ، فهو لحم وعظم ودم ، وغير ذلك مما يتمثل فيه الجانب المادي في الإنسان ، ولكن الله تعالى قد خص الإنسان بخصوصية دون غيره من المخلوقات المنظورة ، وهو أنه نفخ فيه من روحه ، وهذه الخصوصية لا نراها في أي موجود آخر يتحدث عنه القرآن الكريم ، وقد تكون موجودة في مخلوقات عالم الغيب التي لا نعرفها ، وهي خارج النظام الكوني المشهود .

كما أن حياة الإنسان ليست مختصة بهذه الحياة المادية وهي الحياة الدنيا ، وإنما الحياة الحقيقية لهذا الإنسان الدائمة الأبدية المستمرة هي الحياة الآخرة وهي حياة غيبية .

ثم أن هذه الحياة الدنيوية فيها جانب غيبي في مستقبل زمانها وتاريخها ، وهو ما تشير إليه بعض الآيات والروايات العديدة عن أهل البيت ، من (الرجعة) التي قد تمثل دورة ومرحلة جديدة للحياة الإنسانية ، تعبر عن الكمال فيها^(١) .

(١) الرجعة فكرة ورد تأكيدها في روايات أهل البيت (عليهم السلام) إلى حد التواتر أو التضافر ، وأشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أُمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ ، غافر : ١١ ، ويوجد فيها تفاصيل لا تبلغ حد القطع واليقين ، ولا مجال لبحثها في هذا العرض ، ولعلنا نوفق لذلك في كتاب آخر لهذه الموسوعة ، نتناول فيه عدداً من القضايا والأفكار .

إذن ، فالرسالة الإلهية رسالة غيبية ، والإنسان نفسه فيه جانب غيبي ، وحياة الإنسان - أيضاً - فيها جانب أعظم وأهم وهو الجانب الغيبي ، فعنصر الغيب لا بد أن ننظر إليه دائماً عندما نريد أن نفسر الظواهر ذات العلاقة بالإنسان وحركته ، ولا يمكن أن نفسر الظواهر ذات العلاقة بحركة الإنسان بالتفسيرات المادية المحضة ، أو المدركة والمشهودة وحدها ، وإنما يمكن أن يكون وراء الكثير من الظواهر القائمة في حياة الإنسان أسباب وعناصر غيبية ، لا يمكن للإنسان أن يعرف كل أبعادها وكل خصوصياتها .

وفي هذه الظاهرة يمكن أن نفترض وجود العنصر الغيبي - أيضاً - لأن الله سبحانه وتعالى يصطفي من عباده من يشاء وله في أوليائه أحكام خاصة ، ذات علاقة بهؤلاء الأنبياء ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في عدة آيات .

كما أن هذا الأمر ليس أمراً غريباً في تاريخ الرسالات الإلهية ، فمثلاً نلاحظ أن الأنبياء أولي العزم كانوا خمسة ، وقد يطرح هذا السؤال : لماذا لم يكونوا ستة أو سبعة أو عشرة ، أي لماذا كان اختصاص النبوة بهذه الدرجة العالية خاصة بهذا العدد من الأنبياء المعيّن ؟ فنحن نعرف من خلال حركة النبوات أن الأنبياء أولي العزم الذين أشار إليهم القرآن الكريم هم خمسة (نوح ، إبراهيم ، موسى ، وعيسى ، ونبينا محمد ﷺ) ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ ^(١) ، ونرى أن هذه ظاهرة في النبوات أشار إليها القرآن الكريم ، قد لا نعرف لها تفسيراً محدداً إلا

التفسير الغيبي في رؤية حركة التاريخ الرسالي .

وهكذا نلاحظ ذلك في الكثير من الظواهر التي نراها في الإسلام من قبيل اختصاص العبادات بهذه العبادات الخاصة ، ولم تكن هناك عبادات أخرى ، واختصاص الصلوات اليومية الواجبة بالصلوات الخمس ، واختصاص هذه الصلوات الخمس بالركعات السبع عشرة ، إلى غير ذلك مما نراه من اختصاصات في الأعداد ، الذي يمكن أن يكون له تأثير في حياة الإنسان الدنيوية والأخروية ، ولكنه تأثير في الغيب غير المنظور والمعروف لنا بصورة كاملة ، كما أن ظاهرة وجود الأعداد المعيّنة الخاصة في الاصطفاء ليست ظاهرة مختصة بهذه القضية، وفي هذه الأمة، حتى يقال أن هذه ظاهرة غريبة ، وإنما توجد ظواهر أخرى مماثلة لها في الأمم السابقة .

ومن هذه الظواهر التي تقرب هذا المعنى ، ظاهرة النقباء الإثني عشر في بني إسرائيل ، والذين يشير إليهم القرآن الكريم في عدة مواضع ، منها قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (١) .

وقضية النقباء الإثني عشر - أيضاً - هذه قد تكون المثال لما يجري في الأمة الإسلامية الخاتمة ، حيث أشرت في دراسة سابقة إلى ما ورد عن رسول الله ﷺ من تطابق الأحداث في الأمة الإسلامية بما يجري في الأمم

السابقة حذو النعل بالنعل ، كما جاء في تعبير بعض النصوص أو القذة بالقذة كما جاء في بعض آخر منها ، وهي نصوص متواترة يرويها جميع المسلمين بهذا المضمون .

وقد تكون ظاهرة الإثني عشر إماماً متطابقة مع تلك الظاهرة التي شهدتها أمة بني إسرائيل التي هي - أيضاً - من الأمم المصطفاة والمنتخبة والتي فضلها الله سبحانه وتعالى في بعض أدوار التاريخ ، وجعل منهم أنبياء وملوكاً ، وخصّهم - أيضاً - بهذه الظاهرة الإثني عشرية - إذا صح التعبير - في خصوصية بني إسرائيل ، وهي نكتة أخرى يمكن أن تؤكد الجانب الغيبي ، أو تضيف إليه بعداً آخر .

وكذلك يؤكد هذه الظاهرة في بعدها الغيبي ، ما ورد في شأن انتخاب رسول الله ﷺ للنقباء الإثني عشر من الأنصار في بيعة العقبة ، من قوله ﷺ - على ما رواه ابن إسحاق وابن سعد : « اخرجوا إليّ اثني عشر منكم ، يكونوا كفلاء على قومهم كما كفلت الحواريون بعيسى بن مريم ولا يجدن أحدكم في نفسه أن يؤخذ غيره فإنما يختار لي جبرئيل »^(١) .

وبذلك يشير هذا الحديث إلى خصوصيتين :

إحدهما : ذات علاقة بالعدد المذكور من تاريخ الأنبياء ، وهو عدد الحواريين الإثني عشر ، الذي يؤكد - أيضاً - هذه الظاهرة ، وقد ورد تأكيد هذا العدد فيهم في روايات أخرى .

ثانيها : أن هذا الاختيار هو اختيار غيبي ، يرتبط بقرار إلهي يبلغه جبرائيل عليه السلام .

إذن ، فهذا الجانب الغيبي يمكن أن يكون تفسيراً لهذه الظاهرة .

(١) كنز العمال : ١٠٢ ، برقم : ٤٦٥ .

التفسير التاريخي للظاهرة

الأمر الثاني: الذي يمكن أن نذكره بهذا الصدد في تفسير هذه الظاهرة ، هو أمر له بُعد مادي ، بُعد في فهم حركة التاريخ ، وتفسير هذه الحركة ، وذلك بأن نفترض بأن المدة (الاعتيادية) لهؤلاء الأئمة الإثني عشر الذين تحدث عنهم رسول الله ﷺ (الأئمة الأطهار من أهل البيت عليهم السلام) هي بين (٣٥٠ - ٤٠٠) سنة ، إذا كانت أعمارهم أعماراً اعتيادية بالنسبة إلى الظروف التي كان يعيشها الناس في الآباء والأبناء .

وإذا كان الأمر كذلك ؛ فيمكن أن نقول : إن هذه المدة تمثل الدورة الزمنية التي يمكن أن يتم فيها إعداد الأمة الخاتمة إعداداً كاملاً في جميع أبعادها ، بحيث تصبح أمة مؤهلة لاستلام الخلافة الإلهية كأمة وجماعة ، وذلك عندما تصبح أمة معصومة ، وتنتقل بذلك - حينئذٍ - الإمامة من الأشخاص المنتجبين الأصفياء الذين كانوا ينتخبون لها كأنبياء وأئمة للقيام بدور الخلافة إلى الأمة الجماعة ، أي عندما تبلغ الأمة مرحلة دور الوحدة الإنسانية الكاملة في تطبيق الرسالة الإلهية ، ودور تجسيد إرادة المستخلف الذي هو الله الذي يؤهلها لهذه الخلافة الإلهية ، بعد أن كانت البشرية قد مرت بأدوار الوحدة الفطرية والاختلاف في العبادة والاختلاف في الرسالة ، ويبقى دور الإمامة فيها - عندئذٍ - دور الشهادة والرقابة ، أو المحافظة على العلاقة والرابطة بين السماء والأرض في حفظ النظام والحياة .. إلى غير ذلك من الخصوصيات الأخرى التي أشارت إليها النصوص الشريفة .

منهج البحث التاريخي للإعداد

وهذا الموضوع وهو الدورة الزمنية لإعداد الأمة ، وإن كان يحتاج إلى بحث تاريخي واجتماعي واسع له مجال آخر ، ولكن اشير هنا إلى بعض أبعاده وخطوطه النظرية والمنهجية كمحاولة لتفسير هذه الظاهرة الرسالية :

الأول : بحث نظرية الأدوار التي مرت بها البشرية في الوحدة والاختلاف وعوامل الوحدة والاختلاف فيها ، ومنهج الرسالات الإلهية في معالجة هذه الأدوار ، وتوضيح الهدف الرئيس لها وهو إقامة الوحدة البشرية على أساس الرسالة الإلهية ودعائم الحق والعدل المطلق .

وهذا الهدف هو ما أكدته الرسالات الإلهية والقرآن الكريم ، وبشر به جميع الأنبياء ، ومنهم نبينا محمد ﷺ ، وذلك في الأخبار عن قيام المهدي ﷺ من أهل البيت الذي يحقق هذا الهدف ، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً . وهو ما تفرضه - أيضاً - طبيعة الرسالة الخاتمة الإسلامية ، التي لابد أن تحقق في إطارها ومرحلتها الخاصة هذا الهدف الإنساني الإلهي الكبير ، مع ملاحظة أن هذا الهدف لم يتحقق - كما أشرنا سابقاً - في زمن صاحب الرسالة وهو النبي الأعظم ﷺ (١) .

الأهداف الرسالية الثلاثة

الثاني : إن تحقيق هذا الهدف الكبير في حركة الرسالة الإسلامية يحتاج إلى تحقيق ثلاثة أمور :

(١) وقد تناولنا جانباً مهماً من هذا البحث في كتابنا (المجتمع الإنساني في القرآن الكريم) ، كما أشار إلى بعض جوانبه الشهيد الصدر ﷺ في أبحاثه الاجتماعية ، ومنها (خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء) والسنن التاريخية في محاضرات (التفسير الموضوعي) .

الأمر الأول: إبلاغ هذه الرسالة للناس لهدايتهم بصورة طبيعية، بحيث تقام الحجة فيها في عملية الإبلاغ على الناس، وتتحرك عملية الإبلاغ لتصل إلى البشرية كلها ولو بصورة تدريجية، ولعل هذا هو ما يعبر عنه الإسلام بقضية الظهور على الدين كله: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾^(١).

والأمر الثاني: هو فرض القدرة والسلطة والهيمنة الإسلامية على البشرية كلها تدريجياً، من خلال حركة القوة والقدرة التي تواكب حركة الهداية والإرشاد وإقامة الحجة على الناس، لأن فرض القدرة بالسلطة لابد أن يكون بعد إقامة الحجة على الناس وإبلاغ الرسالة لهم، وهو أمر آخر مطلوب في الحركة الرسالية، كما حدث ذلك بالنسبة إلى الرسالة الإسلامية في زمن النبي؛ حيث أن النبي ﷺ قام بإقامة الحجة على الناس أولاً، ثم بعد ذلك قام بالتحرك السياسي والعسكري من أجل فرض هيمنة الحكم الإسلامي وإقامة الحق والعدل بين الناس، وعندها تحققت الهيمنة للإسلام على الجزيرة العربية بصورة عامة في زمانه، وإن لم تكن هذه الهيمنة - أيضاً كما أشرنا سابقاً - هيمنة كاملة، ولكنها كانت هيمنة عامة للإسلام على الجزيرة العربية في هذه المدة المحدودة، ولعل هذه الهيمنة السياسية هي المقصودة بقوله تعالى ويكون الدين كله لله - والله العالم - قال تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير﴾^(٢).

الأمر الثالث: المطلوب إنجازه في الرسالة الخاتمة هو تطبيق الحق والعدل على الناس تطبيقاً كاملاً، على مستوى الفرد والجماعة معاً، حيث

(١) التوبة: ٣٣.

(٢) الأنفال: ٣٩.

يمكن أن نفترض بأن الحجة تقام على الناس وتفرض الهيمنة العامة بعد ذلك للمؤسسة السياسية التي نعبر عنها بالدولة أو الحكومة على الناس ، ولكن لا يتحقق التطبيق الكامل للشريعة الإسلامية على جميع هؤلاء الناس ، كما كان ذلك الأمر في زمن رسول الله ﷺ في حدود الجزيرة العربية ، فإن رسول الله ﷺ تمكن من فرض الهيمنة الإسلامية كدولة وقوة يخضع لها الناس في حدود الجزيرة العربية ، بعد أن أقام الحجة عليهم ، ولكن الكثير من هؤلاء الناس كان يرتكب الآثام - أيضاً - ويحرف قوانين الحق والعدل التي شرعها الإسلام ، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك عند الإشارة إلى حركة المنافقين ، وإلى مجتمع الأعراب ومخالفات بعض المسلمين من المؤلفة قلوبهم ، أو ضعفاء الإيمان ، أو ضعفاء الإرادة والالتزام ، حيث كان يرتكب مثل هذه القضايا حتى في زمن رسول الله ﷺ ، وقد كان رسول الله ﷺ يعلن - أحياناً - إنكاره وبراءته مما كان يرتكب في زمانه من هذه المخالفات ، إذ لم يطبق الحق تطبيقاً كاملاً على جميع هؤلاء الناس حتى في حدود الجزيرة العربية .

وهذا التطبيق الكامل هو الذي نعبر عنه في ثقافتنا وثقافة المسلمين بصورة عامة بقيام دولة الحق في زمان يخرج فيه الإمام المهدي ﷺ فيملاً الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً .

ويؤكد ذلك فكرة (الرجعة) التي أشرنا إليها سابقاً ، حيث يفهم منها أنه عندما تكتمل الدورة الإنسانية لإعداد الجماعة البشرية ، ويتحقق هذا الهدف العظيم الذي جاءت به الرسالات الإلهية ، تبدأ البشرية بدورة جديدة يتجسد فيها حضور الأنبياء والأوصياء والأولياء والأئمة كلهم ، ليمارسوا دورهم الطبيعي في الحياة الإنسانية بصورة كاملة ، وفي

مجتمع إنساني متكامل ، ويشهد فيه الكافرون والمنافقون النصر الإلهي الذي حققه الله تعالى لأنبيائه وأوليائه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرَ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ (١) .

دراسة حركة الرسالة

الثالث : القيام بدراسة تاريخية لحركة الرسالة الإسلامية ، منذ زمن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين والخلافة الأموية والعباسية وحتى نهاية هذه المدة المفترضة (٣٥٠ - ٤٠٠) عام ، ومتابعة (المؤشرات) الإيجابية والسلبية في هذه المدة التاريخية ذات العلاقة بهذا الهدف الرباني ، وهو تطبيق الحق والعدل بصورة كاملة ، بحيث تصبح الأمة رشيدة في هذا التطبيق ، ومؤهلة لهذه الخلافة الإلهية ، حيث يتبين من هذه الدراسة أن هذه المدة المفترضة كانت كافية للوصول بالأمة إلى هذه الدرجة العالية من الرشد والإعداد والتهيؤ لتحمل هذه المسؤولية العظمى ، لو كانت الأمور جرت على ما أمر الله به ، من استلام الأئمة الإثني عشر للإمامة خارجياً بكل أبعادها ، ومنها الحكم الإسلامي والمرجعية الفكرية والدينية الكاملة للمسلمين ، واستثمار فرص الهداية والبلاغ الإلهي .

ونشير - هنا - إلى نماذج من هذه المؤشرات التي يمكن متابعتها في هذه الدراسة التاريخية :

موازنة حركة الهداية والسلطة

المؤشر الأول : مدة الثلاثة والعشرين عاماً التي قضاهها رسول الله ﷺ في إبلاغ الرسالة الإسلامية ، والتي تمكّن فيها من فرض الهيمنة

الإسلامية على الجزيرة العربية ، ومسيرة الدعوة الإسلامية فيها والإنجازات التي حققها النبي ﷺ في هذه المدة الزمنية على المستويات الثلاثة ، إقامة الحجة ، وفرض السلطة ، وإقامة الحق والعدل ، مقاسة بالعالم .

ويلاحظ في هذا المؤشر بصورة دقيقة مجموعة خصوصيات :
الأولى : إن قيادة الحكم كانت قيادة معصومة بكل أبعادها ، وهي في الوقت نفسه كانت قيادة مؤسسة تحملت آلام محنة وإبلاغ الرسالة في بدايتها وقدرسية الرسول والرسالة عند انتصار الرسالة .
الثانية : السرعة الفائقة التي تمكن أن يحقق فيها رسول الله ﷺ هذه الإنجازات الفريدة على المستويات الثلاثة السابقة :

ومن هذه الإنجازات : تأسيس مشروع الأمة الواحدة المتعددة الأطراف والخصوصيات ، من جماعات متفرقة ومتناحرة ومختلفة دينياً وثقافياً ، والتي حوّلها إلى أمة واحدة تتمتع بمعنويات عالية ، تمكنت من إدامة الزخم الرسالي ، وتحمل الكثير من أعباء حمل الرسالة والجهاد من أجل فرض سيطرتها .

ومنها : تأسيس الدولة الإسلامية ، المشروع التطبيقي الفريد في تاريخ الرسالات الإلهية ، كما أشرنا إليه في بحث خاص^(١) .

ومنها : فرض الهيمنة على الجزيرة العربية كلها ، والدخول في فتح أبواب الهيمنة على المناطق المجاورة لإخضاعها .

ومنها : إقامة الحجة على الأمم المجاورة من خلال مخاطبته ﷺ لها بالإسلام ، بصورة أولية من خلال الرسائل والمبعوثين .

(١) يراجع - أيضاً - في ذلك بحثنا حول (العالمية والخاتمية والخلود) من خصائص الرسالة الإسلامية، وبحثنا حول الهجرة ومعطياتها.

ومنها : إبلاغ الرسالة وإكمال بيانها للناس ، من خلال تلاوة القرآن الكريم وحفظه ، وبيانات السنة النبوية العامة والخاصة ، وإلى غير ذلك من الإنجازات .

الثالثة : المقارنة الدقيقة في البحث والاستنتاج وموازنة تحقيق الأهداف بين حركة الهداية وإقامة الحجة على الناس ، وفرض الهيمنة السياسية على الجماعة ، حيث نلاحظ :

أولاً : إن رسول الله كان يبذل في البداية كل الجهود من أجل الهداية بدون استخدام القوة ، وكان يقدم التضحيات الغالية من أجل ذلك ، ثم يبدأ بعملية استخدام القوة كعامل لإزالة الحواجز أمام حركة الهداية .

ثانياً : إن الهداية ، وإن كانت تحتاج إلى تضحيات وتواجه صعوبات وفترة زمنية كبيرة نسبياً ، ولكنها كانت في الوقت نفسه تمثل أحد العوامل المهمة في إيجاد تسهيلات أمام حركة فرض السيطرة السياسية ، وتسليم الناس للإسلام ، وقبول الرسالة الإسلامية .

ولذلك كانت الفترة المكية لحركة الرسول أطول زمناً من الفترة المدنية ، والنتائج لفرض السيطرة السياسية للفترة المكية كانت محدودة جداً ، ولكنها كان لها تأثير مهم في النتائج التي حققها رسول الله بعد ذلك في الفترة المدنية ، من تسهيل فرض السيطرة فيها على الجزيرة العربية ، ومنها مكة المكرمة نفسها .

وكذلك نلاحظ - في هذا المجال - أن الجهود الكبيرة التي بذلها الرسول في معالجة قضية أهل الكتاب ، وتحمله المعاناة من أجل مخاطبتهم وإقامة الحجة عليهم ؛ كان لها دور كبير في تحقيق نتائج الهيمنة السياسية على مناطقهم المنيعه : ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل

الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار»^(١).

القيادة غير المعصومة

المؤشر الثاني : هو حركة الدولة الإسلامية في مدة الخلفاء الثلاثة الذين تولوا السلطة بعد الرسول، والتي تم فيها إبعاد الإمام علي عليه السلام من قيادة التجربة الإسلامية بصورة عامة ، والدولة الإسلامية بصورة خاصة ، ولكنها مع كل ذلك كانت تتصف بدرجة معينة من الالتزام الديني العام، والقرب الزمني من عهد رسول الله ﷺ ، بحيث كان يعبر عنها الإمام علي عليه السلام - أحياناً - بقوله : «ووالله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ، ولم يكن فيها جور إلا علي خاصة»^(٢) ، وكان يقدم فيها المشورة إلى الخلفاء ويشترك في إدارة بعض الأمور فيها ، وكان يشارك فيها أخصار الصحابة وصلحاءهم وخاصتهم ، أمثال سلمان الفارسي - الذي يعبر عنه الرسول ﷺ بسلمان المحمدي - وعمار بن ياسر ، وحذيفة بن اليمان وعبدالله بن مسعود ، وغيرهم كثير ...

حيث تمكنت هذه الدولة في فترة ربع قرن من الزمان من أن تفرض هيمنتها على جزء كبير من العالم المتحضر في ذلك العصر (الدولة الفارسية) بكامل أجزائها والقسط الأعظم من (الدولة الرومانية) وقسم كبير من أفريقيا .

وحركة الهداية وإقامة الحجة في هذه الفترة الزمنية ، وإن لم تكن في

(١) الحشر : ٢ .

(٢) نهج البلاغة : الخطبة ٧٤ .

مستواها المطلوب ، قد واكبت حركة الهيمنة والسلطة ، ولكنها كانت حركة قائمة وتحظى باهتمام مناسب من الدولة ، ولا سيما وأن النبي كان قد شرع فيها قبل وفاته .

ولكن هذه الحركة الرسالية (حركة إقامة الحجة) لو كانت بالمستوى المطلوب ؛ لأمكن أن يتحقق إنجاز أعظم على مستوى تثبيت القواعد والدعائم في هذه المنطقة ، ولأمكن فرض السيطرة الكاملة - أيضاً - على جميع أجزاء الدولة الرومانية .

ولكن بسبب التلكؤ في حركة الهداية من ناحية ، وإقصاء الإمام علي عليه السلام عن قيادة الحكم من ناحية أخرى ؛ بقيت الجيوش الإسلامية تواجه مقاومة داخلية وخارجية ، أي في داخل الجزيرة العربية من خلال حركة الارتداد والتمرد والاختلاف في تفسير النصوص الإسلامية ، أو من خارج الجزيرة في مناطق إيران وتركيا وإفريقيا ، وغيرها من المناطق التي وقعت تحت سيطرة الجيوش الإسلامية ، وكذلك كانت تواجه مقاومة خارجية من الدولة الرومانية في آسيا وعمقها الجغرافي التي بدأت ونمت وتجذرت في زمن الخليفة عثمان ؛ بسبب الانحرافات في السلطة ، ثم تفجرت في زمن الإمام علي عليه السلام عليه والإمام الحسن عليه السلام من بعده بسبب تمرد معاوية على السلطة الشرعية ، كل هذه العوامل كانت وراء التلكؤ في حركة الهداية .

وهذا هو ما تنبأت به الزهراء عليها السلام في خطبتها المعروفة حول الخلافة والبيعة والمطالبة بحقوقها^(١) ، وما تنبأ به سلمان الفارسي - أيضاً - في

(١) (.. والله لو تكافؤا عن زمام نبذه رسول الله ﷺ إليه لاعتقله، ولسار بهم سيراً سجحاً، لا يكلم خشاشه، ولا يتعتع راكبه، ولأوردهم منهلاً نميراً فضفاضاً تطفع ضفتاه ولأصدرهم بطاناً، قد

تلك المناسبة عندما كان يردّ قول : (والله لو وليتموها علينا؛ لأكلتم من فوقكم ومن تحت أرجلكم) .

وقد كان في النموذج الذي قدمه الإمام علي عليه السلام في السنوات الأربع من حكمه ، بالرغم من انشغاله بالحروب الداخلية ، أفضل دليل على ما كان يمكن أن يتحقق على مستوى الخط الثالث من حركة الرسالة ، وهو التطبيق الكامل للأحكام الشرعية .

مشاكل الدولة وتراجعها

الموشر الثالث : حركة الدولة الإسلامية في عهد الأمويين والعباسيين، فإنه بالرغم من وجود فوارق رئيسية بين العهدين لا مجال لبحثهما^(١) .

فأنه بالرغم من القوة والمنعة اللتين كانتا تتمتعان بهما ، ولا سيما في العهد العباسي ، والتطور الكبير الذي شهدته في القدرة المادية والتنظيم الإداري والمدني ، إلا أن حركة الدولة فيهما كانت تتصف - بصورة عامة - بصفتين سلبيتين رئيسيتين :

إحدهما : أن القضية الأولى والهم الأعظم للدولة في هذين العهدين

→ تحيّر بهم الرّي غير متحلّ منه بطائل إلا بغمر الماء وردعة شررة الساعب، ولفتحت عليهم بركات من السماء والأرض، وسياخذهم الله بما كانوا يكسبون.

.. أما لعمر إلهك لقد لقحت فنظرة ريث ما تنتج ثم احتلبوا طلاع القعب دماً عبيطاً، وزعافاً ممقراً، هنالك يخسر المبطلون، ويعرف التالون، غبّ ما سنّ الأولون، ثم طيبوا عن أنفسكم أنفساً، وطأمتوا للفتنة جأشاً، وأبشروا بسيف صارم، وهرج شامل، واستبداد من الظالمين يدع فيأكم زهيداً، وزرعكم حصيداً فيا حسرتي لكم، وأنّى بكم، وقد عميت (قلوبكم) عليكم أنلزمكموها وأنت لها كارهون) ، البحار ٤٣ : ١٥٨ - ١٥٩ ، حديث ٨ .

(١) تناولنا في بعض محاضراتنا حول الإمام الصادق عليه السلام ، وسوف نبثها - إن شاء الله - عند تناولنا لأدوار أئمة أهل البيت عليهم السلام ومواقفهم .

كان هو فرض السلطة السياسية، وبسط الهيمنة المادية والحصول على
الإمكانات والثروات على الأرض، سواء في داخل الدولة الإسلامية أو في
خارجها، وهو ما نعبر عنه نظرياً بالاتجاه إلى تحويل الدولة إلى دولة
كسروية وقيصرية، وبذلك تخلت الدولة - لا الأمة - عن مشروعها
الرسالي الأساس.

ثانيهما: الصراعات الداخلية وأولوية القضاء على الخصوم
السياسيين الداخليين، سواء التقليديين منهم أو الأقربين، وممارسة
عمليات القمع السياسي، حتى لو لم يكن ذا طابع عسكري مسلح، الأمر
الذي أدّى إلى إضعاف القدرة الإسلامية، وتبديد الطاقات والإمكانات
التي كانت تملكها الأمة.

ومن الظواهر والنتائج التي تؤشر على هذه الحقيقة:

١ - ظاهرة القمع الوحشي لحركة الإصلاح - الخروج على الدولة -
المبررة شرعاً في الواقع أو الظاهر والتي بدأت بنهضة الإمام
الحسين عليه السلام، واستمرت بصور متعددة، مثل حركة المدينة المنورة
ووقعة الحرة، وحركة ابن الزبير، وحركة التوابين والمختار الثقفي،
وحركة زيد بن علي وأولاده، وحركة الحسين بن علي صاحب فخ، وقبله
محمد وإبراهيم ابني عبدالله بن الحسن المثنى.

٢ - ظاهرة التوقف، ثم تراجع الدولة الإسلامية في حركة الفتح
الإسلامي على أبواب أوروبا الغربية وأفريقيا الجنوبية وآسيا الوسطى
والجنوبية.

٣ - ظاهرة انتشار الهدى في بعض المناطق داخل الدولة الإسلامية أو
المجاورة لها على أيدي المشردين والمطاردين السياسيين من أهل

البيت وأبنائهم وشيعتهم ، كما في بعض مناطق الغرب العربي وأفريقيا
السوداء وبلاد الترك والديلم ، وغيرها من البلاد .

٤ - ظاهرة سيطرة القبائل والشعوب حديثة العهد على مقدرات الدولة ،
لأسباب التترس بها في الصراعات الداخلية .

٥ - ظاهرة الحروب والغزوات ذات الطابع العدواني والمكاسب
المادية في الغنائم والإماء ، الأمر الذي أدى إلى بروز ظاهرة الدفاع عن
النفس في الشعوب المجاورة ، وتنامي المشاعر القومية والطائفية .

٦ - ظاهرة الانشقاقات العنيفة في داخل السلطة الواحدة والبيت
الواحد ، مثل بعض الأحداث التي وقعت في زمن الأمويين والعباسيين ،
ومنها اقتتال المأمون والأمين ولدي هارون الرشيد .

وإلى غير ذلك من الظواهر السيئة البعيدة عن الإسلام وأهدافه وقيمه
ومثله .

وبذلك يمكن أن نفهم الكثير من المواقف والإدانات التي كانت تصدر
عن أهل البيت بالنسبة إلى هذه الظواهر .

مثل رفض وإدانة التعاون مع حكام الجور .
وظاهرة رفض المشاركة في الحروب والغزوات وإدانتها ، مع التأكيد
على وجوب المراقبة والدفاع .

وظاهرة الطعن بشرعية أموال الغنائم ، وتملك الإماء في هذه العمليات
العدوانية .

وكذلك يمكن أن نفهم السبب في وقوف الجيوش الإسلامية المنظمة
والقوية ، عاجزة أمام القبائل الأوربية الوحشية وغير المنظمة المستقرة
في مجاهل أوروبا والاكتفاء بالاستقرار في الأندلس وحدها ، ثم التراجع

عنها .

وكذلك السبب في وقوفها عاجزة أمام قبائل المغول الوحشية وغير المنظمة في مجاهل آسيا ، ثم التراجع أمامها ، بحيث أدى إلى سقوط أكثر العالم الإسلامي بيدهم .

وكذلك السبب في تحول الدولة الإسلامية إلى يد الدولة المغولية في إيران والعثمانية في تركيا ... الخ .

الاستنتاج

إن دراسة هذه الأمور الثلاثة الرئيسية مع خصائصها وظواهرها ومؤثراتها ، سوف ينتهي بنا إلى هذا التصور - الذي ذكرناه - في تفسير ظاهرة الأئمة الإثني عشر ، وهو أن مدة إقامة هؤلاء الأئمة بحسب تقدير الحكمة والعدل الإلهي في هداية الناس ، تمثل دورة زمنية مناسبة لإعداد الأمة وتأهيلها للقيام بهذا الواجب الإلهي ، وهو الخلافة لله تعالى في الأرض كأمة وجماعة ، وتكون بذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ... ﴾^(١) ، ولقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾^(٢) ، وبذلك يعم العدل ويقوم القسط بين الناس ، ويحكم الحق فيهم ، ويتحقق الوعد الإلهي لهم ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي

(١) آل عمران : ١١٠ .

(٢) الحج : ٤١ .

شيئاً... ﴿١﴾.

إن هذه الدراسة ، سوف توضّح أن زخم الهدى والصالح الذي تركه رسول الله في أصحابه لو استمر بالطريقة التي شرعها الله تعالى ، وبلغها رسول الله لأُمته وبذل كل جهده ، لإقامة الحجة عليها ، بحيث تحفظ فيها موازنة حركة الهداية مع حركة السلطة ؛ كان كفيلاً بتحقيق هذا الهدف الكبير في هذه المدة الزمنية ، هذا الزخم الذي رأينا أثره وفعله وتأثيره في العالم المحيط بالمسلمين - بالرغم من الانحراف الذي تعرّضت له في مسيرتها في أهم موقع لها - بحيث تداعت أركان الدولة الفارسية بأكملها ، وكادت أن تسقط به - أيضاً - أركان الدولة الرومانية ، وهما الدولتان المتحضرتان القويتان في ذلك العصر ، وتفتح فيه أبواب القبائل الوثنية المشتتة في العالم ، في مدة لا تزيد على ربع قرن من الزمن ، كل ذلك لتحقيق ، لو كانت القيادة لهذا الزخم الرسالي الإلهي قيادة ربانية مدعومة بمسيرة الهدى والصالح ، وإقامة الحجة على الناس ، وتذليل النفوس والقلوب قبل تذليل الأجساد والقوى المادية .

إن تنسيق حركة الهدى مع حركة الهيمنة وتقدمها على حركة القدرة والسلطة ، قد يؤجل بسط الهيمنة المادية بعض الوقت ، ولكنه سوف يفرض تصاعداً حتمياً مثمراً في الخط البياني لمسيرة الخطوط الثلاثة ، الأمر الذي يؤدي إلى تحقيق هذا الهدف الحتمي الإلهي العظيم : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ * إن في هذا لبلغاً لقوم عابدين ﴾ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴿ (٢) .

كما أن (عملية) بسط العدل والحق المطلق ، والهيمنة الكاملة لها وحل

(١) النور : ٥٥ .

(٢) الأنبياء : ١٠٥ - ١٠٧ .

جميع معالم وصور الاختلاف بين الناس التي أشارت إليها آية سورة النور السابقة، قد تحتاج إلى وقت أطول من وقت عملية إقامة الحجة، وعملية بسط الهيمنة السياسية، لأنها أكثر تعقيداً من العمليتين الأخريين، ولكن هذا الوقت المفترض وهذه المدة المحدودة تكفي - بإذن الله - في تحقيق كل ذلك، كما تشير إليه هذه الملاحظات^(١).

وعندما يتحقق هذا الهدف الكبير قد ينتهي بذلك بعض أدوار الإمامة المعصومة، بعد أن تكون الأمة قد بلغت الرشد في حركة الهداية، وأصبحت معصومة كأمة، وتمت سيطرة الإيمان والدين سياسياً حتى لا تكون فتنة، ويقوم القسط بين الناس، ووضعت أوزار الخلافات والخصومات، وأصبحت العبادة لله تعالى وحده دون غيره، لا يشرك بعبادته أحد من الناس، وتصبح الحجة لله البالغة على الناس، ويبدأ دور جديد للإمامة المعصومة هو دور (الرجعة).

ولكن شاء الله تعالى أن تجري الأمور بطريقة أخرى، لمزيد من الامتحان والابتلاء والاختبار لهذه الأمة، ولمزيد من التكامل الإنساني من خلاله مما جعل المدة أطول، فكانت الغيبة الصغرى والكبرى.

﴿...إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾^(٢).

(١) لقد كانت هذه النتائج هي التي أشارت إليها الزهراء (عليها السلام) في خطبتها المعروفة، وسلمان الفارسي في تعليقه - كما أشرنا إلى ذلك - وبهذا الصدد تنقل طريقة تعبر عن جانب من هذه الرؤية، وهي أن أحد المستشرقين البريطانيين الذين كانوا يصطحبون القوات البريطانية في فتحها للعراق في الحرب العالمية الأولى، دخل إلى مسجد الكوفة بعد الفتح وشاهد بناء المتواضع ومواقع الإمام علي (عليه السلام) فيه وفي الكوفة، فعلق على ذلك بما معناه (أن لمعاوية وابن ملجم - قاتل الإمام علي - فضل كبير على الأمة البريطانية، إذ لولاها لرأيت مسجد الكوفة هذا يعج بالقبعات البريطانية المؤمنين).

(٢) الطلاق: ٢.

* قواعد أصول الفقه

٣ - قاعدة : الحقيقة الشرعية

٤ - قاعدة : الصحيح والأعم

* إعداد : لجنة في مجمع فقه أهل البيت عليه السلام

* قاعدة : الحقيقة الشرعية

توضيح القاعدة :



لا ريب أنَّ الألفاظ المتداولة في لسان الشارع كالصلاة والصوم والحج وسائر العبادات كانت مستعملة في المعاني المعهودة ، وإنما الكلام في أنَّ تلك المعاني المعهودة كانت ثابتة بألفاظها قبل الشرع ولو مع اختلاف الشرائع في الأجزاء والشرائط أم لا ؟ وعلى الثاني فهل كانت المعاني من مخترعات شرعنا أو كانت المعاني ثابتة قبل الشرع ولكن هذه الألفاظ لم تكن مستعملة فيها وإنما استعملت في هذه الشريعة ؟

فإن قيل بالأول فلا مجال للبحث عن ثبوت الحقيقة الشرعية بمعنى وضع هذه الألفاظ لتلك المعاني في شرعنا ، بل هي حقائق لغوية أو عرفية .

وإن قيل بالثاني أو الثالث فللكلام في ثبوت الحقيقة الشرعية مجال واسع .

واختلفت كلمات الأصوليين في ثبوت الحقيقة الشرعية وعدمه ، والمشهور هو الثاني وقد اختاره المحقق الخراساني^(١) والسيد البروجردي^(٢) والإمام الخميني^(٣) .

الدليل على عدم ثبوت الحقيقة الشرعية :

إثبات هذا المدعى يتوقف على بيان الاحتمالات في ثبوت الحقيقة الشرعية وردّها :

١ - احتمال أن يكون ثبوت الحقيقة الشرعية بالوضع التعييني أي التصريح بوضع هذه الألفاظ لتلك المعاني من قبل الشارع أو استعمال الألفاظ فيها بقصد الوضع ، سواء كانت المعاني مخترعة في تلك الشريعة ، أم كانت ثابتة قبل الشرع من دون استعمال هذه الألفاظ فيها . وقد يستشكل فيه :

أولاً : بأن من يرى طريقة المسلمين وحرصهم على حفظ سيرة النبي ﷺ وجزئيات حياته حتى كيفية نومه ومشيه وقيامه وقعوده

(١) الكفاية : ٢٢ .

(٢) نهاية الأصول : ٤٤ و ٤٥ .

(٣) مناهج الوصول ١ : ١٢٧ ، ١٢٨ .

وأكله وشربه وشماثله مما لا ربط له بالتشريع، ليقطع أنه لو صرّح بوضع لفظة واحدة، أو عيّنها لمعنى بالاستعمال بقصد الوضع لنقل فضلاً عن وضع جميع الألفاظ أو نوعها^(١).

وثانياً: بأنّ سنخ هذه العبادات كان معمولاً متداولاً بين جميع أفراد البشر وأرباب الملل، حتى مثل عبدة الأوثان، فإنّ أفراد البشر كانت في طول التاريخ تعتقد بشرية ودين صحيح أو فاسد، وكان كل واحد من الأديان الصحيحة والباطلة يوجد فيه عمل مخصوص، وضع لأن يتوجه به العبد إلى مولاه ويتخضع لديه، بنحو يليق بساحة من يعتقده مولى له، ولا محالة كان لهذا السنخ من العمل في كل لغة لفظ يخصّه، وكان في لغة العرب وعرفهم يسمّى بالصلاة مثلاً، فاستعمال هذا اللفظ في تلك العبادة ليس بوضع شارع الإسلام، بل كان مستعملاً فيها في أعصار الجاهلية أيضاً، غاية الأمر أن ما هو مصداق لهذه الطبيعة بنظر شارع الإسلام مغاير لما في سائر الأديان، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلاً مكاءً وتصديّة﴾^(٢)، حيث سمّى ما كان يصدر عنهم بقصد التوجه المخصوص إلى المولى صلاة، غاية الأمر أنه تعالى خطأهم في إتيان ما يشبه اللهو بعنوان الصلاة. وقال تعالى أيضاً حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾^(٣)، وكذلك لفظ الصوم والحج ونحوهما كما يظهر ذلك بمراجعة الآيات والروايات^(٤).

(١) راجع مناهج الوصول ١: ١٣٧.

(٢) الأنفال: ٣٥.

(٣) مريم: ٣١.

(٤) نهاية الأصول: ٤٤، ٤٥، ومناهج الوصول ١: ١٣٨.

٢ - احتمال أن يكون ثبوت الحقيقة الشرعية بالوضع التعييني أي الوضع بالاستعمال؛ بأن استعمل الشارع اللفظ في المعنى الخاص دون أن يقصد الوضع، ثم كثر استعماله فيه حتى صار هذا المعنى مفهوماً من حاقّ اللفظ، فإنه بكثرة الاستعمال يحصل الوضع التعييني .
وقد يستشكل فيه بما تقدم في الاحتمال الأول من أنه موقوف على إثبات كون العبادات والمعاملات من مخترعات هذه الشريعة، أو على عدم استعمال هذه الألفاظ في تلك المعاني قبل هذه الشريعة، مع أنه ممنوع^(١).

وحاصل الاستشكال أن المراجع للكتاب والسنة يطمئن بأن هذه الألفاظ من لدن أول البعثة استعملت في تلك المعاني من غير احتفافها بالقرينة، هذا هو القرآن المجيد ترى قوله في سورة المزمّل المكية النازلة على المحكي في أوائل البعثة : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾^(٢)، وقوله في المدثر المكية كذلك : ﴿قَالُوا لِمَ نَكُ مِنَ الْمَصْلُومِينَ﴾^(٣)، وقوله في القيامة المكية : ﴿فَلَا صَدْقَ وَلَا صَلٰى﴾^(٤)، وفي الأعلى المكية : ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلٰى﴾^(٥)، وفي العلق المكية : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلٰى﴾^(٦)، إلى غير ذلك من المكيات فضلاً عن المدنيات، فلا إشكال في أنّ نوع ألفاظ العبادات كانت مستعملة في عصر النبي ﷺ في

(١) مناهج الوصول ١ : ١٣٨ .

(٢) المزمّل : ٢٠ .

(٣) المدثر : ٤٣ .

(٤) القيامة : ٣١ .

(٥) الأعلى : ١٥ .

(٦) العلق : ٩ - ١٠ .

المعاني المعهودة، وكان المخاطبون يفهمونها منها من غير قرينة، وأمّا في لسان التابعين ومن بعدهم فالأمر أوضح من أن يذكر^(١).

ثمرة البحث :

إنّ ثمرة البحث إنما تظهر فيما لو كانت معاني تلك الألفاظ قبل الشريعة هي المعاني اللغوية العامة، ولم تكن الألفاظ مستعملة في المعاني المعهودة بلا قرينة، فعلى هذا لو شككنا بحمل الألفاظ المستعملة في لسان الشارع على المعاني اللغوية، أو يتوقف بناء على عدم ثبوت الحقيقة الشرعية، وعلى المعاني المعهودة بناء على الثبوت. وقد اعترض بأنه لا ثمرة للبحث عن هذه المسألة أصلاً، فإنّ ألفاظ الكتاب والسنة الواصلة إلينا يبدأ بيد معلومة المراد، فلا شك في المراد حتى تصل النوبة إلى الأخذ بمقتضى القولين^(٢).

قاعدة: الصحيح والأعم^(٣)

توضيح القاعدة :

ولتوضيح القاعدة تطرح الأمور التالية :

١ - اختلفت تعبيرات الأصوليين في طرح هذه القاعدة، فقد يعبر عنها بأنّ ألفاظ العبادات والمعاملات هل هي موضوعة للصحيحة أو للأعم

(١) مناهج الوصول ١: ١٣٦، ١٣٧.

(٢) المحاضرات ١: ١٢٤.

(٣) مطارح الأنظار: ٣، وفوائد الأصول ١: ٥٩، ومناهج الوصول ١: ١٤٠، ونهاية الأصول ١: ٤٦،

والمحاضرات ١: ١٤٢.

منها^(١) فيخرج الاختصاص الحاصل بالتعيين ، لأنه ليس بالوضع ، فضلاً عن الاستعمالات المجازية وما نسب إلى الباقلاني ؟
وقد يعبر عنها بأنها أسام للصحيحة أو الأعم منها^(٢) . فيدخل الاختصاص التعيني فيه دون البقية ؟

وقد يعبر عنها بأن الأصل في استعمال الشارع هل هو الاستعمال في خصوص الصحيح أو الأعم منه^(٣) فيدخل فيه الجميع^(٤) ؟

٢ - قال المحقق الخراساني رحمته الله : إنّ الظاهر أنّ الصحة عند الكل بمعنى واحد وهو التمامية ، وتفسيرها بإسقاط القضاء كما عن الفقهاء أو بموافقة الشريعة كما عن المتكلمين ، أو غير ذلك إنّما هو بالمهم من لوازمها ، لوضوح اختلافه بحسب اختلاف الأنظار ، وهذا لا يوجب تعدّد المعنى ، كما لا يوجب اختلافها بحسب الحالات من السفر والحضر والاختيار والاضطرار ، إلى غير ذلك كما لا يخفى .

ومنه ينقدح أن الصحة والفساد أمران إضافيان ، فيختلف شيء واحد صحة وفساداً بحسب الحالات ، فيكون تاماً بحسب حالة ، وفساداً بحسب أخرى^(٥) .

واستشكل فيه الإمام الخميني «رضوان الله عليه» بعدم مساعدة العرف واللغة عليه ، بل الصحة والفساد كقيمتان وجوديتان عارضتان للشيء في الوجود الخارجي ، فيقال للشيء الموجود المتصف بكيفية

(١) درر الفوائد ١ : ٤٧ .

(٢) الكفاية : ٢٣ ، والمحاضرات ١ : ١٤٢ .

(٣) مناهج الوصول ١ : ١٤٠ ، ١٤١ .

(٤) م . ن .

(٥) الكفاية : ٢٤ .

ملائمة لطبيعته النوعية، إنه صحيح سالم وللمتصف بكيفية منافرة لها إنه فاسد ، ويشبه أن يكون إطلاقهما على الماهيات الاعتبارية بنحو من التوسع ، فإن لتلك الماهيات وراء الأجزاء هيئة اعتبارية اتصالية، أو وحدة اعتبارية لأجلها يقال : «قطع صلاته وأفطر صومه» فيدعى لأجل فقد شيء معتبر فيها عروض الفساد لها كالموجود الخارجي الذي عرض له الفساد ، وكذلك في الصحة ، وأمّا التمام والنقص فيطلقان عليه باعتبار جامعيته للأجزاء والشرائط وعدمها ، فالإنسان الذي ليس له عين أو يد ناقص لا فاسد ، فمفهوم النقص والتمام يخالفان الصحة والفساد وبينهما تقابل العدم والملكة كما أنّ بين الصحة والفساد تقابل التضاد^(١).

٣- لا إشكال في أنّ لكلّ من العبادات أفراداً عرضيّة وطولية، تختلف باختلاف حالات المكلفين كالصلاة، حيث إنّ لها أفراداً لا تحصى من حيث اختلاف حالات المكلفين من السفر والحضر والصحة والمرض والقدرة والعجز والخوف والأمن وغير ذلك ، ولا إشكال في بطلان كون الألفاظ موضوعة لكل من هذه الأفراد بالاشتراك اللفظي، ولا في بطلان كون الألفاظ حقيقة في بعضها ومجازاً في الباقي ، فلا بد للصحيح والأعم من تصوير جامع وجداني يشترك فيه جميع الأفراد ، أما بناء على أن يكون الوضع والموضوع له عامين فواضح ، وأما بناء على أن يكون الوضع عاماً والموضوع له خاصاً فلأنّ تصوّر جميع الأفراد تفصيلاً غير معقول لعدم تناهيهما ، فلا بد من تصوورها بجامع يكون ذلك الجامع معروفاً لها إجمالاً^(٢).

(١) مناهج الوصول ١: ١٤٣، ١٤٤.

(٢) فوائد الأصول ١: ٦١، ومناهج الوصول ١: ١٤٨، والمحاضرات ١: ١٤٧.

٤- الجوامع المتصورة للصحيح والأعم :

اختلفت كلمات الأصوليين في تصوير الجامع على الصحيح أو الأعم ، ونحن نذكر بعض الجوامع المذكورة من دون نقض وإبرام لئلا يطول :
أ - قال المحقق الخراساني رحمته الله : لا إشكال في وجوده بين الأفراد الصحيحة وإمكان الإشارة إليه بخواصه وآثاره ، فإن الاشتراك في الأثر كاشف عن الاشتراك في جامع واحد يؤثر الكل فيه بذاك الجامع ، فيصح تصوير المسمى بلفظ الصلاة مثلاً بالناحية عن الفحشاء وما هو معراج المؤمن ونحوهما^(١).

ب - قال الإمام الخميني «رضوان الله عليه» : إن المركبات الاعتبارية التي عرضتها وحدة ما على قسمين :

أحدهما : ما يكون الكثرة فيها ملحوظة كالعشرة والمجموع ، فإن العشرة وإن لوحظت واحدة فتكون مقابل العشريتين والعشرات ومفردهما ، لكن الكثرة فيها ملحوظة وكذا المجموع ، وفي مثلها يفقد الكل بفقدان جزء منها ، فلا يصدق العشرة ولا المجموع إلا على التام الأجزاء .

ثانيهما : ما تكون الكثرة فيه فانية في الوحدة والهيئة فناء المادة في صورتها ، ففي مثلها تكون شيئية المركب الاعتباري بصورته التي هي الهيئة العرضية الاعتبارية لا بمادته ، وتكون المادة فانية في الهيئة ، وهي قائمة بالمادة متحدة معها ، ولهذا لا يضر اختلاف المواد أي اختلاف عرض لها بشيئية المركب الكذائي ، فالسيارة سيارة ما دامت صورتها وهيئتها محفوظة من أي فلز كانت مادتها ، فالمادة مأخوذة بنحو

(١) الكفاية : ٢٤ .

اللابشرط، والعرض العريض بمعنى عدم اللحاظ في مقام التسمية إلا للهيئة، والمواد فانية فيها، والهيئة أيضاً مأخوذة بنحو اللا بشرط والعرض العريض، فالسيارة مركوب خاص لما صنعها صانعها سمّاها باسم فانية موادها في هيئتها، وغير ملحوظ فيها هيئة خاصة لا تتعدها، وهذا معنى اللا بشرط في الهيئة والمادة، ولهذا تصدق على المركوب الخاص بأي هيئة أو مادة كانت، ثم إنه قد يعتبر في المركبات الاعتبارية مواد خاصة، ومع ذلك تكون في مقام التسمية فانية في الهيئة، وتؤخذ الهيئة لا بشرط من جهة أو جهات، فيصدق الاسم مع تحقق سنخ المواد بنحو العرض العريض مع الهيئة كذلك، فلا يمكن التعبير عنها إلا بأمر عرضية.

فحينئذ نقول: يمكن أن يقال: إنّ الصلاة عبارة عن ماهية خاصة اعتبارية مأخوذة على النحو اللا بشرط، فانية فيها مواد خاصة مأخوذة كذلك، فمواد الصلاة ذكر وقرآن وركوع وسجود على النحو اللا بشرط صادقة على الميسور منها، وهيئتها صورة اتصالية خاصة نسبتها إلى المواد نسبة الصورة إلى المادة، لكن الهيئة أيضاً أخذت لا بشرط من بعض الجهات كهيئة السيارة، ولا يمكن أن يعبر عنها إلا بعناوين عرضية كالعبادة الخاصة، كالتعبير عن السيارة بالمركب الخاص من غير أن يكون لها جنس وفصل يمكن تحديدها بهما^(١).

ج - قال المحقق السيد البروجردي: إنّ تصوير الجامع الذاتي بين أفراد العبادات كالصلاة ونحوها غير معقول، وأما الجامع العرضي فتصويره معقول، حيث إنّ جميع مراتب الصلاة مثلاً بما لها من

(١) مناهج الوصول ١: ١٥٥ - ١٥٧.

الاختلاف في الأجزاء والشرائط تشترك في كونها نحو توجه خاص وتخضع مخصوص من العبد لساحة مولاه ، يوجد هذا التوجه الخاص بإيجاد أول جزء منها، ويبقى إلى أن تتم ، فيكون هذا التوجه بمنزلة الصورة لتلك الأجزاء المتباينة بحسب الذات ، وتختلف كمالاً ونقصاً باختلاف المراتب ، والحاصل أن الصلاة ليست عبارة عن نفس الأموال والأفعال المتباينة المتدرجة بحسب الوجود حتى لا يكون لها حقيقة باقية إلى آخر الصلاة ، محفوظة في جميع المراتب، ويترتب على ذلك عدم كون المصلي في حال السكونات والسكونات المتخللة مشغولاً بالصلاة، بل هي عبارة عن حالة توجه خاص يحصل للعبد، ويوجد بالشروع فيها ويبقى ببقاء الأجزاء والشرائط ، ويكون هذا المعنى المخصوص كالطبيعة المشككة ، لها مراتب متفاوتة تنتزع في كل مرتبة عما اعتبر جزءاً لها ، فهذا الأمر الباقي بمنزلة الصورة لهذا الأجزاء ، فهو موجود بعين وجودات الأجزاء ، فيكون الموضوع له للفظ الصلاة هذه العبادة الخاصة والمعنى المخصوص ، ويكون هذا المعنى محفوظاً في جميع المراتب ، فيكون وزان هذا الأمر الاعتباري وزان الموجودات الخارجية كالإنسان ونحوه ، فكما أن طبيعة الإنسان محفوظة في جميع أفرادها المتفاوتة بالكمال والنقص والصغر والكبر ونقص بعض الأجزاء وزيادته ما دامت الصورة الإنسانية محفوظة في جميع ذلك ، فكذلك طبيعة الصلاة ، ومثل هذا المعنى يمكن أن يفرض في سائر العبادات أيضاً من الصوم والحج ونحوهما^(١).

(١) نهاية الأصول: ٤٧، ٤٨.

د - كون الجامع على الأعم هو القدر المشترك بين أجزاء معلومة؛ كالأركان في الصلاة ، وبين ما هو أزيد من ذلك^(١) .

هـ - كون ألفاظ العبادات على الأعم موضوع لمعظم الأجزاء التي تدور مدارها التسمية عرفاً ، فصدق الاسم كذلك يكشف عن وجود المسمى ، وعدم صدقه عن عدمه^(٢) .

البحث في العبادات :

أدلة القول بالأعم :

١ - التبادر :

قال الإمام الخميني «رضوان الله عليه» : لا إشكال في أن المتبادر من ألفاظ العبادات في عصرنا هو نفس الطبائع بما هي من غير لحاظ الخصوصيات من الصحة والفساد ، كما أن المراجع للأخبار والآثار يقطع بأنّ زمان الصادقين عليهم السلام عصر نشر الأحكام كان كذلك ، بل دعوى كون عصر النبي صلى الله عليه وآله كذلك أيضاً قريبة جداً^(٣) .

٢ - صحة التقسيم إلى الصحيح والفاقد :

قال السيد الخوئي «رضوان الله عليه» : إنّ المرتكز في أذهان المتشرعة هو أنّ إطلاق لفظ الصلاة على جميع أفرادها الصحيحة والفاقدة على نسق واحد من دون لحاظ عناية في شيء منها ، ضرورة

(١) مطارح الأنظار : ٧ ، والكفاية : ٢٥ .

(٢) الكفاية : ٢٦ .

(٣) مناهج الوصول ١ : ١٦٦ ، ١٦٧ .

أنهم يستعملون هذا اللفظ في الجميع غافلين عن لحاظ قرينة المجاز والعناية في موارد إطلاقه على الفرد الفاسد ، فلو كان اللفظ موضوعاً لخصوص الصحيح فلا محالة كان إطلاقه على الفاسد محتاجاً إلى لحاظ عناية وقرينة، مع أن الأمر على خلاف ذلك، وأن الاستعمال في الجميع على نسق واحد ، فلا فرق بين قولنا فلان صلى صلاة صحيحة أو تلك الصلاة صحيحة وبين قولنا فلان صلى صلاة فاسدة أو هذه الصلاة فاسدة وهكذا ، وحيث إن استعمالات المشرعة تابعة للاستعمالات الشرعية ، فتكشف تلك عن عموم المعنى الموضوع له عند الشارع المقدس أيضاً^(١).

٣- عدم صحة السلب عن الفاسد :

إن من اخترع شيئاً مركباً من أجزاء ووضع له اسماً يطلق عليه هذا الاسم ولو انتفى بعض أجزائه، ولا يصح السلب عنه في العرف . ولو لم يعلم كيفية الوضع^(٢).

٤- طريقة العقلاء المخترعين للأشياء :

قال الإمام الخميني «رضوان الله عليه» : إن طريقة الواضع من مخترعاته هو وضع اللفظ بإزاء نفس الطبيعة بما هي ، فمن صنع السيارة مثلاً ، وأراد تسميتها باسم أشار إلى الشخص المصنوع الموجود بين يديه وسماه باسم، لا بما أنه اسم لشخص خاص في زمان ومكان خاصين، وغير ذلك من الشخصيات، بل يشير بالتوجه إليه إلى نفس

(١) المحاضرات ١ : ١٧٩ .

(٢) مطارح الأنتظار : ١٥ .

الجامع من غير لحاظ الخصوصيات من الصحة والفساد^(١).

أدلة القول بالصحيح :

١- التبادر ودعوى أنَّ المنسب إلى الأذهان منها هو الصحيح^(٢).

واستشكل فيه الإمام الخميني «رضوان الله عليه» بقوله : قد تمسك كل من الصحيح والصحيح والأعمى بالتبادر ولكن دعواه للصحيح محل إشكال ، لأنَّ معنى التبادر هو فهم المعنى من اللفظ ، ولا يمكن أن يتبادر منه أمر زائد عن الموضوع له من اللوازم الذهنية أو الخارجية للمعنى لعدم كونها معناه ، نعم بعد تبادر نفس المعنى ينتقل الذهن إلى لوازمه ولوازم لوازمه ، وقد ينتقل الذهن بواسطة جهات وأنس ذهني من المعنى إلى مصاديقه ولوازمها الوجودية بل إلى عوارضها الاتفاقية أحياناً ، فإذا كان الموضوع له للفظ الصلاة مثلاً ماهية بسيطة مجهولة إلا ببعض العناوين المتأخرة عن الموضوع له ؛ كالناهية عن الفحشاء ومعراج المؤمن وغيرهما ، فلا بد لمدعي التبادر أن يدعي تبادر نفس المعنى من اللفظ مقدماً على فهم تلك العناوين ، سواء كانت من لوازم الماهية أو عوارض الوجود ، فإنَّ النهي عن الفحشاء وغيره مما ذكر ليس من لوازم الماهية بالبدهة ، ولا يمكن أن يكون من آثار نفسها لعدم كونها منشأ للأثر ، وإنما تلك الآثار من وجودها الخارجي كما أنَّ الصحة والفساد من عوارضها الخارجية أي عوارض وجودها ، فحينئذٍ يكون انتقال الذهن من لفظ الصلاة إلى ذات الموضوع له أولاً ، وإلى مصاديقه ثانياً لأجل أنس الذهن ، وإلى الصحة ثالثاً بواسطة الارتكاز العقلائي ، وإلى تلك العناوين بعد معرفية الشارع في الرتبة المتأخرة عن تبادر المعنى

(١) مناهج الوصول ١ : ١٦٦ .

(٢) الكفاية : ٢٩ .

الموضوع له ، فلا يمكن أن تكون تلك العناوين مطلقاً معرّفة للمعنى لتصحيح التبادر ، فدعوى التبادر للصحيحي ممّا لا مصحح معقول لها ، ومنشؤه الخلط بين تبادر المعنى الذي لا يتصف بالصحة والفساد في مرتبة ذاته وماهيته ، وبين فهم الأمور الخارجية عن فهم المعنى ممّا هو من عوارض المصاديق لأجل أنس الذهن^(١) .

٢ - صحة السلب عن الفاسد بسبب الإخلال ببعض أجزائه أو شرائطه بالمداقة وإن صح الإطلاق عليه بالعناية^(٢) .

وقد يشكّل فيه بأنه لا يصحّ السلب عن الفاسد لجواز تكذيب من أخبر بأنّ زيداً لا يصلّي إذا كانت صلاته فاسدة^(٣) .

٣ - ظواهر جملة من الآيات والأخبار الواردة في مقام بيان خواصّ العبادات وآثارها كقوله تعالى : ﴿ إِنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾^(٤) ، وقوله ﷺ : « الصلاة عماد دينكم »^(٥) ونحوهما ، بتقريب أنه لا شكّ في أنّ هذه الآثار آثار لخصوص الأفراد الصحيحة لا الأعمّ ، وحيث إنّ كان الموضوع له للفظ الصلاة مثلاً هو الأعمّ ؛ كان الموضوع في القضية ملحوظاً بنحو الإهمال ، وإن كان الموضوع له لخصوص الصحيح ؛ كان الموضوع ملحوظاً بنحو العموم والسعة ، وحيث إنّ ظاهر تعليق الحكم على الطبيعة المحلاة باللام هو كون الطبيعة بوجودها السعي موضوعاً للحكم ، فاللازم منه كون الموضوع له للألفاظ خصوص الصحيح^(٦) .

(١) مناهج الوصول ١ : ١٦٢ - ١٦٤ .

(٢) مطارح الأنظار : ١٣ ، والكفاية : ٢٩ ، ونهاية الأصول : ٥٢ .

(٣) مطارح الأنظار : ١٢ .

(٤) العنكبوت : ٤٥ .

(٥) الوسائل ٢ : ٦٠٥ ، كتاب الطهارة ، الباب ١ من أبواب الاستحاضة ح ٥ .

(٦) مطارح الأنظار : ١٣ ، والكفاية : ٢٩ ، ونهاية الأصول : ٥٢ .

وقد يشكل فيه بأنّ ذلك مبني على أن يكون تلك الخطابات واردة في مقام بيان أحكام تلك العبادات على وجه الإطلاق مع أنه ليس كذلك^(١).

٤ - الأخبار الظاهرة في نفي الماهية والطبيعة بمجرد فقد بعض الأجزاء أو الشرائط مثل قوله عليه السلام: «لا صلاة إلا بطهور»^(٢) ونحوه^(٣).

وقد يشكل فيه بأنّ الأعمى أيضاً يلتزم بأنّ بعض الأجزاء والشرائط دخیل في صدق الحقيقة، والمهم، اثبات نفي الحقيقة بانتفاء أي جزء أو شرط، ولو كان من الأجزاء أو الشرائط غير الدخيلة عرفاً في صدق المسمّى، وأتّى لكم بإثباته؟^(٤).

٥ - دعوى القطع بأنّ طريقة الواضعين وضع الألفاظ للمركبات التامة، كما هو قضية الحكمة الداعية إليه، والحاجة وإن دعت أحياناً إلى استعمالها في الناقص أيضاً، إلا أنه لا يقتضي أن يكون بنحو الحقيقة، والظاهر أنّ الشارع غير متخطّ عن هذه الطريقة^(٥).

البحث في المعاملات :

إنّ المعروف عدم جريان النزاع في المعاملات بناء على وضعها للمسببات، لأنّ الأمر فيها دائر بين الوجود والعدم، لا الصحة والفساد لأنهما أمران عارضان على الماهية بعد وجودها أو على وجودها، وماهيات المعاملات أمور اعتبارية متقومة به، فالشرع إمّا موافق للعرف فيها، فتكون المعاملة العرفية بعد اجتماع شرائط تحققها محققة معتبرة

(١) مطارح الأنظار : ١٣ .

(٢) الوسائل ١ : ٢٥٦، والكفاية : ٢٩، الباب ١ من أبواب الوضوء ج ١، ٦ .

(٣) الكفاية : ٢٩، ونهاية الأصول : ٥٣ .

(٤) نهاية الأصول : ٥٣ .

(٥) مطارح الأنظار : ١١، والكفاية : ٣٠ .

عرفاً وشرعاً ، وعند عدم اجتماعها غير محققة ولا معتبرة ، فلا معنى للفساد فيها ، وإما مخالف له كما في نكاح بعض المحارم والبيع الربوي فيرجع مخالفته إلى عدم اعتباره لها ، فإن نفي الآثار مع اعتبار الموضوع ممّا لا مجال له للزوم اللغوية باعتبار ما لا أثر له بوجه ، ولو سلّم جوازه فمخالف لارتكاز المتشريعة ، لأن نكاح المحارم غير واقع ولا مؤثر رأساً عندهم كالبيع الربوي ، فيدور أمر المعاملات المسبّبة بين الوجود والعدم لا الصحة والفساد .

وأما بناء على وضعها للأسباب فيجري النزاع فيها كالعبادات^(١) .

ثمرة النزاع وتطبيقات القاعدة :

١ - التمسك بالإطلاق وعدمه عند الشك في جزئية شيء ، أو شرطية في الأمور به في العبادات ، بتقريب أنه على القول بالصحيح يكون الخطاب مجملاً ، ولا يمكن التمسك بالإطلاق ، لاحتمال دخوله في المسمّى ، وعلى القول بالأعمّ يمكن التمسك بالإطلاق لعدم دخله في المسمّى^(٢) .

٢ - ما اشتهر من أنّ الأعمى يتمسك بالبراءة ، فيما إذا شك في جزئية شيء أو شرطيته دون الصحيح ، لعدم الإجمال في الأمور به على الصحيح ، وإنما الإجمال فيما يتحقق به وفي مثله لا مجال للبراءة^(٣) . وقد نوقش في هذه الثمرة بمناقشات تفصيلها موكول إلى محلّه^(٤) .

(١) الكفاية : ٣٢ ، ٣٣ ، ومناهج الوصول ١ : ١٦٩ ، ١٧٠ .

(٢) الكفاية : ٢٨ ، ومناهج الوصول ١ : ١٦١ ، ١٦٢ .

(٣) الكفاية : ٢٥ ، ٢٨ ، ومناهج الوصول ١ : ١٦٠ ، والمحاضرات ١ : ١٧٩ ، وفوائد الأصول ١ : ٧٩ .

(٤) الكفاية : ٢٥ ، والمحاضرات ١ : ١٧٩ - ١٨٢ .

الطاعة والثورة في النهج السياسي للإمام الحسين عليه السلام (٢)

✽ الدكتور أحمد عبدالمعيد مهود (استراليا)

الطاعة والولاء في فكر آل الحسين عليه السلام وأصحابه :
ويستجيب لنداء الإمام الحسين عليه السلام ولده علي الأكبر فيقول : «يا
أبتي ، لا أراك الله سوءً ، ألسنا على الحق ؟ قال : بلى ، والذي إليه
مرجع العباد قال : يا أبتي ! إذا ، لا نبالي نموت محققين ، فقال له : جزاك الله
من ولد خير ما جزئ ولداً عن والده^(١) .

وتهتز أركان أصحاب الإمام الحسين عليه السلام لهذا النداء فيجاوب زهير بن
القين البجلي باسمه وباسم أصحابه قائلاً : «قد سمعنا - هداك الله - يا ابن
رسول الله مقاتلك ؛ والله لو كانت الدنيا لنا باقية ، وكنا فيها مخلصين ، إلا

(١) الطبري ، تاريخ الطبري ٥ : ٤٠٤ .

أن فراقها في نصرك ومواساتك ، لآثرنا الخروج معك على الإقامة فيها»^(١).

وعندما أذن الإمام الحسين عليه السلام لأهله وأصحابه بالإنصراف وأن ينطلقوا جميعاً في حلٍّ وأن يتفرقوا في سوادهم ومدائنهم حتى يفرج الله لأن القوم إنما يطلبونه . وهم لو قد أصابوه لهواً عن طلب غيره . فقال له إخوته وأبنائوه ، وبنو أخيه ، وإبنا عبدالله بن جعفر : لِمَ نفعل لنبقى بعدك . لا أرانا الله ذلك أبداً . وقد بدأهم بهذا القول العباس بن علي عليه السلام ثم إنهم تكلموا بهذا ونحوه . أما بنو عقيل . فقالوا : لا والله ! لا نفعل ، ولكن نفديك أنفسنا وأموالنا ، وأهلونا ونقاتل معك حتى نرد موردك ؛ فقبح الله العيش بعدك^(٢).

أضحكني الدهر وأبكاني والدهر ذو صرفٍ وألوان
يا لهف نفسي وهي النفس لا تنفك من هم وأحزان
على أناسٍ قتلوا تسعة بالطف أمسوا رهن أكفان
وستة ما إن أرى مثلهم بني عقيل خير فرسان^(٣)

أما مسلم بن عوسجة الأسدي ، فقال : أنحن نخلي عنك ، ولما نعدز إلى الله في أداء حقك ! أما والله ! حتى أكسر في صدورهم رمحي ، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي ، ولا أفارقك ، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقدفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك .

(١) م. ن. ٤٠٤ : ٥ .

(٢) م. ن. ٤١٩ : ٥ .

(٣) قال هذه الأبيات المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبدالمطلب ، (البلاذري ، أنساب الأشراف ٣ :

وقال سعيد بن عبد الله الحنفي: والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا حفظنا غيبة رسول الله ﷺ فيك، والله لو علمت أنني أقتل، ثم أحيأ، ثم أحرق حيأً، ثم أذّر، يفعل ذلك بي سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك؛ فكيف، لا أفعل ذلك! وإنما هي قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا إنقضاء لها أبداً^(١).

ثم تكلم زهير بن القين، فقال: والله لو ددت أنني قتلت ثم نشرت، ثم قتلت ثم أقتل كذا ألف قتلة، وأن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك. وتكلم جماعة من أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضاً في وجه واحد، فقالوا: والله! لا نفارقك، ولكن أنفسنا لك الفداء، نفيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا، فإذا نحن قتلنا كنّا وقينا وقضينا ما علينا^(٢).

فتية آمنوا بربهم، فاستحبوا الشهادة على الحياة في سبيل الدفاع عن إمامهم، فذابوا في حب الإمام الحسين عليه السلام. كيف لا! ورسول الله ﷺ يقول: «أحب الله من أحب حسيناً»^(٣). ورفضوا البقاء بعده لأن ذلك أشد عليهم ألماً وحزناً، فاختاروا القتل، والذبح، وقطع الرؤوس، والأوصال لكي يستشهدوا قريري الأعين أمامه.

كان يمكن لأهل الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه أن يتركوه، وقد أذن لهم بالإنصراف. لكن كلام الله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(٤)

(١) الطبري، تاريخ الطبري ٤١٩: ٥.

(٢) ن. م ٤١٩: ٥ - ٤٢٠.

(٣) ابن ماجه، سنن ابن ماجه، ٥١: ١، المفيد، الإرشاد: ٢٤٩.

(٤) الشورى: ٢٣.

يأخذ بنفوسهم «والله لآنخليك حتى يعلم الله أنا حفظنا غيبة رسول الله ﷺ فيه» فعملوا بطاعة الله ، وطاعة رسوله ، وأظهروا من خلال مسلكيتهم بأن حب آل الرسول ﷺ يفضي إلى أعلى درجة حب لله ، وأن حبهم يحث على عمل الخير من أجل الخير^(١).

إن زهير بن القين وأصحابه يرون بأنه لو كانت الدنيا لهم باقية وكانوا فيها من المخلّدين ؛ لقدموا أنفسهم طاعة لله في سبيل نصره الإمام الحسين عليه السلام ، وواسوه بأنفسهم ، فكيف ، ولم يبق منها إلا صباية كصباية الإناء ، وخسيس عيش كالمرعى الويل ؟

فأنعم بهم من أهل وأصحاب وأكرم بها من طاعة . فهل أظلت الخضراء أو أقلت الغبراء أصحاباً أولى أو خيراً من أصحاب الإمام الحسين عليه السلام ؟ أو أهل بيت أبر أو أوصل من أهل بيته ؟ فهذا هو سلام الله عليه يعلنها شهادة للأولين والآخرين ، ويسطرها مرصعة على جبين التاريخ «فإني لأعلم أصحاباً أولى ، ولا خيراً من أصحابي ، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي»^(٢).

وقد جاء عن الحسن البصري أنه قال : ما كان على وجه الأرض يومئذٍ لهم شبيه^(٣) وعليهم تترقرق عينا الإمام الحسين عليه السلام ولم يملك دمه ، عندما سمع أن الحصين بن تميم أخذ قيس بن مسهر الصيداوي وقد أمر به ابن زياد فألقى من طمار القصر بعد أن صلى على الحسين وأبيه ، ولعن ابن زياد وأباه ، ودعا إلى نصرته الإمام الحسين عليه السلام ، فقال عليه السلام : «فمنهم من

(١) shaheed hasan safipuri orkile; why? karbala; o.g; ja'fari observer.

(٢) الطبري، تاريخ الطبري ٥ : ١٨٤ .

(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ٥ : ١٢٢ ، ابن حجر ، الصواعق المحرقة : ٣٠٠ .

قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً^(١) اللهم أجعل لنا ولهم الجنة نزلاً ،
 واجمع بيننا وبينهم في مستقر رحمتك ، ورغائب مذكور ثوابك^(٢) .

إن الإمام الحسين عليه السلام سكب من روحه الطاهرة في أرواح أهل بيته
وأصحابه كل القيم الأخلاقية والإنسانية . فلهذا - وبمُلْ إرادتهم - شاطروا
الإمام الحسين عليه السلام آلامه وأحزانه ، وما حلّ عليه من مصائب . أما يزيد
وعبيد الله بن زياد فقد اشتريا طاعة الناس ، واستمالا ودّهم ، واستخلصا
نصيحتهم بالرشوة ، حتى ملئت غرائزهم^(٣) وزادا لهم بالعطاء ، حتى
يخرجوا لقتال الإمام الحسين عليه السلام ويلتزموا بالسمع والطاعة ليزيد^(٤) .

وإذا أردت أن تعرف ذلك أكثر ، فإنّه لما جاء مالك بن النّسير البدي
برسالة عبيد الله بن زياد إلى الحرّ بن يزيد الرياحي ليجعجع بالإمام
الحسين عليه السلام قال له يزيد بن زياد بن المهاجر أبو الشعثاء الكندي^(٥) : ثكلتك
أمك ! ماذا جئت فيه ؟ قال : وما جئت فيه ! أطعت إمامي ، ووفيت ببيعتي ،
فقال له أبو الشعثاء : عصيت ربك ، وأطعت إمامك في هلاك نفسك ،
كسبت العار والنار ، قال الله عز وجل : ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم
القيامة لا ينصرون ﴾^(٦) .

أما زهير بن القين ، فقد طلب من أهل الكوفة أن ينصروا الإمام
الحسين عليه السلام لأنّه أحق بالودّ والولاء والنصر من الطاغية عبيد الله بن زياد ،

(١) الأحزاب : ٢٣ .

(٢) الطبري ، تاريخ الطبري ٤٠٥ : ٥ .

(٣) م . ن . ٤٠٥ : ٥ .

(٤) المجلسي ، بحار الأنوار ٣٨٥ : ٤٤ .

(٥) الطبري ، تاريخ الطبري ٤٠٨ : ٥ .

(٦) القصص : ٤١ .

لأن المسلمين لم يدركوا منه ومن أبيه إلا سوء الحكم، والقتل والتشريد، وسمل الأعين، وقطع الأيدي والأرجل، والتمثيل، ورفعهم على جذوع النخل، وقتل أمثالهم، والقراء^(١). وردّ على شمر بن الجوشن عندما خوّفه بالموت بقوله: «فو الله للموت معه أحبّ إليّ من الخلد معكم»^(٢).

أما الحر بن يزيد الرياحي، فقد وضع نفسه في موقع محنة وإختيار، فأما الجنة المتمثلة بطاعة الإمام الحسين عليه السلام وإما النار المتمثلة بطاعة عبيد الله بن زياد^(٣). إنّ أخذ هذا القرار الحاسم للحرّ، وفي هذا الموقف بالذات الذي سيؤدي به إلى القتل جعله في أعلى قائمة الأحرار الحسينية حيث إستحق وسام الحرية في الدنيا والآخرة، ذلك الوسام الذي قلّده إياه خليفة الله في أرضه، وخليفة رسوله صلى الله عليه وآله الإمام الحسين عليه السلام فقال له: «أنت الحرّ كما سمكت أمك، أنت الحرّ إن شاء الله في الدنيا والآخرة»^(٤) وهل يأخذ مثل هذه المواقف إلا الأحرار!

لنعم الحر حر بني رياح وحر عند مختلف الرّماح^(٥)

أمّا عبيد الله بن عمير من بني عليم فما إن رأى القوم بالنخيلة قد اجتمعوا على قتال الإمام الحسين عليه السلام حتى أعلن الجهاد على خط الإمام الحسين عليه السلام من دون تردّد أو تساؤل ودخل المعركة من أوسع أبوابها معلناً ومؤمناً بأنّ نصرة الإمام الحسين عليه السلام إنّما هي طاعة لله والإيمان به، حتّى أن زوجته شجعتة على ذلك من ناحيتين: الإصابة في الرأى،

(١) الطبري، تاريخ الطبري ٤٢٦:٥.

(٢) م. ن ٤٢٧:٥.

(٣) م. ن ٤٢٨:٥.

(٤) الدينوري، الأخبار الطوال: ٢٥٦. الطبري، تاريخ الطبري ٤٢٨:٥.

(٥) البلاذري، أنساب الأشراف ١٨٩:٣.

فقالت له : «أصبت أصاب الله بك أرشد أمورك» ، واندفاعها إلى قلب المعركة وهي تشدّ من عزيمته وتقوي من معنويته ، فقالت له : «فذاك أبي وأمي ، قاتل دون الطيّبين ، ذرية محمد» فأجابها وهو يرتجز :

إن تنكروني فأنا ابن كلب حسبي بيتي في غليم حسبي
إنني امرء ذو مرة وعصب ولست بالخوار عند النكب
إنسي زعيم لك أم وهب بالطعن فيهم مقدما والضرب
ضرب غلام مؤمن بالرّب

ولم تكثف بذلك بل أعلنت الجهاد ، وطلبت الشهادة ، وأخذت تجاذب ثوب زوجها ، وتتعلق به ، وهي تقول : «إلي لن أدعك دون أن أموت معك»^(١) ، ولما استشهد زوجها جلست عند رأسه ، تمسح عنه التراب ، وشاء الله لها أن تلحقه على الأثر بعدما ضربها رستم غلام شمر بن ذي الجوشن على رأسها بالعمود فشدخه ، فماتت مكانها^(٢) .

ولما قعد برير بن حضير على صدر رضي بن منقذ العبدى ، قال رضي : أين أهل المصاع - أي المجادلة والدفاع^(٣) ؟ فحمل كعب بن جابر بن عمرو الأزدي على برير لينقذ رضي وقتله . قالت له امرأته أو أخته النّوّار بنت جابر : أعنت على ابن فاطمة ، وقتلت سيدّ القراء ، لقد أتيت عظيماً من الأمر ، والله لا أكلّمك من رأسي كلمة أبداً ، وقال كعب بن جابر^(٤) :

(١) الطبري، تاريخ الطبري ٥ : ٤٢٩ - ٤٣٠. البلاذري، أنساب الأشراف ٣ : ١٩٠ .

(٢) م . ن ٥ : ٤٣٨ .

(٣) م . ن ٥ : ٤٣٢ . البلاذري، أنساب الأشراف ٣ : ١٩١ .

(٤) م . ن ٥ : ٤٣٣ . البلاذري، أنساب الأشراف ٣ : ١٩٢ .

سلي تخبري عني، وأنت ذميمة غداة الحسين، والزّماح شوارع
ألم آتِ أقصى ما كرهتِ ولم يخل عليّ غداة الزّرع ما أنا صانع
معني يزني لم تخنه كعوبه وأبيض مخشوب الغرارين قاطع
فجردته في عصابة ليس دينهم بديني وإنني بابن حرب لقانع
ولم ترَ عيني مثلهم في زمانهم ولا قبلهم في الناس إذ أنا يافع
أشدّ قراعاً بالسيوف لدى الوغى ألا كل من يحمي الذمار مقارع
وقد صبروا للطعن، والضرب حسراً وقد نازلوا لو أن ذلك نافع
فابلغ عبيد الله إمّا لقيته بأنني مطيع للخليفة سامع
قتلت بريراً ثم حملت نعمة أباً مقتدٍ لما دعا من يماصع
يلاحظ من هذه القصيدة أن كعب بن جابر يعلن جهاراً بأن خليفته
يزيد، وهو مقتنع به وبسياسته، ومطيع لأوامره وسامع له.

﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها
وماله في الآخرة من نصيب﴾ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله
ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم وإنّ الظالمين لهم عذاب أليم﴿^(١). ويعترف بأنه
يقاتل عصابة مسلمة مؤمنة لم ترعينه مثلهم في زمانه، ولم يسمع بمثلهم
في الناس قبلهم أشدّ قراعاً بالسيوف لدى الوغى، واصبر للطعن
والضرب في الدفاع عن عقيدتهم، ودينهم الذي يخالفهم فيه، وقاتلهم
دون الإمام الحسين عليه السلام. مما دعا عمرو بن الحجاج الزبيدي الذي كان
على ميمنة عمر بن سعد^(٢) أن يأمر الجنود أن لا يبرزنّ لهم منهم أحد
لأنّهم يقاتلون نقاوة فرسان أهل مصر وقوماً معتقين مستقتلين،

(١) الشوري: ٢٠-٢١.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف ٣: ١٨٧.

مستमितين^(١).

وردّ رضي بن منقذ العبدي على كعب بن جابر جواب قوله ، فقال^(٢) :
لو شاء ربّي ما شهدت قتالهم ولا جعل النعماء عندي ابن جابر
لقد كان ذاك اليوم عاراً وسبّة يعيّره الأبناء بعد المعاشر
فيا ليت أني كنت من قبل قتله ويوم حسين كنت في رمس قابر
وعندم سمع الإمام الحسين عليه السلام عمرو بن الحجاج حين دنا من
أصحابه يقول لأهل الكوفة أن يلزموا طاعتهم وجماعتهم وأن لا يخالفوا
إمامهم - يعني يزيداً - ويحرّضهم على قتاله وقاتل صحبه ، قال له : يا
عمرو بن الحجاج ! أعلّي تحرّض لناس ؟ ثم إنه عليه السلام أنذرهم بأن مصيرهم
إلى النار إذا قبضت أرواحهم وماتوا على ما هم عليه من طاعتهم لإمامهم
الجائر يزيد بن معاوية ، ومخالفتهم للعقيدة الإسلامية ، ومروقهم من
الدين : «أما والله لتعلمن لو قد قبضت أرواحكم ومتم على أعمالكم ، أينا
مرق من الدين ، ومن هو أولى بصلي النار»^(٣).

إنّ كلّ الشواهد والدلائل تشير على أن قتال أتباع يزيد بن معاوية
وعبيد الله بن زياد لم يكن إلّا إرضاءً لأمرائهم وطمعاً في عطاياهم^(٤)
إيثاراً للسهة العاجل على الخير الآجل^(٥).

فقد جاء عن حمزة بن المغيرة بن شعبة ابن أخت عمر بن سعد أنه قال
له : يا خال ! إن سرت إلى الحسين أثمت ربك وقطعت رحمك . فوالله ! لأن

(١) م. ن. ٣ : ١٩٢ .

(٢) الطبري، تاريخ الطبري ٥ : ٤٣٣ .

(٣) م. ن. ٥ : ٤٤٢ .

(٤) م. ن. ٥ : ٤٣٦ و ٤٤٠ .

(٥) ابن حجر، الصواعق المحرقة : ٢٩٨ .

تخرج من دنياك ومالك خير من أن تلقى الله بدم الحسين^(١).

ويؤيد ذلك أيضاً قول الناس لسنان بن أنس : قتلت حسين بن علي وإبن فاطمة ابنة رسول الله ﷺ . قتلت أعظم العرب خطراً . فأت أمراءك فاطلب ثوابك منهم ، لو أعطوك بيوت أموالهم في قتل الحسين كان قليلاً . فأقبل على فرسه حتى وقف على باب فسطاط عمر بن سعد ، ثم نادى بأعلى صوته^(٢) :

أوقر ركابي فضة أو ذهباً أنا قتلت الملك المحجبا
قتلت خير الناس أمّاً وأباً وخيرهم إذ ينسبون نسباً
أضف إلى ذلك أنّ النّوّار بنت مالك قالت لزوجها خولي بن يزيد
الأصبحي حينما أقبل برأس الحسين^(٣) ووضعته تحت إجانة في داره :
ويلك ! جاء الناس بالذهب والفضة ، وجئت برأس ابن رسول الله ﷺ لا
والله ! لا يجمع رأسي ورأسك بيت أبداً^(٣) .

إلى هذه الحال إنتهت الناس حين عصوا الله ورسوله ورفضوا طاعة
من فرض الله عليهم طاعته ، وفارقوا دينهم ، وألقوا بأنفسهم بين يدي
طاعة يزيد وولاته مع أنهم كانوا يعيشون في ظل الخوف ، والجور
والخطر ، ويتحرقون شوقاً إلى الأمن والعدل ، والعافية ، وإصلاح النظام
السياسي والاجتماعي .

وبعد هذا كله ، تعال واركب معي في سفينة نجاة الإمام الحسين^(٤) -
جعلنا الله من أهلها - لنشاهد آل الحسين^(٥) وأصحاب الحسين^(٦)

(١) البلاذري، أنساب الأشراف ٣ : ١٧٧ .

(٢) الطبري، تاريخ الطبري ٥ : ٤٥٤ .

(٣) م . ن . ٥ : ٤٥٥ .

كيف آثروا طاعته على الحياة الدنيا وما فيها إرضاءً لله ولرسوله وإيماناً
بإمامهم الحسين عليه السلام .

وهذا كما ترى ، يتقدم أصحاب الحسين عليه السلام واحداً تلو الآخر ، فهذا ،
الحر بن يزيد الرياحي ينزل إلى المعركة وهو يرتجز^(١) :

إني أنا الحرّ ومأوى الضيف أضرب في أعراضكم بالسيف
ضرب غلام لم يخف من حيف أنصر من حلّ بأرض الخيف
وهذا مسلم بن عوسجة قل أن يلتحق بربّه شهيداً لم تكن وصيته إلى
حبيب بن مظاهر إلّا أن يموت دون الإمام الحسين عليه السلام وينقذ حبيب بن
مظاهر الوصية من دون قيد أو شرط ، فقال : أفعل وربّ الكعبة . فقاتل
أمام إمامه الحسين عليه السلام وجعل يقول^(٢) :

أنا حبيب وأبي مظاهر فارس هيجاء وحرب تسعر
أنتم أعدّ عدّة وأكثر ونحن أوفى منكم وأصبر
ونحن أعلى حجة وأظهر حقاً وأتقى منكم وأعذر
وهذا أبو ثمامة عمرو بن عبد الله الصائدي يقول للإمام الحسين عليه السلام :
«ولا والله لا تقتل حتى أقتل دونك إن شاء الله»^(٣) .

وهكذا يتهافتون على القتال بين يدي أبي عبد الله عليه السلام وهم يرتجزون .
فمن أرجوزة عون بن عبد الله بن جعفر^(٤) :

أقسمت لا أدخل إلّا الجنة موالياً لأحمد والسنة

(١) أبو مخنف، مقتل الحسين : ١٢٣. الطبري، تاريخ الطبري ٥ : ٤٤١. البلاذري، أنساب الأشراف ٣ : ١٩٥ .

(٢) الطبري، تاريخ الطبري ٥ : ٤٣٦ و ٤٣٩ .

(٣) م . ن . ٥ : ٤٣٩ .

(٤) أبو مخنف، مقتل الحسين : ١١٤ .

وأرجوزة جابر بن عروة الغفاري^(١) :

قد علمت حقاً بنو غفار وخندق ثم بنو نزار
بنصرنا لأحمد المختار يا قوم حاموا عن بني الأطهار
الطيبين السادة الأخيار صلى عليهم فالق الأبرار
وأرجوزة موسى بن عقيل^(٢) :

يا معشر الكهول والشبان أضربكم بالسيف والسنان
أحمي عن الفتية والنسوان وعن إمام الإنس ثم الجان
أرضي بذلك خالق الإنسان سبحانه ذو الملك الديان
وأرجوزة أحمد بن محمد الهاشمي^(٣) :

اليوم أتلو حسبي وديني بصارم تحمله يميني
أحمي به عن سيدي وديني ابن علي الطاهر الأمين
ومن أرجوزة عمير بن المطاع^(٤) :

دون الحسين الضرب والصراع صلى عليه الله الملك المطاع
ومن أرجوزة يحيى بن كثير الأنصاري^(٥) :

خانوا حسيناً والحوادث جمّة ورضوا يزيداً والرضا في النار
وأرجوزة عمرو بن قرظة الأنصاري^(٦) :

قد علمت كتيبة الأنصار أني سأحمي حوزة الذمار

(١) م. ن. : ١١٥ .

(٢) م. ن. : ١١٦ .

(٣) م. ن. : ١١٧ .

(٤) م. ن. : ١١١ و ١١٢ .

(٥) م. ن. : ١٠٨ .

(٦) الطبري، تاريخ الطبري ٥ : ٤٣٤. البلاذري، أنساب الأشراف ٢ : ١٩٢ .

ضرب غلام غير نكس شاري دون حسين مهجتي وداري
وأرجوزة يزيد بن مظاهر الأسدي^(١):

أنا يزيد وأبي مظاهر أشجع من ليث الشري مبادر
والطعن عندي للطغاة حاضر يارب إنني للحسين ناصر
ولابن هند تارك وهاجر وفي يميني صارم وباتر
وأرجوزة زهير بن القين^(٢):

أنا زهير بن القين أذودهم بالسيف عن حسين
وأخذ يضرب على منكب الحسين عليه السلام ويقول:

أقدم هديت هادياً مهدياً فالיום تلقى جدك النبيّاً
وحسناً والمرضى عليّاً وذا الجناحين الفتى الكميتاً
وأسد الله الشهيد الحيّاً

ويتنافس أصحاب الإمام الحسين عليه السلام في الشهادة بين يديه . فيتقدم
عبدالله ، وعبد الرحمن إبنا عذرة الغفاريان ليدافعا عنه ، ويمنعاه
بأنفسهما ، وأحدهما يقول^(٣):

قد علمت حقاً بنو غفار وخندق بعد بني نزار
لنضربن معشر الفجار بكل عضب صارم بتار
يا قوم ذودوا عن بني الأحرار بالمشرفي والقنا الخطار
وجاءه الفتيان الجابريان ، سيف بن الحارث بن سريع ، ومالك بن عبد
ابن سريع ، وهما يبكيان ، فقال : أي ابني أخي ! ما يبكيكما . فوالله ! إنني

(١) أبو مخنف، مقتل الحسين : ١٠٧ .

(٢) الطبري، تاريخ الطبري ٤٤١ : ٥ . البلاذري، أنساب الأشراف ١٩٦ : ٣ .

(٣) م . ن . ٥ : ٤٤٢ - ٤٤٣ .

لأرجوا أن تكونا عن ساعة قريري عينٍ ، قالوا : جعلنا الله فداك ! لا والله ! ما على أنفسنا نبكي ، ولكننا نبكي عليك ، نراك قد أحيط بك ، ولا نقدر على أن نمنعك ، فقال : جزاكم الله يا ابني أخي بوجدكما من ذلك ، ومواساتكما إياي بأنفسكما أحسن جزاء المتقين (١) :

أرأيت أجمل من هذه المواساة لقد نسيا أنفسهما ، فلا على أنفسهما يبكيان بل على سبط رسول الله ﷺ الذي سيكون بعد ساعة وحيداً فريداً ، لاناصرياً ولا معيناً ، وهو ينادي : أما من مغيثٍ يغيثنا ، أما من ذاب يذب عن حرم رسول الله ﷺ (٢) .

وجاء حنظلة بن سعد الشبامي ، فقام بين يدي الإمام الحسين عليه السلام وأخذ يتلو هذه الآيات من كتاب الله العزيز الحكيم : ﴿ يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ﴾ مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظمأ للعباد ﴾ ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد ﴾ يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضل الله فما له من هادٍ (٣) . ثم قال : « يا قوم تقتلون حسيناً فيسحتكم الله بعذاب » ﴿ وقد خاب من افترى ﴾ (٤) .

إن حنظلة بن سعد الشبامي من خلال تلاوته لهذه الآيات يحاول أن ينقل إلى أذهان القوم ما حصل للقوم الظالمين الذين وقفوا في وجه الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين وفي سبيل دعوتهم ، وما سيحصل لهم بسبب مواجهتهم للإمام الحسين عليه السلام ، وقتالهم إياه وما سيترتب على ذلك

(١) م. ن. ٥ : ٤٤٢ - ٤٤٣ .

(٢) المجلسي ، بحار الأنوار ٤٥ : ٨ .

(٣) غافر : ٣٠ - ٣٣ .

(٤) طه : ٦١ .

من آثار في الدنيا والآخرة علّهم بذلك يخافون ويرتدعون . لكن طاعتهم ليزيد التي كان فيها هلاك أنفسهم ورودهم إلى النار^(١) قد أخذت عليهم كل مأخذ ﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله﴾^(٢).

فقال له الإمام الحسين عليه السلام : «يا ابن سعد رحمك الله ، إنهم قد استوجبوا العذاب حين ردّوا عليك ما دعوتهم إليه من الحق ونهضوا إليك ليستبيحوك وأصحابك ، فكيف بهم وقد قتلوا إخوانك الصالحين ؟ قال : صدقت ، جعلت فداك ! أنت أفقه مني ، وأحقّ بذلك ، افلا نروح إلى الآخرة ، ونلحق بإخواننا ؟» .

فقال : رح إلى خير من الدنيا وما فيها ، وإلى ملك لا يبلى ، فقال : السلام عليك يا أبا عبد الله ! صلّى الله عليك وعلى أهل بيتك ، وعرف بيننا وبينك في جنته ، فقال : آمين ، آمين ، فاستقدم ، فقاتل حتى قتل^(٣) فراح إلى جنة الخلد .

﴿إن الذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أولئك أصحاب الجنة خالدون فيها جزاء بما كانوا يعملون^(٤).

ولما جاء عابس بن أبي شبيب الشاكري ، ومعه شوذب مولى شاكري ، سأله ، فقال له : يا شوذب ، مافي نفسك أن تصنع ؟ قال : ما أصنع ! أقاتل معك دون ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله حتى أقتل ، قال : ذلك الظن بك .

واظهر مافي هذا الكلام أن عابس بن أبي شبيب يريد أن يلفت نظر شوذب بأن قتاله يجب أن يكون دفاعاً عن الإمام الحسين عليه السلام لقول رسول

(١) الطبري، تاريخ الطبري ٤٠٨ : ٥ .

(٢) الأحقاف : ٢٦ .

(٣) الطبري، تاريخ الطبري ٤٤٣ : ٥ .

(٤) الأحقاف : ١٣ - ١٤ .

الله ﷺ : «من مات ولا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية» (١).

وإن غاية سروره هو أن يتقدم شؤذب أولاً وآخرأ بين يدي أبي عبد الله ﷺ حتى يحتسبه أبو عبد الله ﷺ كما إحتسب غيره من الأصحاب ، ومن ثمّ يحتسبه عابس لأنّ عابس بن أبي شبيب لم ير أحداً على وجه الأرض من قريب كان أو من بعيد أمسى أعزّ عليه ولا أحبّ من الإمام الحسين ﷺ ... ولو قدر على أن يدفع عنه الضيم والقتل بشيء أعزّ عليه من نفسه ودمه لفعل . وقبل أن يندفع إلى المعركة ، قال : السلام عليك ، يا أبا عبد الله ! أشهد أنّي على هديك ، وهدي أبيك ، فقاتل حتى قتل وكان من أشجع الناس (٢).

والذي يبدو من ملاحظة هذه الرواية أنّ الولاء لأهل البيت كان شائعاً في ذلك الزمن ، وأن هناك من كان يقول بولائهم وبطاعتهم ، وبخلافتهم ، وكذلك نفهم من أرجوزة عبدالرحمن بن عبد الله ابن الكدن (٣).

إنني لمن ينكرني ابن الكدن إني على دين حسين وحسن
وقول نافع بن هلال الجملي وهو يرمي بنباله : «أنا الجملي ، أنا على دين علي» (٤).

أما يزيد بن زياد وهو أبو الشعشاء الكندي فقد أخذ يرمي بين يدي الإمام الحسين ﷺ وهو جاث على ركبتيه ، والإمام الحسين ﷺ يقول : اللهم سدّد رميته ، واجعل ثوابه الجنة ، وكان رجزه يومئذٍ (٥) :

(١) الكليني، الأصول من الكافي ٢ : ٢٠ .

(٢) الطبري، تاريخ الطبري ٥ : ٤٤٣ - ٤٤٤ .

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف ٣ : ١٩٦ .

(٤) الطبري، تاريخ الطبري ٥ : ٤٤١ .

(٥) م . ن . ٥ : ٤٤٥ . البلاذري، أنساب الأشراف ٣ : ١٩٧ .

أنسا يزيد وأبي مهاصر أشجع من ليث بغيل خادر
ياربّي إنني للحسين ناصر ولابن سعد تارك وهاجر
وأما الصيداوي عمر بن خالد، وسعد مولى عمر بن خالد، ومجمع بن
عبدالله العائذي وجابر بن الحارث السلمي، فقاتلوا في أول الأمر حتى
قتلوا في مكان واحد^(١) رضوان الله عليهم أجمعين .

وقفة تأمل مع أصحاب الإمام الحسين عليه السلام :

إنّ كل ما أعتقده أن كلامهم إن دلّ على شيءٍ فإنّما يدلّ على عزمهم
على الشهادة لا خائفين ولا وجلين أمام سيّدهم ، وخليفتهم ، الإمام
الحسين عليه السلام الذي رفض أن يعطي الطاعة ليزيد أو يبايع له ، ولو لم يكن له
ملجأ في الأرض ولا مأوى^(٢) .

والمسألة التي تحتاج هنا إلى بحث واستقصاء هي : هل أنّ أصحاب
الإمام الحسين عليه السلام قاتلوا معه من أجل الجنة ، والطلب لها ، والحرص
عليها ، فقط ، كما جاء في هذه الرواية : «أنّ الله جلا وعلا رفع لأصحابه
منازلهم من الجنة حتى رأوها ، فحاربوا شوقاً إليها ، وطلباً لها ، وحرصاً
عليها؟»^(٣) وإن كان ذلك ليس على الله بعزیز ، فهم والجنة كمن قد رآها
فهم فيها منعمون لعظيم تقواهم وشدة إيمانهم . أم أنّهم قاتلوا مع الإمام
الحسين عليه السلام وحاربوا حباً بالإمام الحسين عليه السلام والتزاماً بطاعته ، المقرونة
بطاعة الله ورسوله ، وهو من أولي الأمر الذين فرض الله على العباد

(١) م . ن . ٥ : ٤٤٦ .

(٢) المجلسي، بحار الأنوار ٤٤ : ٣٩٢ .

(٣) المسعودي، إثبات الوصية : ١٧٨ .

خلافتهم ، وولايتهم ، وطاعتهم^(١) ؟

فلنقف وقفات أمام ما تقدم من كلمات أصحاب الإمام الحسين عليه السلام ولننظر بدقة وأناة وروية فإننا سنلاحظ بأن قتالهم لم يكن فقط شوقاً إلى الجنة ، وطلباً لها ، وحرصاً عليها - وإن كان هذا الشيء لجميلاً - فمن منا لا يشترق إلى الجنة ، ويطلبها ويحرص عليها ؟ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور^(٢) .

إن حالهم وواقعهم يشهد بأن قتالهم كان طاعة لله ، وطلباً لمرضاته . فهذا بشير بن عمرو الحضرمي كان يقاتل وهو يقول :

اليوم يا نفس ألاقي الرحمن واليوم تجزين بكل إحسان
لا تجزعي فكل شيء (قد) فان والصبر أحظى لك عند الديان
ودفاعاً عن الإمام الحسين عليه السلام وحرصاً على بقاء الذرية الطيبة من آل الرسول صلى الله عليه وآله . وهذا حُويّ مولى أبي ذر الغفاري يقاتل بين يدي الحسين عليه السلام وهو يقول^(٣) :

كيف ترى الفجار ضرب الأسود بالسيف صلتاً عن نبي محمد
أذب عنهم باللسان واليد أرجو به الجنة يوم المورد
وحفظاً للخلافة المتسجدة في خط الإمام الحسين عليه السلام فهذا حبيب بن مظاهر يخاطب قرّة بن قيس الحنظلي عندما أرسله عمر بن سعد إلى الإمام الحسين عليه السلام قائلاً : ويحك ! يا قرّة بن سعد ! أنى ترجع إلى القوم الظالمين ! أنصر هذا الرجل الذي بآبائه أيّدك الله بالكرامة ، وإيانا

(١) الكليني، الأصول من الكافي ٢: ١٩٦ .

(٢) آل عمران : ١٨٥ .

(٣) الكليني، الأصول من الكافي ٢: ١٩٦ .

معك» (١).

وهذا زهير بن القين يقول لأصحابه : من أحبّ منكم أن يتبعني وإلاّ فإنه آخر العهد ، إنّي سأحدثكم حديثاً . غزونا بلنجر ، ففتح الله علينا ، وأصبنا غنائم ، فقال لنا سلمان الباهلي : أفرحتم بما فتح الله عليكم ، وأصبتم من الغنائم ؟ فقلنا : نعم ، فقال لنا : إذ أدركتم شباب آل محمد ، فكونوا أشدّ فرحاً بقتالكم معهم منكم بما أصبتم من الغنائم ، فأما أنا ، فإني أستودعكم الله (٢).

وهذا كما ترى - بعد أن صافح التراب جبينهم ، وقطع الحمام أنينهم - لو كان قتالهم من أجل واحدة من هذه الأمور فقط لكان ذلك كفيلاً لهم أن يضعهم في أعلى منازل الجنة ودرجاتها . فكيف إذا كان قتالهم من أجلها جميعاً ؟

وليس أدلّ على ذلك من أرجوزة الإمام الحسين عليه السلام التي قالها في الحرّ بن يزيد الرياحي بعد استشهاديه بأن أصحابه قد فازوا وأفلحوا حين نصرّوه وآزروه (٣).

فنعم الحرّ حرّ بني رياح	صبور عند مشتيك الرّماح
ونعم الحرّ في رهج المنايا	إذا الأبطال تخطر في الصّفاح
ونعم الحرّ إذا واسى حسيناً	فجاد بنفسه عند الصّياح
لقد فاز الأولي نصرّوا حسيناً	وفازوا بالهداية والفلاح

(١) الطبري، تاريخ الطبري ٥ : ٤١١ .

(٢) م . ن . ٥ : ٣٩٧ - ٣٩٧ .

(٣) أبو مخنف، مقتل الحسين : ١٢٤ .

فمن هنا كان لأصحاب الحسين عليه السلام على سائر الشهداء درجة^(١).
 قوم إذا نودوا لدفع ملّة والخيل بين مدّعس ومكر دس
 لبسوا القلوب على الدروع وأقبلوا يتهافتون على ذهاب الأنفس
 بقيت مسألة لا بد من الإشارة إليها هنا، وهو قول ابن عباس:
 بأن أصحاب الإمام الحسين عليه السلام لم ينقصوا رجلاً ولم يزيدوا رجلاً،
 نعرفهم بأسمائهم من قبل شهودهم، وقول أخيه محمد ابن الحنفية، بأن
 أصحابه عندنا لمكتوبون بأسمائهم وأسماء آبائهم^(٢).
 إنّ كل هذه الشواهد والدلائل مع هذا الإحصاء اليسير يعزز الإيمان
 لدينا بأن الإمام الحسين عليه السلام كان سيعلم الثورة ولن يبايع يزيداً.
 ويشهد لهيب المعركة، ويتساقط الشهداء من أصحاب الإمام
 الحسين عليه السلام ويتقدم علي الأكبر بن الحسين بن علي عليه السلام بعد قتل أصحاب
 أبيه وهو أول من تقدم من أهل البيت إلى القتال^(٣)، فأخذ يشدّ على الناس
 وهو يقول^(٤):

أنا علي بن حسين بن علي نحن وربّ البيت أولى بالنبي
 تالله لا يحكم فينا ابن الدّعي

ومن هذه الأرجوزة أيضاً يبرز الخط السياسي الالهي الديني لأهل
 البيت واضحاً، فهو يبيّن لهم بأنهم هم أولى الناس بالنبي محمد عليه السلام ولا
 يمكن أن يقدموا الطاعة ليزيد أو ينزلوا على حكمه وحكم عبيد الله بن

(١) الصدوق، آمالي الصدوق: ١١١.

(٢) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب ٤: ٦٠.

(٣) الدينوري، الأخبار الطوال: ٢٥٦.

(٤) الطبري، تاريخ الطبري ٥: ٤٤٦.

زياد .

ومع تلك الدماء الزكية ينبعث كلام سبط رسول الله ﷺ حتى تبقى تلك الدماء مشعلاً ومنازةً لكل من يريد أن يهتدي إلى الإمام الحسين ﷺ وإلى صراطه المستقيم ، ويتعرف على أهله وصحبه . فيرسل مع ولده علي الأكبر كلمات ملازمة لشهادته : « قتل الله قوماً قتلوك ، يا بني ! ما أجراهم على الرحمن وعلى إنتهاك حرمة الرسول ! على الدنيا بعدك العفا »^(١) .

ويسطر في سيرة القاسم بن الحسن بن علي ﷺ كلمات العمّ الرؤوف الرحيم « بعداً لقوم قتلوك ، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك . عزّ والله على عمك أن تدعوه ، فلا يجيبك ، أو يجيبك ثم لا ينفعك . صوت والله كثر واثره ، وقل ناصره »^(٢) . ويتقدم صاحب لواء الإمام الحسين ﷺ أبو الفضل العباس الذي كان الإمام الحسين ﷺ لا يزال يشعر بوجوده بأنه عزيز وممنوع الجانب ، وهو يحرض إخوته على القتال : تقدموا بنفسي أنتم ، فحاموا عن سيّدكم حتى تموتوا دونه^(٣) ، ولما كشف القوم عن المشرعة عاد إلى الإمام الحسين ﷺ وهو يقول^(٤) :

يا نفس من بعد الحسين هوني فبعده لا كنت أن تكوني
هذا حسين شارب المنون وتشربين بشارد المسعين
هيهات ماهذا فعال ديني ولا فعال صادق اليقين
ولما ضرب على يمينه ، فطارت مع السيف ، فأخذ السيف بشماله

(١) الطبري، تاريخ الطبري ٥ : ٤٤٦ .

(٢) م . ن . ٥ : ٤٤٧ . ابن عبدربه ، العقد القريد ٥ : ١٢٩ .

(٣) الدينوري ، الأخبار الطوال : ٢٥٧ .

(٤) أبو مخنف ، مقتل الحسين : ٩١ .

وحمل على القوم وهو يقول^(١) :

والله لو قطعتموا يميني إنني أحمي أبداً عن ديني
وعن إمام صادق اليقين سبط النبي الطاهر الأمين
نبي صدق جاءنا بالدين مصدقاً بالواحد الأمين
ولشد ما أحب أن أطيل الوقوف أمام أبي الفضل العباس . وماذا
عساني أن أقول . وقد بان الإنكسار في وجه أخيك الحسين عليه السلام وانهد
ركنه يوم إستشهادك يا أبا الفضل^(٢) !

ويلطخ الإمام الحسين عليه السلام الرضيع المذبوح من الوريد إلى الوريد
بدمه ، ويقول له : والله لأنت أكرم على الله من الناقة ، ولمحمد أكرم على
الله من صالح^(٣) ثم يناجي ربه : ربّي إن تك حبست عنا النصر من السماء ،
فاجعل ذلك لما هو خير ، وانتقم لنا من هؤلاء الظالمين^(٤) .

ويقرع الظلمة وأعوانهم بكلام يكشف فيه للتاريخ عن نفسية هؤلاء
القوم الذين يقاتلونه ، وعن هويتهم ، وجحدهم ، وانحطاطهم الخلقي . فلا
دين لهم حتّى يردعهم عما يفعلون . ولا ضمير عندهم حتّى يؤنبهم على
ما يصنعون «ويلكم ! إن لم يكن لكم دين ، وكنتم لا تخافون يوم المعاد ، فكونوا في
أمر دنياكم أحراراً ذوي أحساب ، امنعوا رحلي ، وأهلي من طعامكم وجهالكم» ومهما
نقل ، فهو في كل هذه المواقف والمشاهد ، صابر محتسب . لقد ثبت في
العاشر من المحرم ثباتاً باهراً مع كثرة أعدائه وعددهم ، ووصول

(١) م . ن : ٩١ - ٩٢ .

(٢) م . ن : ١٠٤ .

(٣) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٤٥ .

(٤) الطبري ، تاريخ الطبري ٥ : ٤٤٨ .

سهامهم ورماحهم إليه . ولما حمل عليهم وسيفه وصلت في يده أنشد
يقول :

أنا ابن علي الحبر من آل هاشم كفاني بهذا مفخراً حين أفخر
وجدي رسول الله أكرم من مشى ونحن سراج الله في الناس يزهر
وفاطمة أمي سلالة أحمد وعمي يدعى ذا الجناحين جعفر
وفينا كتاب الله أنزل صادقاً وفينا الهدى والوحي والخير يذكر
ولولا ما كادوه به من أنهم حالوا بينه وبين الماء لم يقدروا عليه إذ هو
الشجاع القرم الذي لا يزول ولا يتحول^(١) . يقول عبدالله بن عمّار : فو الله !
ما رأيت مكسوراً قط قد قتل ولده وأهل بيته واصحابه ، أربط جاشأ ، ولا
أمضى جناناً ولا أجراً مقدماً منه ، والله ! ما رأيت قبله ولا بعده مثله ، أن
كانت الرّجالة لتتكشف من عن يمينه وشماله إنكشاف المعزي إذا شدّ
فيها الذئب^(٢) .

وينادي فيهم علّهم ينتهون أو بقاء ربّهم يوقنون «أعلى قتلي تحاثون ! أما
والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله أسخط عليكم لقتله مني ، وأيم الله لأرجو
أن يكرمني الله بهوانكم ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون ؛ أما والله ! أن لو قد
قتلتموني ، لألقى الله بأسكم بينكم ، وسفك دماءكم ، ثم لا يرضى لكم حتى يضاعف لكم
العذاب الأليم»^(٣) . وقال لهم أيضاً : «ما لكم تناصرون علي ؟ أما والله ! لنن قتلتموني
لتقتلن حجة الله عليكم لا والله ! ما بين جابلقا^(٤) وجابر سا^(٥) ابن نبي احتج الله به عليكم

(١) ابن حجر، الصواعق المحرقة : ٢٩٩ .

(٢) الطبري، تاريخ الطبري ٥ : ٤٥٢ .

(٣) م . ن . ٥ : ٤٥٢ .

(٤) جابلقا : مدينة بأقصى المغرب (ياقوت ، معجم البلدان ٢ : ٩١) .

(٥) جابر سا : مدينة بأقصى المشرق (ياقوت ، معجم البلدان ٢ : ٩٠) .

غيري^(١). ولما بلغ الحسن البصري أن الإمام الحسين عليه السلام قد قتل بكى حتى إختلج جنباه ، وقال : واذلّ أمة قتل ابن دعيّها ابن نبيّها^(٢).

ولنعد إلى الإمام الحسين عليه السلام وهو يذكرهم بعهد الله وميثاقه الذي أخذوه على أنفسهم ، فجعل يكلم القوم بعد القوم ، والرّجل بعد الرّجل ، فيقولون : ما ندري ! ما تقول^(٣) !

«اللّهم أمسك عنهم قطر السماء ، وامنعهم بركات الأرض ، اللّهم فإن متعتهم إلى حين ففرقهم فرقاً ، واجعلهم طرائق قدأ ، ولا ترض عنهم الولاة أبداً ، فإنهم دعونا لينصرونا ، فعدوا علينا فقتلونا»^(٤). إنّ كلّ ما أنذرهم به الإمام الحسين عليه السلام وما قدّم لهم من بيانات ودلائل وبراهين ، على خلافته ، وإمامته ، وما سيحل بهم إذا هم قتلوه لم يؤثّر فيهم ولم يغير من مواقفهم شيئاً.

ولمّا رماه الحصين بن تميم بسهم ، فوقع في فمه ، فجعل يتلقى الدم في فمه ويرمي به إلى السماء ، ثم حمد الله وأثنى عليه ، ثم جمع يديه فقال : اللّهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تذر على الأرض منهم أحداً^(٥) وأخذ يشكو ما يفعل به إلى الله ، فقال : «اللّهم إني أشكو إليك مايفعل بابن بنت نبيّك»^(٦).

ألا ترى معي أن الإمام الحسين عليه السلام يثير في هذه الشكوى مسألة عظيمة . فهو يرفع شكواه إلى الله بأنّهم يقدمون على قتل ابن بنت من ؟! إنّهم يقدمون على قتل ابن بنت من كان نبياً وآدم بين الروح

(١) المفيد، الإرشاد : ١٩٨ .

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف ٣ : ٢٢٨ .

(٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٤٤ .

(٤) المفيد، الإرشاد : ٢٤٦ .

(٥) الطبري، تاريخ الطبري ٥ : ٤٤٩ .

(٦) م . ن . ٥ : ٤٥٠ . البلاذري، أنساب الأشراف ٣ : ٢٠١ .

والجسد^(١). إنهم يقدمون على قتل ابن بنت الذي ما خلق الله ، وما ذراً ، وما برأ نفساً أكرم عليه من جدّه النبي محمد ﷺ ، وما أقسم بحياة أحدٍ غيره : قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذالكم أصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾^(٢).

وتهتز السماء وما فيها وترجف الأرض ومن عليها لكلام العقيلة زينب بنت علي عليه السلام عندما ترى خليفة الله ورسوله ، وسيّد شباب أهل الجنة وسبط رسول الله مذبوحاً من الوريد إلى الوريد ، فقتول : «يا محمداه ! يا محمداه ! صلّى عليك ملائكة السماء ، هذا الحسين بالعراء مرمل بالدماء ، مقطع الأعضاء ، يا محمداه ! وبناتك سبايا ، وذريتك مقتلة تسغي عليها الصّبا»^(٣).

هلاً بكيت على الحسين وأهله هلاً بكيت لمن بكاه محمد
فلقد بكته في السماء ملائكة زهر كرام راكعون وسجد
لم يحفظوا حقّ النبيّ محمد إذ جرّعوه حرارة ما تبرد
قتلوا الحسين فأكلوه بسبطه فالتكل من بعد الحسين مبدد
هذا حسين بالسيوف مبضّع وملطخ بدمائه مستشهد
عارٍ بلا ثوب صريع في الثرى بين الحوافر والسنايك يقصد
كيف القرار وفي السبايا زينب تدعو بغرط حرارة يا أحمد^(٤)

(١) القندوزي، يتابع المودة ٩: ١.

(٢) آل عمران : ٨١.

(٣) الطبري، تاريخ الطبري ٤٥٦: ٥. البلاذري، أنساب الأشراف ٢: ٢٠٦.

(٤) هذه أبيات من قصيدة لدعلج (ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب ٤: ١٢٦).

«إِنَّ أَنَيْنَ الْعَبَّاسِ وَهُوَ مَأْسُورٌ بِيَدِ مَنْعِ النَّبِيِّ ﷺ النَّوْمَ ، فَكَيْفَ بِأَنَيْنِ الْحُسَيْنِ ﷺ ؟ وَلَمَّا أَسْلَمَ وَحْشِي قَاتَلَ حَمْزَةً ، قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : غَيْبَ وَجْهَكَ عَنِّي فَإِنِّي لَا أَحِبُّ أَنْ أَرَى مَنْ قَتَلَ الْأَحَبَّةَ . قَالَ : وَهَذَا وَالْإِسْلَامَ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ ، فَكَيْفَ بِقَلْبِهِ ﷺ أَنْ يَرَى مَنْ ذَبَحَ الْحُسَيْنَ ﷺ وَأَمَرَ بِقَتْلِهِ وَحَمَلَ أَهْلَهُ عَلَى أَقْتَابِ الْجَمَالِ؟» (١) .

جَاؤُوا بِرَأْسِكَ يَا ابْنَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ مِتَزَمَلًا بِدِمَائِهِ تَزَمِيلًا لَا يَوْمَ أَعْظَمَ حَسْرَةً مِنْ يَوْمِهِ وَارَاهُ رَهْنًا لِلْمُنُونِ قَتِيلًا فَكَأَنَّمَا بِكَ يَا ابْنَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ قَتَلُوا جَهَارًا عَامِدِينَ رَسُولًا وَيَكْبُرُونَ بِأَنْ قَتَلْتَ وَإِنَّمَا قَتَلُوا بِكَ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ (٢) مَضَى الْإِمَامُ الْحُسَيْنَ ﷺ ضَمَّانَ مُجَاهِدًا صَابِرًا مُحْتَسِبًا مَظْلُومًا قَدْ نَكَّثَ بَيْعَتَهُ وَاسْتَحْلَتَ حَرَمَتَهُ ، وَلَمْ يُوفَّ لَهُ بِعَهْدٍ وَلَا رَعِيَتْ فِيهِ ذِمَّةٌ (٣) . وَقَدْ صَدَّقَ مَعِينُ الدِّينِ شَيْسْتِي الْهِنْدِي ، حِينَ قَالَ : إِنَّ الدِّينَ هُوَ الْحُسَيْنُ ﷺ وَإِنَّ مَنَقَدَّ الدِّينِ هُوَ الْحُسَيْنُ ﷺ (٤) .

فِي الْوَاقِعِ ، إِنَّمَا عِنْدَمَا نَتَكَلَّمُ عَنِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ ﷺ ، فَإِنَّمَا نَتَكَلَّمُ عَنِ الدِّينِ ، وَعِنْدَمَا نَتَكَلَّمُ عَنِ الْقُرْآنِ فَإِنَّمَا نَتَكَلَّمُ عَنِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ ﷺ ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْفَصَلَ عَنِ الْعَتَرَةِ الطَّاهِرَةِ ﷺ (٥) لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : «إِنِّي مُخَلَّفٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ ، كِتَابَ اللَّهِ وَعَتَرَتِي أَهْلَ بَيْتِي» (٦) . وَلَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرْدَا عَلَى

(١) ابن حجر، الصواعق المحرقة : ٢٩٥، نقلاً عن ابن الجوزي .

(٢) أبو مخنف، مقتل الحسين : ١٩٣ - ١٩٤ .

(٣) المفيد، الإرشاد : ٢٠٠ .

(٤) shaheed hasan safipuri orkile; why? karbala;ja'fari observer.p:9 .

(٥) ابن بابويه، الخصال : ٦٥ .

(٦) أبو مخنف، مقتل الحسين : ٨٥ .

الحوض»^(١) ولقول أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام : «فاين تذهبون ، وأنى تؤفكون ، والأعلام قائمة ، والآيات واضحة ، والمنار منصوبة ، فاين يتاه بكم ، بل كيف تعمهون ، وبينكم عترة نبيكم ، وهم أئمة الحق ، وألسنة الصدق ؟ فانزلوهم بأحسن منازل القرآن»^(٢) .

وعندما نتكلم عن رسول الله ﷺ فإننا نتكلم عن الإمام الحسين عليه السلام لقول رسول الله ﷺ : «حسين مني وأنا من حسين»^(٣) والحسين عليه السلام وإن كان فرعاً للنبي ﷺ ، وعلي ، وفاطمة عليها السلام فهو أصل لولده من بعده^(٤) .

مسح الرسول جبينه فله بريق في الخدود
أبواه من عليا قریش وجده خير الجدود^(٥)
إن هذا الحديث الموجز الجامع لرسول الله ﷺ عن الإمام الحسين عليه السلام يكشف لنا عن أن ثورة الإمام الحسين عليه السلام مرتبطة الارتباط الوثيق بدعوة رسول الله ﷺ^(٦) ، ويدعونا إلى القول : بأنه مهما سما العلماء ، والأدباء ، والشعراء بأفكارهم وبأقلامهم فلن يستطيعوا أن يعبروا عن شخصية الإمام الحسين عليه السلام أو يقدروا أهمية الدور الذي قام به الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء ، لإحياء الدين الإسلامي .

بل كيف يدرك نور بدر ساطع خير الأنام وفرع آل محمد^(٧)
إن «إدوارد جيبون» يعترف وبعبارات صريحة وواضحة بأن الإمام

(١) القندوزي، ينابيع المودة ١ : ٢٧ .

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٢ : ١٢٩ .

(٣) ابن ماجه، سنن ابن ماجه ١ : ٥١ . المفيد، الإرشاد : ٢٤٩ .

(٤) الإربلي، كشف الغمة ٢ : ٢٣٤ .

(٥) م . ن : ٢٦٨ .

(٦) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب ٤ : ٩٦ .

(٧) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٤ : ١٠٠ .

الحسين عليه السلام قد أنقذ الإسلام من التلاشي ، وأنَّ حياة الإمام الحسين عليه السلام فريدة من نوعها في التاريخ الإسلامي . فلا يمكن لأحد أن يبلغ غايتها أو يضاهيها . ولولا شهادة الإمام الحسين عليه السلام ؛ لقضي على الإسلام منذ زمن بعيد . إنَّه منقذ الإسلام وإلى شهادته يدين الإسلام بامتداد جذوره في الأرض ، الذي لا يمكن حتى ولا يتصور القضاء عليه ، في هذه الأيام أو في ظل الظروف الحاضرة^(١) .

"In The history of Islam, specially The lideq Imam Hussein stands unique, unappsoached and unapproachable by anyone; without his mestyr - dom Islam would have extinguished long ago. He was the savioun of Islam and it was due to his mortyrdom That Islam Took such a deep root, which it is ne'ther posriblenor even imaginakle to destroy now"

هَلَّا نظرت في عبارة ادوارد جيبون «بأنه لا يمكن القضاء على الإسلام في هذه الأيام أو في ظل الظروف الحاضرة» وعرفت ماذا أراد ، وإلى ماذا يدعو . فلا غرابة في هذه الدعوة ، فهي ليست الأولى من نوعها وليست الأخيرة ، بل هي دعوة من جملة الدعوات والحملات اليزيدية عبر التاريخ التي حاولت ولا تزال تحاول القضاء على الإسلام . لكنَّ الإمام الحسين عليه السلام الذي ترك بالعراء مرملاً بالدماء ، مقطوع الأعضاء ، مسلوب العمامة والرداء . من أجل دين الله لن يجعل لأحد سبيلاً على الإسلام حتى يقضي عليه لا من قبل ولا من بعد . وإنَّ القربان الذي رفعته عقيلة آل

Decline and fall q The Ramay Empire; Volume; 8; 87; For EDWARO QTBN. (١) shaheed hasan safipuri arkile; why? karbala? p;7;

محمد ﷺ زينب ابنة علي ﷺ أخت الذبيح على أرض كربلاء إلى من
أرتضى لنا الإسلام ديناً ، سيبقى المشعل الوضاء للأمة الإسلامية
لتستنير بهديه وليخرجها من الظلمات إلى النور .

مصيبة قدم الأزمان يوقدها والماضيات من الأيام تذكيتها^(١)
إن استشهاد الإمام الحسين ﷺ في سبيل الله ، وفي سبيل الإسلام
كتب له الخلود على جبين التاريخ إلى يوم التناد . فهو باقٍ ببقاء الإسلام
الذي بدؤه محمد ﷺ وبقاؤه حسيني ﷺ . لقد سطر الإمام الحسين ﷺ
بدمائه على صفحات كتاب كربلاء سيرة الأنبياء ، والرسل ، لا سيما
سيرة أعظم رجل عرفه الوجود النبي محمد ﷺ .

إن لهيب حرّ أرض كربلاء ، ليحركّ الدماء الجامدة في الأجساد
الساکنة ، وليبعث فيها حرارة الإيمان . وإن حرارة الشمس التي لفحت
جسد الإمام الحسين ﷺ لتنثره شمس كربلاء فوق ربوع بلاد الله ، لأن
الإمام الحسين ﷺ تخطى فوارق الزمان والمكان ، فهو رسالة الأحرار ،
وأبو الثوار . وإنه لمن الصعب أن تحيط العقول بعظمة الإمام الحسين ﷺ
وبجلال موقفه على أرض كربلاء ، لأن الله جعله كاملاً ، ورباه خاتم
الأنبياء وعظيمهم المترّج على عرش الكمال : النبي محمد ﷺ . فكما
إختار الله جده النبي محمد ﷺ لتبليغ رسالته ؛ فإن الله إختاره لإنقاذ دين
جده من التلاشي والاضمحلال . فقد أتاه رسول الله ﷺ فقال : «يا حسين
أخرج فإن الله قد شاء أن يراك قتيلاً»^(٢) وهذا ما نرى في المعنى الحقيقي
لقول رسول الله ﷺ «حسين مني وأنا من حسين» .

(١) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب ٤ : ٩٠ .

(٢) المجلسي، بحار الأنوار ٤٤ : ٣٦٤ .

والذي أود أن أشير إليه هنا ، إلى كلمة فأتاه رسول الله ﷺ : - وهذا يعني بأنه قد جاءه في المنام - وهذا أمر لابد أن يكون قد استرعى نظرك . فلنأت سوياً إلى باب مدينة علم النبي محمد ﷺ لنسمع مفجّر علوم هذه المدينة أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يقول : «أيها الناس ! خذوها عن خاتم النبيين ﷺ : إنه يموت من مات منا وليس بميت ، ويبلى من بلى منا وليس ببال ، فلا تقولوا بما لا تعرفون ، فإن أكثر الحق فيما تنكرون»^(١) ، فقد ورد في حق الشهداء في قوله تعالى : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾^(٢) ، فإذا جاء هذا في الشهداء فما ظنك برسول الله ﷺ والأئمة الأطهار من آل البيت عليهم السلام سادات الشهداء^(٣) ؟

كان الإمام الحسين عليه السلام يبيت الثورة في كل مكان ، ويعلمها ضد بني أمية في كل موقف من مواقفه ، في خطبه ورسائله ، في نزوله وترحاله ، وفي لقائه مع الناس أفراداً كانوا أو جماعات . إن عدم بيعته ليزيد ، وخروجه من المدينة إلى مكة ومن مكة إلى كربلاء لم يكن ذلك إلا مقدمات للثورة العارمة التي ستفجر على أرض كربلاء ، تلك الثورة التي وضع قواعدها ، وهيأ لها جد الإمام الحسين عليه السلام الذي ﴿دنا فتدلى﴾ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴿^(٤) يوم قال النبي محمد ﷺ : «إبناي هذان إمامان قاما أو قعدا»^(٥) ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ علمه شديد القوى ﴿^(٦)

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٢: ١٢٩ .

(٢) آل عمران : ١٦٩ .

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٢: ١٣١ .

(٤) النجم : ٨ - ٩ .

(٥) المفيد، الإرشاد : ١٩٩ .

(٦) النجم : ٤ - ٥ .

فالثورة الحسينية مهدها لها من عند الله ، وموجهة من قبل رسول الله ﷺ ، ومفجرها الإمام الحسين أبو عبد الله عليه السلام .

وقد إختبر الله الإمام الحسين عليه السلام أعظم الإختبار ، فتجرع مرارة المحنة فلم يبق منها شيء^(١) . فها هو والدماء تترقرق على وجهه الشريف ، وتنهال عليه الطعنة تلو الطعنة ، والضربة تلو الضربة ، والسيوف تهوي ، والنبال ترمي والزّماح بأستنها تتلوى في جسده المقدس^(٢) .

ياسهاماً بدم ابن المصطفى منقسمات ورماحاً في ضلوع ابن النبي متصلات^(٣) يقول وهو يتلقى الدم بكفيه ويخضب به لحيته المقدسة ، ورأسه الشريف : « هكذا ألقى ربّي وألقى جذي ، وأشكو إليه ما نزل بي »^(٤) ، كل ذلك يكشف لنا عن أبعاد مغزى نقش خاتم الإمام الحسين عليه السلام ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾^(٥) فقال عنده درجة لا يدركها أحد من المخلوقين^(٦) .

إن التاريخ لم يكشف عن رجلٍ ضحّى بحياته حتى يخلص دينه وينشره إلا الإمام الحسين عليه السلام .

يجود بالنفس إن ضنّ الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود وإن المصائب التي تحملها الإمام الحسين عليه السلام في طريق إحياء دين جدّه تفوق مصائب أرباب الديانات السابقين ، ولم ترد على أحد منهم .

(١) طه حسين، الفتنة الكبرى، علي وبنوه (إسلاميات طه حسين : ١٠٢٦) .

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف ٣ : ٢٠٢ . المسعودي، مروج الذهب ٢ : ٦٢ .

(٣) قال هذا البيت الشاعر العوني (ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب ٤ : ١٢٠) .

(٤) أبو مخنف، مقتل الحسين : ١٤١ .

(٥) الصدوق، أمالي الصدوق : ١١٣ .

(٦) م . ن : ١٢٠ .

نعم ! إِنَّ هناك رجالاً قتلوا في طريق إحياء الدين ولكنهم لم يكونوا كالحسين عليه السلام فإنه ضحى بنفسه العزيزة في طريق إحياء دين جده ، فقد فداه بأولاده وإخوانه وأقربائه وأحبائه وأمواله وعياله ، ولم تقع هذه المصائب دفعة واحدة حتى تكون في حكم مصيبة واحدة ، بل وقعت متوالية ، واحدة بعد أخرى ، ويختص الحسين عليه السلام دون غيره بتواتر أمثال هذه المصائب كما يشهد له التاريخ ، حتى فاقت مصيبته مصيبة يحيى بن زكريا ، والمسيح بن مريم عليه السلام (١) «وتالله لولا ما بذله الإمام الحسين عليه السلام في سبيل إحياء الدين من نفسه الزكية ونفوس أحبائه بتلك الكيفية لأمسى الإسلام خبراً من الأخبار السالفة وأضحى المسلمون أمة من الأمم التالفة» (٢).

إن انتصار الإمام الحسين عليه السلام ابتدأ منذ اللحظة الأولى التي أعلن فيها مبادئ ثورته ، وإن نجم الدولة الأموية ابتدأ بالأفول منذ أن تحرك ركب الإمام الحسين عليه السلام (٣). فمن المنتصر؟ ومن المنهزم؟ يا ترى؟

هذا الإمام الحسين عليه السلام باق ببقاء الدهر ، رمزاً للأحرار ، ومشعلاً للثوار ، وصوتاً للعدالة ، ومهجاً للحق ، ومنقذ للإسلام ، وآية للصبر والفضيلة ، والشجاعة والبطولة ومكارم الأخلاق ، والرجولة .

وها هي الدولة الأموية لم يبق من أثرها سوى سطورٍ على صفحات التاريخ تروي لنا سياسة الظلم والظالمين «... ولم يطل العهد حتى نزع

(١) عبدالحسين شرف الدين، المجالس الفاخرة : ٤٥ نقلاً عن كتاب السياسة الإسلامية لمباريين الألمان.

(٢) عبدالحسين شريف الدين، المجالس الفاخرة : ٤٢ .

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد : ٥ : ٢١٨ .

تلك السلطنة من بني أمية^(١)، وزالت السلطة والقدرة من آل يزيد في أقل من قرنٍ واندرست آثارهم على وجه لم يبق منهم عين ولا أثر، وأينما ذكرت أسماءهم في ستون الكتب قرئها المسلمون بكلمة الشماتة^(٢)، وكل ذلك نتيجة سياسة الإمام الحسين عليه السلام الذي يمكن أن يقال أنه لم يأت في أرباب الديانات والروحانيين رجل عرف عواقب الأمور من بعد نظر وحسن سياسة كالإمام الحسين عليه السلام^(٣).

إنَّ السؤال الذي يمكن أن يطرح نفسه هنا: لو أنَّ الإمام الحسين عليه السلام طلب القوة والعدة مع ماله من المحبوبة في قلوب المسلمين. هل كان بإمكانه في ذلك الزمان أن يخرج بحيش جرّار لمحاربة يزيد.

إنَّ الإمام الحسين عليه السلام كان عالماً في السياسة، وقد خبّر الناس، وعاش محنة أبيه وأخيه عليه السلام. وإنَّ خير جواب على هذه المسألة أو على هذه النظرية يأتي من قبل حفيده الإمام الثائر زيد بن علي عليه السلام.

عندما انتهى إلى باب دار رجل من الأزد، في الكوفة، يقال له: أنس بن عمرو، وكان فيمن بايعه. فنودي وهو في الدار، فجعل يجيب، فناداه زيد يا أنس! اخرج إليّ رحمك الله! فقد جاء الحق وزهق الباطل إنَّ الباطل كان زهوقاً. فلم يخرج إليه، فقال زيد: ما أخلفكم! قد فعلتموها، الله حسبيكم^(٤) وقوله لنصر بن خزيمة: أتخاف أهل الكوفة أن يكونوا فعلوها حسينية^(٥)؟

(١) م. ن. ٥: ١٣٤.

(٢) م. ن. ٥: ١٦٩.

(٣) عبدالحسين شريف الدين، المجالس الفاخرة: ٤٦ نقلاً عن كتاب السياسة الإسلامية لماريين الألماني.

(٤) الطبري، تاريخ الطبري ٧: ١٨٣.

(٥) الأصفهاني، مقاتل الطالبين: ١٣٥.

ولعلّ سائلاً آخر يسأل : إذا لماذا أرسل الإمام الحسين عليه السلام رسوله مسلم بن عقيل إلى الكوفة ؟ في الحقيقة إنّ سرّ ذلك يرجع حتى يقيم عليهم الحجة . لقد كان حجة الله لنبيه عليه السلام في المباهلة ، وحجة الله بعد أبيه أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام على الأمة في الدين والملة^(١) ولا يدع لأهل الكوفة معذرة . وكتابه أيضاً إلى الأشراف من أهل البصرة ينبيء عن حال البصرة وأشرافها^(٢) .

ونزيد على ما تقدم . لماذا لم يستجب الإمام الحسين عليه السلام إلى دعوة الطرماح بن عدي ؟ هذا إذا صحّت الرواية وينزل معه القرية ، ولا يأتي عليه عشرة أيام حتى تأتيه طيء رجالاً وركباناً أو يجتد له عشرين ألف طائي ، يضربون بين يديه بأسياقهم .

ومهما نقل ، فإننا لا نشك مطلقاً في حسن نية الطرماح بن عدي لأن الإمام الحسين عليه السلام دعا له ولقومه كما تذكر الرواية . فقال له : جزاك الله وقومك خيراً . لكن الشيء الذي يستوقفنا هنا . لماذا رجع الطرماح بنفسه ؟ مع علمه أن الإمام الحسين عليه السلام كان مستوحشاً إلى الرجال ، ولم يرافقه أحد من قومه عندما عاد ليلتحق بالإمام الحسين عليه السلام لينصره بعدما أخبر أهله بما هو عازم عليه وترك فيهم وصيته^(٣) ؟

إنّ كل الشواهد تدل على أن الإمام الحسين عليه السلام لم يترك لأحد من هذه الأمة معذرة تعتذر بها^(٤) لقد سمعت واعيته الناس كل الناس . أليس أن أهل ذلك الزمان كانوا يتحدثون بقتله^(٥) ؟ ولكن المسألة هل من يجيب ؟

(١) المفيد، الإرشاد : ١٩٨ .

(٢) الدينوري، الأخبار الطوال : ٢٢٢. الطبري، تاريخ الطبري ٥ : ٣٥٧ .

(٣) الطبري، تاريخ الطبري ٥ : ٣٥٧ .

(٤) البلاذري، أنساب الأشراف ٣ : ١٧٤ .

(٥) الطبري، تاريخ الطبري ٥ : ٣٨٧ .

الشيخ علي بن محمد السمرى

« السفير الرابع »

✽ مسين الشاكري

تولى السفارة بعد وفاة سلفه الحسين بن روح النوبختي في شعبان سنة ٣٢٦ هـ، وانتهت سفارته بوفاته في النصف من شعبان سنة ٣٢٩ هـ، فكانت مدة سفارته ثلاث سنين كاملة، وبوفاته انقطعت سلسلة السفراء للإمام الحجة في الغيبة الصغرى التي دامت ٦٩ سنة من سنة شهادة الإمام الحسن العسكري سنة ٢٦٠ هـ إلى وفاة السمرى سنة ٣٢٩ هـ.

وبدأت الغيبة الكبرى ولا يعلم مداها إلا الله تعالى فيسمح له بالفرج حتى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً، عجل الله فرجه الشريف.

ومرقد النائب الرابع لا يزال شامخاً للعيان جنب جامع كبير معروف بـ (مسجد القبلائية) الواقع في سوق السراي (وكان معروفاً بسوق الهرج) ببغداد قرب نهر دجلة، وقرب (الجامعة المستنصرية) في الضفة اليسرى من نهر دجلة، وهو اليوم عامر، وعليه قبة يزوره المسلمون خصوصاً وفود الشيعة الإمامية، فهو يعتبر من مراكز الشيعة في بغداد^(١).

السمري هو الشيخ الأجل، والثقة الأمين، موضع أسرار الشريعة، والقائم بأعمال النيابة والسفارة عن الإمام الحجة بن الحسن (عج) عند الشيعة، فقد قام بأعباء السفارة بعد وفاة الشيخ أبي القاسم حسين بن روح النوبختي^(٢).

من أخباره الغيبية التي أخبر بها لجمع من أصحابه ومشايخ بغداد، هو إخباره بوفاة الصدوق الأول، وشيخ الفقهاء والمحدثين علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي في مدينة قم المقدسة، مخاطباً لهم بقوله: «أجركم الله فيه، فقد قبض في هذه الساعة».

قالوا: فاثبتنا تاريخ الساعة واليوم والشهر من سنة ٣٢٩ هـ، فما مضى سبعة عشر يوماً حتى ورد الخبر من مدينة قم المقدسة في إيران بوفاة الشيخ القمي، وأنه قبض بذلك التاريخ الذي ذكره الشيخ أبو الحسن السمري وهو في بغداد.

ومن أخباره رضوان الله عليه، أنه أخبر الناس بموت نفسه بعد مرور ستة أيام، فقد أخبره الإمام المهدي^(عج) بموته، وأخرج الشيخ السمري

(١) في (فلك النجاة) للحجة السيد القزويني، وفي (نزهة الحرمين) للبحاثة المتتبع السيد حسن الصدر، إن قبر علي بن محمد السمري ببغداد في سوق الهرج في حجرة من مسجد له شبّاك في السوق المذكور على يسار الداخل إلى السوق.

قال الشيخ محمد حرز: وقفت على قبره سنة ١٣٨٧ هـ-١٩٦٧ م، وكان على المرقد صندوق خشبي فوقه ستارة، تطلّهُ قبة شامخة ومنارة للمسجد، كما يشاهد قبره من السوق من شبابيك ثلاثة، وله كتيبة نقشت بالقاشاني الأزرق كتب عليه اسمه ولقبه.

توقيع الحجة عليه السلام إلى الناس بخبر وفاته قبل أن يموت بأيام فيه مخاطباً له:
بسم الله الرحمن الرحيم .

يا علي بن محمد السمرى ، أعظم الله أجر إخوانك فيك ، فإنك ميت ما بينك وبين ستة أيام ، فاجمع أمرك ، ولا توص إلى أحد فيقيم مقامك بعد وفاتك ، وقعت الغيبة التامة فلا ظهور إلا بعد إذن الله تعالى ذكره ، وذلك بعد طول الأمد وقسوة القلوب ، وامتلاء الأرض جوراً ، وسيأتي من شيعتي من يدعي المشاهدة قبل خروج السفيناني والصيحة ، فهو كذاب مفتر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وكان هذا آخر كلام سمع منه عليه السلام (١) .

فلما كان اليوم السادس دخل عليه أصحابه وهو يجود بنفسه ، فقبل له : من وصيك من بعدك ؟ قال : «لله أمرٌ هو بالغه» ، وقضى نحبه إلى رضوان الله وجنته (٢) .

ولم تحدّد لنا المصادر تأريخ ميلاده على وجه الدقّة ، وقد ذكرته المصادر بكونه من أصحاب الإمام العسكري عليه السلام ثم بكونه قائماً بمقام السفارة عن الإمام المهدي عليه السلام ببغداد بعد الشيخ أبي القاسم النوبختي ، بإيعاز من الشيخ أبي القاسم عن الإمام المهدي عليه السلام .

وقد تولّى أبو الحسن السمرى السفارة من حيث وفاة أبي القاسم بن روح عام ٣٢٦ هـ ، إلى أن لحق بالرفيق الأعلى عام ٣٢٩ هـ في النصف من شعبان ، فتكون مدة سفارته عن الإمام المهدي عليه السلام نحو ثلاثة أعوام كاملة .

فكان هذا آخر خطاب خرج إلى السمرى من الإمام المهدي عليه السلام ، عن طريق السفارة الخاصّة .

(١) احتجاج الطبرسي : ٢٦٧ ، غيبة الطوسي : ٤١٦ ، الغيبة الصغرى / محمد الصدر : ٤١٢ ، المجالس السنية ٥ : ٦٨٦ ، في رحاب أئمة أهل البيت عليهم السلام ٥ : ٢٠ ، بحار الأنوار ٥١ : ٢٥٩ .

(٢) مراقد المعارف : للشيخ محمد حرز ١ : ٢٧٥ ، طبعة إيران .

وللإمام عليه السلام يومذاك من العمر نحو خمسة وسبعين عاماً ، قضى منها مع أبيه نحو خمس سنين ، ونحو سبعين عاماً في غيبته الأولى المسماة بالصغرى ، وعاصر من الخلفاء العباسيين المعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر والراضي ، ومع أنّ خلافة بني العباس في هذه الفترة كانت - كما يصفها المؤرخون - تتمثل بالانحلال والتفكك ، ولا يملك الخليفة منها إلا توقيع المراسيم والشكليات ، فلقد كانوا يراقبون تحركات ووكلائه المنتشرين في مختلف المناطق ، وحاولوا القبض عليه أكثر من مرة .

والظاهر أنه دفن في داره ، وله مقبرة شاخصة إلى جنب مسجد كبير واقع في وسط بغداد الرصافة - في سوق السراي المعروف اليوم قرب نهر دجلة - وقد زرته عدة مرات .

السفارات الكاذبة :

ادّعى البعض السفارة عن الإمام المهدي عليه السلام كذباً وزوراً ؛ طمعاً في ابتزاز الأموال والتزعم على الناس ، والسفارة الكاذبة في الواقع تشويه منحرف لمفهوم السفارة الصادقة العادلة ، وكان هؤلاء المدّعون للسفارة عن الإمام عليه السلام لا يواجهون صعوبة في أول دعواهم ، ذلك لأنه معلوم لدى جميع الشيعة أن الاتصال بالإمام عليه السلام سرّاً لا يمكن لأحد الاطلاع عليه أو السؤال عن مكانه وزمانه ، ولكنهم لا يلبثون أن ينكشف أمرهم على لسان السفارة الصادقة عن الإمام عليه السلام ويتم تبليغ القواعد الشعبية بشأنهم .

ولقد بدأ التزوير في السفارة من قبل بعض النفعيين والوصوليين في عهد السفير الثاني الشيخ محمد بن عثمان العمري عليه السلام ، وأما أبوه السفير الأول فقد كان أقوى وأسمى من أن ينازعه منازع ، أو يعارضه معارض

بعد تاريخه الحافل بالثناء مع الإمامين العسكريين الماضيين عليه السلام ،
وأدائه لمختلف أنواع الجهاد في عهدهما ، وبموجب توجيهاتهما
وتعاليمهما ، فلن يكون للظنون أن تحوم ، وللمطامع أن تطمح لمعارضته
أو منازعته ، لأنها ستجابه بالنقد والإنكار من كل جانب .

كما أن الظروف لم تكن مساعدة على دعوى السفارة في أيام عثمان
ابن سعيد عليه السلام لأن الغيبة الصغرى لا زالت في أولها ، وتتبع السلطات
ومطاردتهم للإمام المهدي عليه السلام ولكل من يمت إليه بصلة لا زالت قوية ،
وعليه فكيف يعرض أحد نفسه للمطاردة والخطر تلقائياً بانتحال
السفارة ؟

وقد ادّعى السفارة زوراً عن الإمام المهدي عليه السلام في زمان أبي جعفر
محمد بن عثمان العمري عليه السلام عدّة أشخاص ، منهم : أبو محمد الشريعي ،
وهو أول من ادّعى مقاماً لم يجعله الله فيه ^(١) ، ومحمد بن نصير النُميري ،
ادّعى ذلك الأمر بعد الشريعي ، وأحمد بن هلال الكرخي ، وأبو طاهر
محمد بن علي بن بلال البلالي ، وأبو بكر محمد بن أحمد بن عثمان
المعروف بالبغدادي ابن أخي أبي جعفر العمري عليه السلام وإسحاق الأحمر ،
ورجل يعرف بالباقطاني ^(٢) .

وكان بعض هؤلاء صالحين في أول أمرهم ، ومن أصحاب الإمامين
الهادي والعسكري عليه السلام ، فأنحرفوا وسلكوا مسلك التزوير في آخر
أمرهم ، فجابهم العمري عليه السلام بكل قوّة حتى كان النصر حليفه ، وخرجت
من الإمام المهدي عليه السلام التواقيع والبيانات تترى بلعنهم والبراءة منهم
والتأكيد على كذب دعواهم للسفارة وسوء سريرتهم .

(١) غيبة الطوسي : ٢٤٤ .

(٢) راجع الغيبة للطوسي : ٢٤٤ - ٢٤٥ .

وأما الشيخ الحسين بن روح السفير الثالث للإمام المهدي عليه السلام فقد ابتلي بأشدّهم تأثيراً وأكثرهم أتباعاً، وهو محمد بن علي الشلمغاني العزاكري ^(١)، وكان في مبدأ أمره مؤمناً مستقيماً، بل وكيلاً لابن روح، ثم ظهر انحرافه وسقم عقيدته.

وآخرهم في دعوى السفارة الكاذبة، أبو دلف الكاتب، حيث كان على ذلك إلى ما بعد وفاة السمرى السفير الرابع، فلعنّه الشيعة وبرأوا منه، لأنهم كانوا يعلمون أن من ادّعى السفارة بعد السمرى فهو كافر ضالّ مضلّ ^(٢).

وممن نسب إليه دعوى السفارة الحسين بن منصور الحلاج، المعروف بمذهبه الصوفي، وله في هذه الدعوى مكاتبة مع أبي سهل إسماعيل بن علي النوبختي، كشفه فيها أبو سهل وأفحمه، ويبدو أن ذلك كان في عهد الحسين بن روح.

المدّعون للسفارة حسب التسلسل التاريخي :

١ - أبو محمد الشريعي :

قال الراوي : أظن أن اسمه كان الحسن ، وكان من أصحاب أبي الحسن علي بن محمد الهادي عليه السلام ، ثم من أصحاب الحسن بن علي العسكري عليه السلام ، ثم أنه انحرف ، وكان أول من ادّعى مقاماً لم يجعله الله فيه ، ولم يكن أهلاً له ، فكذب على الله تعالى وعلى حجّته عليه السلام ، ونسب إليهم ما لا يليق بهم وما هم منه براء ، فلعنّته الشيعة وتبرّأت منه ، وخرج توقيع الإمام عليه السلام بلعنه والبراءة منه ، ثم ظهر منه القول بالكفر والإلحاد ^(٣).

(١) غيبة الطوسي : ٢٤٨.

(٢) غيبة الطوسي : ٢٥٥.

(٣) غيبة الطوسي : ٢٤٤ ، الغيبة الصغرى / محمد الصدر : ٤٩٧ ، المجالس السنّة ٥ : ٦٨٨ ، في رحاب أئمة أهل البيت عليهم السلام ٥ : ٢١ ، بحار الأنوار ٥١ : ٣٦٧.

٢ - محمد بن نصير النعميري الفهري :

كان من أصحاب الإمام العسكري عليه السلام فأنحرف وافتتن ، وأصبح يستخدم اسم صحبته للإمام العسكري عليه السلام لأغراض مادية دنيئة ومنافع شخصية وضيعة .

فكتب الإمام العسكري عليه السلام كتاباً شديداً للهجة ضده وضد شخص آخر يدعى ابن بابا القمي ، ويسمى الحسن ابن محمد ، كشف فيه انحرافهما وأظهر البراءة منهما ، وقال مخاطباً أحد أصحابه : أبرأ إلى الله تعالى من الفهري والحسن بن محمد بن بابا القمي ، فأبرأ منهما ، فإني محذرك وجميع موالي ، وإني ألعنهما ، عليهما لعنة الله ، مستأكلين ، يأكلان بنا الناس ، فتأنين مؤذيين ، آذاهما الله ، وأرسلهما في اللعنة وأركسهما في الفتنة ركساً ، إلى آخر كتابه عليه السلام .

وكان الفهري يدّعي أنه رسول نبي ، وأن علي بن محمد الهادي عليه السلام أرسله ، وكان يقول بالتناسخ ، ويغلو في أبي الحسن العسكري عليه السلام ويقول فيه بالربوبية ، ويقول بإباحة المحارم وتحليل نكاح الرجال بعضهم بعضاً في أدبارهم ، ويزعم أن ذلك من التواضع والإخبات والتدلل في المفعول به ، وأنه من الفاعل إحدى الشهوات والطيبات ، وإن الله لا يحرم شيئاً من ذلك .

فقد رآه بعض الناس وغلاماً له على ظهره ، قال الراوي : فلقيته فعاتبته على ذلك ، فقال : إن هذا من اللذات ، وهو من التواضع لله وترك التجبر ^(١) . وكان معروفاً بالأبنة .

وتبعه في أقواله جماعة من الغلاة الملعونين سمّوا بالنميرية ، ذكروا أن منهم محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات ، وهو والد علي بن محمد

(١) غيبة الطوسي : ٢٤٤ .

ابن موسى بن الفرات الذي وزر بعد ذلك للمقتدر المعاصر لسفارة ابن روح رحمته ، استوزره سنة ٢٩٩ هـ ، وبقي ما يزيد على الثلاث سنين في الوزارة ، فمن هذا يظهر كيف تؤيد السلطات خطأ الانحراف عن الأئمة عليهم السلام بنحو خفي لا يكاد يلتفت إليه .

وأخيراً حين اعتلّ محمد بن نصير النميري (لعنه الله) العلة التي مات فيها ، قيل له وهو مثقل اللسان : لمن الأمر من بعدك ؟ قال بلسان ضعيف مُلجج : أحمد . فلم يدروا من هو ، فافترقوا بعده ثلاث فرق ؛ فرقة قالت : إنه أحمد ابنه ، وفرقة قالت : هو أحمد بن محمد بن موسى بن الفرات ، وهو أخو علي بن محمد بن موسى وزير المتقدر ، وفرقة قالت : إنه أحمد ابن أبي الحسين بن بشر بن يزيد ، ففترقوا فلا يرجعون إلى شيء ^(١) .

٣- أحمد بن هلال الكرخي العبرثاني :

ولد عام ١٨٠ هـ ، وتوفي عام ٢٦٧ هـ ، أي أنه عاصر الإمام الرضا عليه السلام ومن بعده حتى الإمام العسكري عليه السلام الذي توفي سنة ٢٦٠ هـ ، وعاصر زمان الغيبة الصغرى لمدة سبع سنوات ، ادّعى خلالها الوكالة عن الإمام المهدي عليه السلام كذباً وزوراً ، وقد عدّه الشيخ الطوسي رحمته في قائمة المذمومين الذين ادّعوا الباطنية ، أي السفارة من الإمام المهدي عليه السلام .

وله كتاب يوم وليلة ، وكتاب نوادر ، يرويه الشيخ النجاشي في رجاله عنه بسنده إليه ، اتخذ مسلك التصوّف ، وحجّ أربعاً وسبعين حجة ، عشرون منها على قدميه ، ولقيه أصحابنا بالعراق وكتبوا عنه .

وقد جاء ذمّه على لسان الإمام العسكري عليه السلام ، وحذر منه الإمام

(١) الغيبة الصغرى / محمد الصدر : ٤٩٨ - ٥٠٠ ، المجالس السنّة : ٥ : ٦٨٨ ، في رحاب أئمة أهل البيت عليهم السلام : ٥ : ٢٢ ، بحار الأنوار : ٥١ : ٣٦٧ .

المهدي عليه السلام أصحابه ونوابه ، فكتب عليه السلام إلى قوامه بالعراق : احذروا الصوفي المتصنع ، وورد على القاسم بن العلاء نسخة ما كان خرج من لعن ابن هلال ، فأنكر رواية أصحابنا بالعراق ذلك ، لما كانوا قد كتبوا من رواياته ، فحملوا القاسم بن العلاء على أن يراجع في أمره ، فخرج إليه من الإمام المهدي عليه السلام بيان مفصل ، هذا نصه :

قد كان أمرنا نفذ إليك في المتصنع ابن هلال لا رحمه الله بما قد علمت ، ولم يزل - لا غفر الله ذنبه ، ولا أقال عثرته - يداخلنا في أمرنا بلا إذن منا ولا رضا ، يستبدّ برأيه فيتحامى ديوننا ، لا يمضي من أمرنا إتياء إلا بما يهوّد ويريده ، أرداه الله في ذلك في نار جهنم ، فصبرنا عليه حتى بتر الله بدعوتنا عمره .

وكنّا قد عرّفنا خبر قوماً من موالينا في أيامه لا رحمه الله ، وأمرناهم بالبقاء ذلك إلى الخاص من موالينا ، ونحن نبرأ إلى الله من ابن هلال - لا رحمه الله - .

وأعلم الإسحاقى ^(١) سلّمه الله وأهل بيته بما أعلمناك من حال هذا الفاجر ، وجميع من كان سألَكَ ويسألَكَ عنه من أهل بلده والخارجين ، ومن كان يستحق أن يطلع على ذلك ، فإنه لا عذر لأحدٍ من موالينا في التشكيك فيما روى عنّا ثقاتنا ، قد عرفوا بأننا نفاوضهم بسرّنا ونحمله إياه إليهم ، وعرفنا ما يكون من ذلك إن شاء الله .

وأنكر قوم ما خرج في ابن هلال ، ولم يؤثر فيهم هذا القول البليغ ، فعادوا القاسم بن العلاء على أن يراجع فيه ، فخرج إليهم من الإمام المهدي عليه السلام : لا شكر الله قدره ، لم يدع المرء ربّه بأن لا يزيغ قلبه بعد أن هداه ، وأن يجعل ما منّ به عليه مستقراً ولا يجعله مستودعاً ، وقد علمتم

(١) لعل المراد أحمد بن إسحاق الأشعري القمي .

ما كان من أمر الدهقان لعنه الله وخدمته وطول صحبته ، فأبدله الله بالإيمان كفوراً حين فعل ما فعل ، فعاجله الله بالنقمة ولم يمهله ، والحمد لله لا شريك له وصلى الله على محمد وآله وسلم (١) .

والذي يظهر أن ابن هلال بقي مؤمناً صالحاً خلال سفارة السفير الأول ، ولكنه بمجرد أن ذهب السفير الأول إلى ربه بدأ بالتشكيك بسفارة السفير الثاني ، بحجة إنكار النص عليه من قبل الإمام العسكري (عليه السلام) ، وكان يقول : لم أسمعه ينص عليه بالوكالة ، وليس أنكر أباه - يعني عثمان بن سعيد - فأما أن أقطع أن أبا جعفر وكيل صاحب الزمان ، لا أجسر عليه ، فقالوا : قد سمعه غيرك . فقال : أنتم وما سمعتم ، ووقف على أبي جعفر ، فلعنوه وتبرأوا منه .

وترتب على تشكيكه هذا في أبي جعفر العمري (عليه السلام) أن أمتنع عن دفع أموال الإمام (عليه السلام) إليه وعصيانه للأوامر الصادرة منه عن المهدي (عليه السلام) ممّا أدى به إلى منزلق الكفر والجحود (٢) .

٤ - محمد بن علي بن بلال ، أبو طاهر البلالي :

كان من أصحاب الإمام العسكري (عليه السلام) ، وعدّه ابن طاووس من السفراء الموجودين في الغيبة الصغرى والأبواب المعروفين الذين لا يختلف الإمامية القائلون بإمامة الحسن بن علي (عليه السلام) فيهم ، وظاهره كونه بمنزلة القاسم بن العلاء والأشعري والأسدي ونحوهم في الوثاقة والجلالة ، إلّا أن الشيخ الطوسي ذكره في المذمومين الذين ادّعوا البايّة .

قال الشيخ (عليه السلام) : وقصّته معروفة فيما جرى بينه وبين أبي جعفر محمد

(١) رجال الكشي : ٤١٤ ، معجم رجال الحديث ٢ : ٢٥٦ .

(٢) الغيبة الصغرى / محمد الصدر : ٥٠٠ - ٥٠٤ ، المجالس السنّة ٥ : ٦٨٩ ، في رحاب أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ٥ : ٢٤ ، بحار الأنوار ٥١ : ٣٦٨ .

ابن عثمان العمري عليه السلام وتمسكه بالأموال التي كانت عنده للإمام عليه السلام ، وامتناعه من تسليمها وادّعاؤه أنه هو الوكيل ، حتّى تبرأت الجماعة منه ولعنوه ، وخرج فيه من صاحب الزمان عليه السلام ما هو معروف .

وكان له جماعة من الأصحاب والمؤيدين ، منهم أخوه أبو الطيّب وابن حرز وجماعة آخرون ، وجاهد أبو جعفر العمري عليه السلام واستعمل مختلف الأساليب في ردعه وتقويم انحرافه ، وأخذ الأموال منه لإيصالها إلى الإمام المهدي عليه السلام ، فلم يفلح ، وبقي ابن بلال على انحرافه وتمسكه بالأموال والأصحاب .

فمن ذلك أن أبا جعفر قصد ابن بلال في داره ، وكان عنده جماعة ، فيهم أخوه أبو الطيّب وابن حرز ، فدخل الغلام فقال : أبو جعفر العمري على الباب ، ففزعت الجماعة لذلك وأنكرته للحال التي كانت جرت ، ولم يستطع ابن بلال أن يحجبه فقال : يدخل . فدخل أبو جعفر عليه السلام فقام له أبو طاهر والجماعة ، وجلس في صدر المجلس ، وجلس أبو طاهر بين يديه ، فأمرهم إلى أن سكتوا .

ثم قال العمري : يا أبا طاهر ، انشدتك بالله ، ألم يأمرك صاحب الزمان بحمل ما عندك من المال إليّ ؟ فقال ابن بلال : اللهم نعم . فنهض أبو جعفر عليه السلام منصرفاً ، ووقعت على القوم سكتة ، فلمّا تجلّت عنهم قال له أخوه أبو الطيّب : من أين رأيت صاحب الزمان ؟ فقال أبو طاهر : أدخلني أبو جعفر إلى بعض دوره ، فأشرف عليّ - يعني صاحب الزمان عليه السلام - من علوّ داره ، فأمرني بحمل ما عندي من المال إليه - يعني إلى العمري - .

فقال له أبو الطيّب : ومن أين علمت أنه صاحب الزمان ؟ قال : قد وقع عليّ من الهيبة له ، ودخلني من الرعب منه ما علمت أنه صاحب الزمان عليه السلام .

فقال ذلك الرجل من أصحابنا : فكان هذا سبب انقطاعي عنه^(١).

٥ - محمد بن أحمد بن عثمان ، أبو بكر البغدادي :

وهو ابن أخي أبي جعفر العمري السفير الثاني عليه السلام ، وحفيد عثمان بن سعيد السفير الأول عليه السلام ، وأمره في قلّة محصولة العلمي وقلّة مروءته أشهر من أن تذكر^(٢) ، وكان مشهوراً لدى عمّه أبي جعفر العمري بالانحراف ، ولم يكن معروفاً لدى البعض الآخرين من أصحابه ، ومن هنا كان جماعة من الأصحاب ، وهم خاصّة المواليين ، في مجلس العمري عليه السلام وهم يتذكرون شيئاً من روايات الأئمة عليهم السلام ، فأقبل عليهم أبو بكر محمد بن أحمد بن عثمان ، ابن أخيه ، فلما بصر به أبو جعفر عليه السلام قال للجماعة : مشيراً إليه : أمسكوا ، فإن هذا الجاني ليس من أصحابكم^(٣).

وادّعى محمد بن أحمد بن عثمان السفارة ، وكان له أصحاب ، منهم أبو دلف محمد بن المظفر الكاتب ، وقد كان في ابتداء أمره مخمّساً^(٤) مشهوراً بذلك ، ثم صار إلى أبي بكر البغدادي .

ثم إن أبا بكر البغدادي ، حين أرسل إليه وجوه الخاصّة وعلمائهم ، وسألوهم عن دعواه السفارة ، أنكر ذلك وحلف عليه ، وقال : ليس إليّ من هذا الأمر شيء ، وعرض عليه مال ، لكي يأخذه بالوكالة عن الإمام المهدي عليه السلام ، وإنّما عرض عليه ذلك امتحاناً ، فأبى قبوله ، وقال : محرّم عليّ أخذ شيء منه ، فإنه ليس إليّ من هذا الأمر شيء ، ولا ادّعت شيئاً من هذا.

(١) غيبة الطوسي : ٢٤٦ ، الغيبة الصغرى / محمد الصدر ٥٠٤ - ٥٠٠ ، المجالس السنّية ٦٨٩ : ٥ ، في رحاب أئمة أهل البيت عليهم السلام ٢٢ : ٥ ، بحار الأنوار ٢٦٩ : ٥١ .

(٢) غيبة الطوسي : ٢٥٥ .

(٣) غيبة الطوسي : ٢٥٦ .

(٤) المخمّسة من الغلاة ، وهم يقولون : إنّ الخمسة : سلمان ، وأبا ذر ، وعقار ، وعمرو بن أميّة الضمري ، هم الموكّلون بمصالح العالم من قبل الربّ .

قال الراوي : ولَمَّا دخل بغداد ، مال إليه أبو دلف الكاتب ، وعدل عن الطائفة وأوصى إليه ، فلم نشك أنه على مذهبه ، فلعتّاه وبرئنا منه ، لأن عندنا أن كل من ادّعى الأمر بعد السمرى ، فهو كافر ضالّ مضلّ^(١) .

وكان أبو دلف يدافع عن أبي بكر البغدادي ويفضّله على أبي القاسم ابن الحسين بن الروح وعلى غيره ، فلمّا قيل له في وجه ذلك قال : لأنّ أبا جعفر محمد بن عثمان قدّم اسمه على اسمه في وصيّته ، فقلت له : فالمنصور أفضل من مولانا أبي الحسن موسى عليه السلام . قال : وكيف ؟ قلت : لأنّ الصادق عليه السلام قدّم اسمه على اسمه في الوصيّة . فقال لي : أنت تتعصّب على سيّدنا ومولانا وتعاديّه . فقلت : والخلق كلّهم يعادي أبا بكر البغدادي ويتعصّب عليه غيرك وحدك ؟ وكدنا نتقاتل ونأخذ بالأزياق^(٢) .

وحكى أنّ أبا بكر البغدادي توكلّ لليزيدي بالبصرة ، فبقي في خدمته مدّة طويلة ، وجمع مالاً عظيماً ، فسُعي به إلى اليزيدي ، فقبض عليه وصادره ، وضربه على أمّ رأسه حتّى نزل الماء من عينيه ، فمات أبو بكر ضريراً^(٣) .

٦ - إسحاق الأحمر والباقطاني :

روى الطبري في الدلائل بسنده عن أحمد بن الدينوري السراج : أنه حمل من أموال الموالي في الدينور ستّة عشر ألف دينار إلى بغداد ، وبحث عمّن أشير إليه بالنيابة - أي السفارة - ف قيل له : إنّ ها هنا رجلاً يعرف بالباقطاني يدّعي النيابة ، وآخر يعرف بإسحاق الأحمر يدّعي

(١) غيبة الطوسي : ٢٥٥ .

(٢) غيبة الطوسي : ٢٥٥ .

(٣) غيبة الطوسي : ٢٥٦ ، الغيبة الصغرى / محمد الصدر : ٥٠٧ - ٥٠٩ ، المجالس السنّة ٥ : ٦٨٩ ، في رحاب أئمة أهل البيت عليه السلام ٥ : ٢٤ ، بحار الأنوار ٥١ : ٣٧٧ .

شلمغان ، وهي قرية بنواحي واسط ، وكان شيخاً مستقيماً العقيدة والسلوك ، صالحاً متقدماً في أصحابنا ، حتى أن الشيخ أبا القاسم الحسين بن الروح نصبه وكيلاً عنه عند استتاره من المتقدر ، وكان الناس يقصدونه ويلقونه في حوائجهم ومهماتهم ، وكانت تخرج على يده التوقيعات من الإمام المهدي عليه السلام عن طريق ابن روح .

له من الكتب التي عملها في حال استقامته : كتاب التكليف ، وكتاب التأديب ، وكتاب الغيبة ، وكتاب الأوصياء ، وله كتب أخرى ذكرها النجاشي في رجاله .

ثم إنه حمله الحسد لأبي القاسم بن روح ، على ترك المذهب ، والدخول في المذاهب الردية ، وظهرت منه مقالات منكرة ، وأصبح غالباً يعتقد بالتناسخ وحلول الألوهية فيه .

وكان ابن أبي العزاقر وجيهاً عند بني بسطام ، وذلك أن الشيخ أبا القاسم بن روح عليه السلام كان قد جعل له عند الناس منزلة ووجهاً ، فكان عند ارتداده يحكي كل كذب وبلاء وكفر لبني بسطام ، ويسنده إلى الشيخ أبي القاسم عليه السلام وهو منه براء ، فأنكره الشيخ أبو القاسم عليه السلام وأعظمه ، ونهى بني بسطام عن كلامه ، وأمرهم بلعنه والبراءة منه ، فلم ينتهوا وأقاموا على تولّيه ، وذلك أنه كان يقول لهم : إني أذنت السرّ ، وقد أخذ عليّ الكتمان ، فعوقبت بالإبعاد بعد الاختصاص ، لأنّ الأمر عظيم ، لا يحتمله إلا ملك مقرب ، أو نبي مرسل ، أو مؤمن ممتحن ، فيؤكد من نفوسهم عظم الأمر وجلالته .

فبلغ أبا القاسم بن روح عليه السلام ذلك ، فكتب إلى بني بسطام بلعنه والبراءة منه وممن تابعه على قوله وأقام على تولّيه ، فلما وصل ذلك إليهم وأظهروه عليه ، بكى بكاءً شديداً ، ثم قال : إنّ لهذا القول باطناً عظيماً ،

وهو أنَّ اللعنة الإبعاد ، فمعنى قوله : لعنه الله ، أي باعده الله من العذاب والنار ، والآن قد عرفت منزلتي ، ومرَّغ خدي في التراب ، وقال : عليكم بالكتمان لهذا الأمر^(١) .

فلم يبقَ أحد ممَّن تولَّاه وصاحبه وغيرهم إلَّا وتقدَّم إليه الشيخ أبو القاسم وكتبه بلعن أبي جعفر الشلمغاني والبراءة منه ، وممَّن تولَّاه ورضي بقوله أو كلمه ، ثم ظهر توقيع من صاحب الزمان عليه السلام بلعن أبي جعفر محمد بن علي الشلمغاني والبراءة منه وممَّن تابعه وشايعه ورضي بقوله وأقام على تولَّيه ، بعد المعرفة بهذا التوقيع^(٢) .

وكان خروج التوقيع ضدَّه عام ٣١٢هـ ، وقال فيه الإمام المهدي عليه السلام : إنَّ محمد بن علي المعروف بالشلمغاني ، وهو ممَّن عجلَّ الله له النقمة ، ولا أمهله ، قد ارتدَّ عن الإسلام وفارقه ، وألحد في دين الله ، وادَّعى ما كفر معه بالخالق جلَّ وعلا ، وافتري كذباً وزوراً ، وقال بهتاناً وإثماً عظيماً ، كذب العادلون بالله وضلُّوا ضلالاً بعيداً ، وخسروا خسراناً مبيناً .

وإنَّا قد برئنا إلى الله تعالى وإلى رسوله وآله (صلوات الله وسلامه ورحمته وبركاته عليهم) منه ، ولعنناه عليه لعائن الله نترئ من الظاهر والباطن في السرِّ والعلن ، وفي كلِّ وقت وعلى كلِّ حال ، وعلى من شايعه وتابعه أو بلغه هذا القول منَّا ، وأقام على تولَّيه بعده .

وأعلمهم أنَّنا من التوقِّي والمحاذرة منه على ما كنَّا عليه ممَّن تقدَّمه من نظرائه من الشريعي والنميري والهلالي والبلالي وغيرهم ، وعادة الله عندنا جميلة ، وبه نثق ، وإيَّاه نستعين وهو حسبنا في كلِّ أمورنا ونعم الوكيل .

(١) غيبة الطوسي : ٢٤٩ .

(٢) غيبة الطوسي : ٢٤٨ - ٢٥٠ .

وقد صدر هذا التوقيع حين أُلقي القبض على الشيخ الحسين بن روح رحمته ، وأنفذه من السجن في دار المقتدر إلى أحد أصحابه ، وهو الشيخ أبو علي بن همام ، فوزّعه أبو علي توزيعاً عاماً ، ولم يدع أحداً من الشيوخ إلّا أقرأه إيّاه ، وكتب بنسخته إلى سائر الأمصار ، فاشتهر ذلك في الطائفة ، فاجتمعت على لعنه والبراءة منه ^(١) .

قال الراوي : وجدت بخط أحمد بن إبراهيم النوبختي وإملاء أبي القاسم الحسين بن روح رحمته على ظهر كتاب فيه جوابات ومسائل أنفذت إلى قم ، يسأل عنها : هل هي جوابات الفقيه رحمته - يعني الإمام الحجة رحمته - أو جوابات محمد بن علي الشلمغاني ، لأنه حكى عنه أنه قال : هذه المسائل أنا أجبت عنها ، فكتب رحمته إليهم على ظهر كتابهم : بسم الله الرحمن الرحيم ، قد وقفنا على هذه الرقعة ، وما تضمّنته فجميعه جوابنا ، ولا مدخل للمخذول الضالّ المضلّ المعروف بالعزاقري - لعنه الله - في حرفٍ منها ، وقد كانت أشياء خرجت إليكم على يدي أحمد بن بلال ^(٢) وغيره من نظرائه ، وكان من ارتدادهم عن الإسلام مثل ما كان من هذا عليهم لعنة الله .

وأراد الراوي التثبّت عمّا خرج من هؤلاء المنحرفين وهم في حال الاستقامة ، هل هو صحيح أم مزوّر ؟ فخرج الجواب من الإمام المهدي رحمته : على من استثبت فإنّه لا ضرر من خروج ما خرج على أيديهم ، وإنّ ذلك صحيح ^(٣) . وعليه فلا تنافي بين الانحراف المتأخّر وصحة القول والنقل المتقدّم حال إيمان الفرد واستقامته .

وسئل الشيخ ابن روح رحمته عن كتب ابن أبي العزاقري بعدما ذمّ وخرجت

(١) غيبة الطوسي : ٢٥٢ - ٢٥٤ ، معجم رجال الحديث ٧ : ٥٠ .

(٢) كذا ، ولعله أحمد بن هلال ، لأنّ ابن بلال هو محمد بن بلال .

(٣) غيبة الطوسي : ٢٢٨ .

فيه اللعنة ، فقليل له : كيف نعمل بكتبه وبيوتنا منها ملأى ؟ فقال : أقول فيها ما قاله أبو محمد الحسن بن علي صلوات الله عليهما ، وقد سئل عن كتب بني فضال فقالوا : كيف نعمل بكتبهم وبيوتنا منها ملأى ؟ فقال صلوات الله عليه : خذوا بما رووا وذرروا ما رأوا^(١) .

وحين أحسّ الشلمغاني بالتحديّ والمجابهة من قبل الشيخ ابن روح والمجتمع الموالي له ، أراد أن يباهل ابن روح ، فقد أنفذ محمد بن علي الشلمغاني إلى الحسين بن روح يسأله أن يباهله ، وقال : أنا صاحب الرجل - يعني الإمام المهدي (ع) - وقد أمرت بإظهار العلم ، وقد أظهرته باطناً وظاهراً ، فباهلني . فأنفذ إليه الشيخ (ع) في جواب ذلك : أيّنا تقدّم صاحبه فهو المخصوص .

فتقدّم العزاقرى فقتل وُصِّل ، وأخذ معه ابن أبي عون ، وذلك في سنة ٣٢٢ هـ^(٢) ، حيث أمر الراضي بالقبض عليه وقتله ، فقتل ، واستراحت الشيعة منه^(٣) .

قال ابن الأثير في الكامل في حوادث سنة ٣٢٢ هـ : وفي هذه السنة قُتل أبو جعفر محمد بن علي الشلمغاني ، وسبب ذلك أنه قد أحدث مذهباً غالياً في التشيع والتناسخ وحلول الإلهية فيه إلى غير ذلك ممّا يحكيه ...

إلى أن قال : فلما كان في شوال سنة ٣٢٢ هـ ، ظهر الشلمغاني فقبض عليه الوزير ابن مقلّة وسجنه ، وكبس داره ، فوجد فيها رقاعاً وكتباً ممّن يدّعي عليه أنه على مذهبه يخاطبونه بما لا يخاطب به البشر بعضهم بعضاً ، وفيها خطّ الحسين بن القاسم ، فعرضت الخطوط فعرّفها الناس ،

(١) غيبة الطوسي : ٢٣٩ .

(٢) غيبة الطوسي : ١٨٦ .

(٣) غيبة الطوسي : ٢٥٠ ، الغيبة الصغرى / محمد الصدر : ٥١٢ - ٥٢٢ ، المجالس السنّة ٥ : ٦٨٩ ، في رحاب أئمة أهل البيت (ع) ٥ : ٢٣ ، بحار الأنوار ٥١ : ٢٧٢ .

وعُرضت على الشلمغاني فأقرّ أنها خطوطهم ، وأنكر مذهبه ، وأظهر الإسلام ، وتبرأ مما يقال فيه ، وأخذ ابن أبي عون وابن عبدوس معه ، وأحضروا معه عند الخليفة ، وأمرأ بصفعه فامتنعا ، فلما أكرها مدّ ابن عبدوس يده وصفعه ، وأما ابن أبي عون فإنه مدّ يده إلى لحيته ورأسه فارتعدت يده ، فقبل لحية الشلمغاني ورأسه ثم قال : إلهي وسَيدي ورازقي .

فقال له الراضي : قد زعمت أنك لا تدّعي الإلهية ، فما هذا ؟ فقال الشلمغاني : وما عليّ من قول ابن أبي عون والله يعلم أنني ما قلتُ له إنني إلهٌ قطّ .

فقال ابن عبدوس : إنّه لم يدّع الإلهية ، وإنما ادّعى أنّه الباب إلى الإمام المنتظر مكان ابن روح ، وكنت أظنّ أنّه يقول ذلك تقيّة ، ثم أحضروا عدّة مرّات ومعهم الفقهاء والقضاة والكتّاب والقوّاد .

وفي آخر الأيام أفتى الفقهاء بإباحة دمه ، فصلب الشلمغاني وابن أبي عون في ذي القعدة وأُحرقا بالنار ، وكان من مذهبه أنّه إله الآلة يحقّ الحقّ ، وأنّه الأول القديم ، الظاهر الباطن ، الرازق التامّ ، الموماً إليه بكل معنى^(١) . ثم ذكر جملة عقائده الباطلة ، أعادنا الله منها ومن القائل بها .

٨ - الحسين بن منصور الحلاج :

لمّا قدم الحسين بن منصور الصوفي المشهور إلى بغداد ، أراد أن يغري أبا سهل إسماعيل بن علي النوبختي ، وهو من علمائنا الأجلاء في تلك الفترة ، وكان يمتّ إلى الشيخ ابن روح النوبختي رحمته الله بصلة نسب .

(١) الكامل في التاريخ ٧ : ١٠٢ - ١٠٥ .

وتخيل أنه ممن تنطلي عليه حيله وخدعه ، فكاتبه وادّعى له أنه وكيل الإمام المهدي عليه السلام ، وقد أخرج الخطيب البغدادي شيئاً من ذلك ، كما أخرج الشيخ في غيبته بعض التفاصيل حوله ، ويبدو من الروايات أنّ أبا سهل استطاع أن يكشفه ويفحّمه ويظهر عجزه ، فأمسك الحلاج عنه وأيس منه^(١).

وذهب الحلاج إلى قم ، فكاتب علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي عليه السلام وهو من أجلاء علمائنا ، وأبو الشيخ الصدوق عليه السلام ، وأدّعى له الحلاج أنه رسول الإمام عليه السلام ووكيله ، فلما وصل خطابه إلى ابن بابويه مرّقه ، وقال لرسول الحلاج : ما أفرغك للجهالات ! فقال له الرجل : فإنّ الرجل قد استدعانا ، فلم خزقت مكاتبتة ؟ وضحكوا منه وهزأوا به .

ثم نهض ابن بابويه إلى دكانه ومعه جماعة من أصحابه وغلّمانه ، وعندما وصل نهض لاحترامه كل من كان هناك غير رجل رآه جالساً في الموضع ، فلم ينهض له ولم يعرفه ابن بابويه .

فلما جلس وأخرج حسابه ودواته كما يكون التجار ، أقبل على بعض من كان حاضراً فسأله عنه فأخبره ، فسمعه الرجل يسأل عنه فأقبل عليه ، وقال له : تسأل عني وأنا حاضر ؟ فقال له ابن بابويه : أكبرتك أيّها الرجل وأعظمت قدرك أن أسألك . فقال له : تخرق رقعتي وأنا أشاهدك تخرقها . فقال له : فأنت الرجل إذن ؟ ثم قال : خذ يا غلام برجله وقفاه ، وسحبوه من الدار سحباً . ثم قال له : أتدعي المعجزات عليك لعنة الله ؟ فأخرج بقفاه . قال الراوي : فما رأيناه بعدها بقم^(٢).

وذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٣٠٩ هـ عقائد الحلاج الباطلة ، وأنّ

(١) غيبة الطوسي : ٢٤٨ .

(٢) غيبة الطوسي : ٢٤٨ - ٢٤٩ ، الغيبة الصغرى / محمد صدر : ٥٢٩ - ٥٣٢ ، في رحاب أئمة أهل

البيت عليه السلام : ٥ : ٢٢ ، بحار الأنوار : ٥١ : ٣٦٩ .

الخلافة ألقت القبض عليه ، وأفتى الفقهاء بإباحة دمه ، ولمّا سمع الحلاج ذلك ، قال : ما يحلّ لكم دمي واعتقادي بالإسلام ، ومذهبي السنّة ، ولي فيها كتب موجودة فالله الله في دمي ، وتفرّق الناس ، وكتب الوزير إلى الخليفة المقتدر العباسي يستأذنه في قتله ، وأرسل الفتاوى إليه ، فأذن في قتله ، فسلمه الوزير إلى صاحب الشرطة ، فضربه ألف سوط فما تأوّه ، ثم قطع يده ثم رجله ثم يده ثم رجله ، ثم قُتل وأُحرق بالنار ، فلمّا صار رماداً ألقي في دجلة ونصب الرأس ببغداد ، ثم أرسل إلى خراسان لأنّه كان له بها أصحاب^(١).

٩- محمد بن المظفر :

وهو المعروف بأبي دلف الكاتب ، وكان من المُخمّسة المشهورين كما قدّمنا ، ثم إنّهُ تولّى أبا بكر البغدادي ، واعتبر مذهبه هو الصحيح . وكان يدافع عنه بحرارة ، ويقدمه على الحسين بن روح عليه السلام ، حتى أوصى له أبو بكر البغدادي بعد وفاته^(٢) ، وأصبح بذلك مدّعياً للسفارة بعد السمرى ، وكان هذا علامة كذبه لدى الأصحاب .

وكان أبو دلف معروفاً بالإلحاد ، ثم أظهر الغلو ، ثم جُنّ وسُلسل ، ثم صار مفوّضاً ، ونقل عن بعض الرواة أنّه قال : ما عرفناه قطّ ، وما حضر في مشهدٍ من الناس إلّا استُخفّ به ، ولا عرفته الشيعة إلّا مدّة يسيرة ، ولا جماعة تتبرأ منه ومن يومئٍ ويتولّاه ، وأمره في الجنون أكثر من أن يحصى^(٣) .

نكتفي بهذه اللّمحات عن أولئك المشعوذين من الذين ادّعوا السفارة

(١) الكامل في التاريخ ٤٠٧ - ٦ .

(٢) غيبة الطوسي : ٢٥٠ و ٢٥٥ - ٢٥٦ .

(٣) غيبة الطوسي : ٢٥٤ - ٢٥٥ .

للإمام المهدي عليه السلام كذباً ودجلاً ليعبروا منها إلى تنفيذ أهدافهم وترويج مقالاتهم المنافية لعقائد الإسلام وأصوله الواضحة ، طمعاً في الأموال التي كانت تجبى إلى الإمام عليه السلام بواسطة وكلائه وسفرائه الأربعة ، وبدوافع أخرى لعلّ أصابع السلطة غير بريئة منها ، وقد أعلن الإمام المهدي عليه السلام ومن قبله آبائه المعصومون عليهم السلام عن كفر أمثال هؤلاء وإلحادهم ، وأمروا أصحابهم بلعنهم والبراءة منهم .

مساجد ومشاهد النّوَاب الأربعة للإمام المهدي المنتظر عليه السلام في بغداد
مدّة السفارة ٦٩ سنة ابتداءً من ٢٦٠ - ٣٢٩ هـ الغيبة الصغرى :

السفير الأول عثمان بن سعيد العمري الأسدي :

كانت سفارته بعد الغيبة من سنة ٢٠٦ إلى حين وفاته .

مرقده في مدينة السلام - بغداد - بجانب الرصافة ، قرب نهر دجلة
بالجانب الغربي من سوق الميدان قبلة المسجد المعروف بـ (مسجد
الدرب) .

ورد في (نزّه الحرمين) للسيد حسن الصدر : الشيخ عثمان بن سعيد
العمري ، من أولاد عمار بن ياسر ، قبره في قبلة (مسجد درب)
يسمى درب الميدان ، وهو النائب الأول عن صاحب الزمان عليه السلام ،
وفي (سفينة البحر) للشيخ عباس القمي : قبره بجانب الغربي من مدينة
السلام بغداد في شارع الميدان في مسجد درب ، والقبر في نفس قبلة
المسجد .

قال الشيخ الطوسي عليه السلام : كنا ندخل إليه ونزوره مشاهرة ، وكذلك من
وقت دخولي بغداد سنة ثمان وأربعمائة إلى نيّف وثلاثين وأربعمائة ،

وأضاف قائلاً: وعمل الرئيس أبو منصور بن محمد بن فرج عليه صندوقاً، ويتبرك جيران المحلة بزيارته.

وقال الشيخ محمد حرز: وقفت على قبره سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م وكان قد كتب على واجهة بابه من سوق الميدان (هذا مسجد نائب الإمام عليه السلام عثمان بن سعيد العمري العسكري بتاريخ ١٣٤٨ هـ).

وكان على قبره قبّة صغيرة، وكان يقيم الصلاة فيه جماعة ويبلغ فيه أيضاً الأحكام الشرعية سماحة السيّد حسن الحيدري الحسني.

السفير الثاني الشيخ أبو جعفر محمد بن عثمان بن سعيد العمري الأسدي المعروف بـ (الخلّاني):

استلم السفارة بعد وفاة أبيه، وتوفي سنة ٣٠٥ هـ جمادى الأولى، مدّة سفارته خمسة وأربعون عاماً، ومرقده شاخص ببغداد بالرصافة، بالشارع المؤدي إلى باب الكوفة قديماً، والآن يقع في «محلّة الخلّاني» نسبة إليه وإلى مرقده الطاهر، وهو أحد المراكز الشيعية في بغداد، واليوم ظهر مرقده في شارع الجمهورية العام، وله حرم مجلّل إلى جانب جامع عامر بالمصلّين، أمامه صحن واسع، وفيه مكتبة عامرة ذات كتب قيمة، تعرف بمكتبة الخلّاني تأسست سنة ١٣٦٤ هـ.

قال بعض فضلاء الكرخ والزوراء أنه لقّب بالخلّاني نسبة الى بيعه الخلّ، حيث كان يكتسب به تستراً بالكسب عن ضغط بعض المتعصّبين من أهل الخلاف، كما كان والده عثمان بن سعيد يبيع السمن حتى عرف بالسّمّان، وقيل: إنّ من حلمه وورعه وعقليّته الجبّارة، ووداعته وصفائه، وكان لا يحمل حقداً على أحد قطّ فهو خِلّ لكل إنسان، صاحب وصديق، فاشتهر عند الناس بالخلّاني.

والجامع الذي يضم مرقده يقع وسط بغداد على شارع الجمهورية ،
الذي افتتح حديثاً قرب باب الشرقي . وكتب على باب الجامع الذي يلي
المرقد الشريف هذه الأبيات عند تجديده سنة ١٣٤٥ هـ :

معبد شَرَفَه اللهُ بقبرٍ سند فيه نائب المهدي محمّد
شاده زيدان في جدٍّ ومالٍ وأخوه القاسم الشهم الممجد
عمّراه عمّر الرحمن قصراً لهما في جنّة الخلد مخلّد
قد أتمّاه بناءً أرّخاه «معبد أسس في ذكر محمّد»

السفير الثالث الحسين بن روح النوبختي :

الشيخ أبو القاسم بن روح بن أبي بحر النوبختي ، ثالث السفراء في
الغيبة الصغرى للإمام الحجّة بن الحسن صاحب العصر والزمان (عج) ،
مرقده ببغداد جانب الرصافة ، مشهور ومعروف مشيّد عامر ، فوق قبره
شبّاك مجلّل ، يزدحم عليه الزائرون والمتعبّدون وتقام فيه الصلوات
المفروضة جماعة من بعض أئمة علماء الشيعة الإمامية ، وآخر عالم لهذا
الجامع - عندما كنت في بغداد - السيد جعفر شبّر .

يقع قبره في (النوبختية) في الدرب الذي كانت فيه دار علي بن أحمد
النوبختي النافذ إلى التلّ والدرب الآخر إلى (قنطرة الشوك) ، بهذا عرفت
قديمًا ، كما صرّحت به النصوص التاريخية ، وفي عصرنا يعرف موضع
قبره في (سوق الشورجة) التجاري ببغداد في زقاق غير نافذ ، ويعدّ
مرقده اليوم من مراكز الشيعة الإمامية ببغداد^(١) .

استلم السفارة بعد وفاة الشيخ الخلّاني سنة ٣٠٥ هـ إلى يوم وفاته ﷺ
في شهر شعبان من سنة ٣٢٦ هـ فكانت مدّة سفارته ٢١ سنة .

(١) مراقّد المعارف؛ للشيخ محمد حرز ١ : ٢٤٩ ، طبعة قم ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .

السفير الرابع والأخير أبو الحسن علي بن محمد السمرى :

تولّى السفارة بعد وفاة سلفه الحسين بن روح النوبختي عليه السلام في شعبان سنة ٣٢٦ هـ، وانتهت سفارته بوفاة في النصف من شعبان سنة ٣٢٩ هـ، فكانت مدّة سفارته عليه السلام ثلاث سنين كاملة ، وبوفاة انقطعت سلسلة السفراء للإمام الحجة عليه السلام فكانت الغيبة الصغرى التي دامت ٦٩ سنة ابتداءً من سنة شهادة الإمام الحسن العسكري عليه السلام سنة ٢٦٠ هـ إلى وفاة السمرى سنة ٣٢٩ هـ.

وبدأت الغيبة الكبرى ولا يعلم إلا الله تعالى مداها ويسمح له بالفرج حتى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً ، عجل الله فرجه الشريف .

ومرقده لا يزال شامخاً للعيان جنب جامع كبير معروف باسم (مسجد القبلانية) واقع في سوق السراي (وكان معروفاً بسوق الهرج) ببغداد قرب نهر دجلة ، قرب (المستنصرية) في الضفة اليسرى من نهر دجلة ، وهو اليوم عامر وعليه قبة يزوره المسلمون خصوصاً وفود الشيعة الإمامية ، فهو يعتبر من مراكز الشيعة في بغداد .

ورد في (فلك النجاة) للحجة السيد القزويني ، وفي (نزهة الحرمين) للبحاث المتتبع السيد حسن الصدر : إنّ قبر علي بن محمد السمرى ببغداد في سوق الهرج في حجرة من مسجد له شبّك في السوق المذكور على يسار الداخل إلى السوق .

قال الشيخ محمد حرز : وقفت على قبره سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م ، وكان على المرقد صندوق خشبي فوقه ستارة ، تطلّهُ قبة شامخة ومنارة للمسجد ، كما يشاهد قبره من السوق من شبابيك ثلاثة ، وله كتيبة نقشّت بالقاشاني الأزرق كتب عليه اسمه ولقبه .

نحو إنقاذ التاريخ الإسلامي

✽ الشيخ مسن بن خرمان المالكي (المجاز)

نشرت صحيفة الأمة اليمنية بعددها (١٦٢) المورخ في ١٠ / جمادى الأولى / ١٤٢١ هـ. ق الموافق ١٠ / ٨ / ٢٠٠٠م مقابلة مع الشيخ حسن بن فرحان المالكي أحد علماء الحجاز، إرتأينا نشر أهم ما جاء فيها كراي في باب رأي.

بطاقة شخصية وتمهيد:

أنا من مواليد بني مالك / تابعة لمنطقة جازان شرقاً بحوالي (١٥٠) كم مرتفعات جبلية ، يمكن أنكم تسمعون بمنطقة مهمة أسمها «فيفا» فنحن شرق «فيفا» ونحن من قبيلة خولان .



درست الابتدائية والمتوسطة في بني مالك ، والثانوية في فيفا ، ثم ذهبت إلى الرياض جامعة محمد بن سعود الإسلامية كلية الدعوة والإعلام ، دخلت قسم الإعلام «١٤٠٨» هجرية ، وكنا نحضر أثناء الدراسة في الإعلام ونحضر في المساجد دروس الشيخ ابن باز ،

والشيخ ناصر العاقول ، وعبدالرحمن بن أحمد ، ومجموعة من العلماء وداخل السكن كان الشيخ الموريتاني محمد الحسن الدو وغيرهم .
وكنا مهتمين بالقراءة ، وصادف أن وجدنا أثناء التدريس في السنة الأولى الجامعية تعصباً واضحاً ضد أهل البيت ، كانت نقطة الشرارة التي خلقت فينا هذا الانتباه ، لهذا كنا نعلم للأسف تاريخاً مشوهاً ، وكأننا في العهد الأموي تماماً .

إن الاجتهادات الفردية للأسف كان لها أثر سيء على بعض المقررات، سواء في وزارة المعارف أو في الجامعات ، فبعد التنبيه لهذا لاحظنا أنهم كانوا يضعفون التهم ضد بني أمية ، مثل سب الإمام علي ، واستلحاق زياد، وموقعة الحرة ، وما أشبه ذلك ، ثم لما بحثتها ورجعت للمصادر السنية المشهورة من كتب الحديث الستة ، ومستدرک الحاكم ومصنف ابن أبي شيبة ، ومصنف عبدالرزاق ، أبي يعلى الطبراني كل هذه قرأتها واستخرجت منها هذه الأحداث ، سواء كانت في أحاديث مرفوعة أو في روايات صحيحة ، واكتشفت الهوة الواسعة الكبيرة بين السنة الحقيقية في مصادرها ، وبين السنة المدعاة في جامعاتنا وندواتنا وخطبنا ، ومؤلفاتنا ورسائلنا الجامعية ، كان هذا بداية الشرارة ، ثم بدأت ولم تنته المرحلة الجامعية إلا وأنا أرد على د . عبد الحليم عويس وهو دكتور مصري ، كان مرجعاً عندنا في الكلية ، نفى أموراً عن بني أمية - فرددت عليه في صحيفة «اليمامة» ورددت على الاستاذ محمود شاكر - وهو غير الأديب المشهور ، وهو سوري له سلسلة التاريخ الإسلامي .
بعد تلك المقالات تواصل الهم في الردود وأصبح الهم التاريخي والبحثي واكتشاف الفرق بين ما ندعيه من نظريات وما هو مطبق ، أصبح اكتشاف هذه الهوة بين النظرية والتطبيق هي همي الأول فلذلك جمعت الردود بعد

ذلك حيث أصبحت هناك ردود فقهية مع الدكتور صالح الفوزان وهو عضو في هيئة كبار العلماء ، وحول بعض المقررات الجامعية ، واستمرت الردود والكتابات الصحفية إلى أن جمعت مجموع المقالات الصحفية التاريخية في كتاب الرياض المعنون بعنوان : (نحو إنقاذ التاريخ الإسلامي) وهو ضمن سلسلة تصدرها صحيفة «الرياض» السعودية ، وأحمد الله أنه وجد القبول سواء داخل المملكة العربية السعودية أو خارجها وهو الكتاب الوحيد تقريباً الذي عليه طلب كبير جداً، إن طبعته الثانية منعت ، التي كنت قد طبعتها وأدخلتها ، وبقيت في الجمارك سنة ونصف تقريباً ثم اضطرت إلى إعادتها خارج المملكة .

وأيضاً ألفنا كتاب «بيعة علي بن أبي طالب» بالاشتراك مع أهلي أم مالك الخالدي ، وعندي بعض الأبحاث الجاهزة للطباعة ، مثل قراءة في كتب العقائد ومذكرة مماثلة مطبوعة على الكمبيوتر لم تطبع في كتاب اسمها «الصحبة والصحابة بين الإطلاق اللغوي ، والتخصيص الشرعي» توصلت فيها إلى أن الصحابة هم : المهاجرون والأنصار فقط الممدوحون في الكتاب والسنة، وقد يخرج الواحد والإثنان أو الأربعة والخمسة بأدلة خاصة من هذا ، أما من بعد المهاجرين والأنصار فلم يصح فيهم ثناء يعني لم تصح فيهم أحاديث ولم ترد فيهم آيات في مدحهم إلا بشكل عام بقيد الإتيان بإحسان ، كما قال عز وجل : ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ وكذلك عندي كتاب «المؤاخاة الكبرى بين النبي ﷺ والإمام علي» التي نفاها ابن تيمية وهو رد على ابن تيمية في هذا الجانب ، ورد على ابن كثير وعلى الدكتور أكرم العمري ، وغيرهم ممن قلد ابن تيمية في نفي هذه المؤاخاة التي ثبتت ، وأمثال هذه من المؤاخذات : «الشيعة والتشيع في القرون

الثلاثة الأولى» والنصب والنواصب عبر العصور . وعبدالله بن سبأ بين الحقيقة والأسطورة ، وأمثال هذه الأبحاث «معاوية بن أبي سفيان قراءة في المناقب والمثالب» .

كنت أول ما دخلت في علم الحديث ودرست في المرحلة الجامعية؛ كانت إدعاءات كبرى بأن أهل الحديث ومنهج أهل الحديث كفيل بتصحيح الروايات ، ويأتون في التطبيق وينفون أشياء قد أثبتها أهل الحديث، ويثبتون أشياء قد نفها أهل الحديث ، فأدنى هذا عندي إلى التشبع بالنظرية ومحاكمة التطبيق في ضوء هذه النظرية ، مع الزمن كنت أرى أن هذا المنهج هو الوحيد تقريباً ، المنهج السليم في دراسة المرويات التاريخية ، بعد التطور الفكري الذي تحوّل للباحث ؛ لاحظت أن منهج الحديث هو منهج من المناهج التي عليه أيضاً إشكالات وعليه أيضاً نقد ، وأهل الحديث هم جملة من تلك الفرق التي تنازعت ، كانوا ضد أهل الرأي وأهل الرأي ضدهم ، وضد المعتزلة وضد الشيعة ، وفي نزاعات متبادلة لكن في الوقت نفسه هناك خير كثير داخل منهج الحديث ، سواء في النظرية أو في التطبيق ، لكن نظرياً ينبغي أن نفرق بين أهل الحديث أن هناك من المحدثين من كان منهجه أقوى من بعض مثل منهج يحيى بن معين في سبر مرويات الراوي وكذلك ابن عدي أقوى من منهج مثلاً ابن أبي حاتم أو أبو زرعة ممن يأتي ، والذين هم مكثرون في الجرح والتعديل شعبة ١٦٠ هـ، سفيان الثوري ١٦٠ هـ، هؤلاء لهم كلام كثير في الجرح والتعديل ، ثم جاء بعدهم ممن له كلام قوي يحيى بن سعيد القطان، عبدالرحمن بن مهدي «ت ١٩٨ هـ» ثم ممن بعدهم ممن له إكثار تلاميذهم علي بن المديني ، ويحيى بن معين ، وأحمد بن حنبل ، ومن بعدهم البخاري ومسلم ، أبو زرعة ، وأبو حاتم «٢٧٥ هـ» ، ثم النسائي

«٣٠٣ هـ» ، ثم العقيلي «٣٢٢ هـ» ثم ابن علي «٣٦٥ هـ» وبعدها تقريباً انقطعت مسألة الجرح والتعديل وأصبحت تقليدية ، إلا من تجرأ كالدرد قطني ، جاء عام «٣٨٥ هـ» فكان يسبر أحياناً مرويات الراوي ، وأجاد أو أبدع في كتابه «العلل» وضعف أحاديث حتى في الصحيحين أثبت أنها مرسلة ، أو منقطعة وما أشبه ذلك أو أن اللفظ هذا أولى من هذا وما أشبه ذلك ، فهذه مناهجهم تختلف ، أما المتأخرون مثل ابن حجر ، والذهبي ، فمقلدون .

أنا لي نقد على «تقريب التهذيب» للحافظ ابن حجر ، راجعت «تقريب التهذيب» مع أصليه «تهذيب الكمال» وخاصة «تهذيب التهذيب» ونقدته ... كل التراجم استدركت عليها ، بعضها صحيح عندما يقول ثقة ، أو ضعيف ، لكن البعض أيضاً غير صحيح ، البعض يذكره بالحمية ويذكره بالإسم ، فيختلف الحكم هنا صدوق وهنا ضعيف ، وهو شخص واحد ، يقول : وهو صدوق ، «انظر الكتاب» تصل هناك وتجده مقبولاً أو ضعيفاً . ويختلف أيضاً أحكام التقريب والتهذيب عن فتح الباري عن التلخيص لحبير وغير ذلك ، الذهبي كذلك ، والذهبي ربما هو أشد من ابن حجر في مسألة التأثير بالشامية والتركيبية الشامية كما تعرف ابن تيمية وابن كثير والذهبي لكن الذهبي أخفهم ، متأثرون ومنحرفون عن أهل البيت ، ويحبون بني أمية ومواليهم وعلماء الشام ، ويبالغون فيهم .

منهج أهل الحديث الآن بعد هذا التطور الفكري الذي حصل إزاء منهج من المناهج التي تساهم في دراسة التاريخ ومعرفته ، لأنها تركز على الإسناد ، لكن هناك أموراً أخرى ، ملابسة النص ، ظروف النص ، التأثير السياسي ، التأثير المذهبي وما أشبه ذلك كل هذه المناهج الحديثة التي حدثت لابد أن نلاحظها في دراسة التاريخ .

تقويم عام لكتابات المؤرخين الإسلاميين :

التراكم التاريخي والمذهبي والخصومات تؤثر في كتابات المؤرخين الإسلاميين خاصة ، وأنا أقول إسلاميين لأنني أزعـم أنني مؤرخ إسلامي والمؤرخ الإسلامي ليس نظرية وإنما يجب أن يلتزم بمنهج من الصدق، والعدل ومحبة العدل وأهله ، وبغض الظلم وأهله .

المؤرخون الإسلاميون المعاصرون للأسف متأثرون ، أولاً أن هناك هشاشة علمية وضعفاً علمياً بليغاً ، فالدراسات التي نقدها تدعى نظرياً منهج أهل الحديث ، وهي مصابة بتأثير في الماضي الخصومات المذهبية ، وتأثير في الحاضر نتيجة مثلاً الموقف العربي من إيران أثناء أزمة الخليج الأولى ، دفع الرسائل الجامعية لإنتاج بعض المؤلفات، وبعض الدراسات في نقد المذهب الشيعي وما أشبه ذلك ، ولم يصل هذا إلى نقد المذهب الجعفري أو الإمامي ، وإنما وصل الأمر إلى الأئمة الذين هم أئمة لأهل السنة والجماعة ، ولغيرهم يعني أئمة للسنة وللزيدية وللإمامية ، أمثال الحسن بن علي ، وزيد بن علي ، والإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ورضي الله عنهم جميعاً ، وعليهم السلام ، كل هذا ردة فعل . فالتأثير المذهبي التاريخي موجود والتأثير الحاصل للسياسات المعاصرة والنزاعات التي تحدث بين الحكومات السنية والحكومات المذهبية أيضاً لها أثر حتى وإن لم يكن هناك إحياء مباشر ولا غير مباشر .

مشكلة القرون الثلاثة الأولى :

مشكلة القرون الثلاثة الأولى مشكلة عويصة ، أولاً أن الرواية شفهية وكتب تاريخ القرون الثلاثة الأولى والدول تتعاقب ، والمذاهب تتناحر

والخصومات تتجاذب ، والكل يطلب الرواية ويطلب الحديث ... فأصبح هناك الموقف المسبق ، يحكم فتجد الذي يكتب وهو يريد تبرئة معاوية ، لن يبحث ولن يأخذ «حديث الفئة الباغية» ولا حديث «أول من يغير سنتي رجل من بني أمية» ولا حديث «الأغيلة السفهاء» مع ورودها في أحاديث صحيحة ولا «الملك العضوض» ولا غيره ، فيبحث مثلاً عن غزو قبرص وفتح قيسارية ، ويبحث عن هذه الأشياء ، ويبحث عن كلمة قالها وعدل في قضية وما أشبه ذلك ، فأصبحت عملية الانتقاء بمعنى أن الرأي المسبق هو الذي يحكم الرأي المذهبي ، أو الموقف من هذا الشخص أو ذاك .

ولو ركزنا على دائرتنا دائرة أهل السنة والجماعة أو دائرة السنية؛ لوجدنا المؤرخين للأسف ، المواقف المسبقة في الجملة هي في صالح السلطة الأموية ، إقرأ كتاباً معاصراً عن الدولة الأموية أو عن الخلافة الراشدة ، ثم ارجع إلى المصادر الأصلية في التاريخ ، ستجد الصورة تختلف في التاريخ ، ستجد على الأقل هناك أشياء قوية ، يعني في وسط الظلم الأموي والنكبات التي تعرض لها أهل البيت ، أو غيرهم من فئات المعارضة ، بينما لا تجد ذلك في الدراسات المعاصرة ، وخاصة الدراسات الإسلامية أو التي تتسمى بالإسلامية ، كأنما عندنا عقدة نقد تاريخنا بأننا إن نقدنا تاريخنا كأننا نقدنا أنفسنا ، فنحن نقدر بعقلية البدوي الذي يثني على جميع آبائه وأجداده وأنه لم يحدث منهم خطأ ، فإذا تخلصنا من هذه العقدة ونقدنا تاريخنا وعرفنا بأن هؤلاء بشر وليسوا ملائكة ، وأن من الظلم أن نحمل الإسلام هذه الأخطاء التي حدثت سواء من صحابة ، أو من غيرهم ، يجب أن يبقى «النص» بعيداً يعني غير متأثر ألا يلصق بأخطاء البشر ، أو ما نسميه بصمة التاريخ والجغرافيا،

فلذلك أنا كررت في لقاءات سابقة وقلت من الظلم أن نسمي الفتوحات في عهد بني أمية فتوحات إسلامية هي «استعمار أموي» استعمار عربي ، هذه الأشياء التي يجب أن نقولها ونعلنها للعالم ليعرف أن إسلاماً عندنا أعزّ وأهمّ من البشر ، أما أجدادنا فهم بشر يخطئون ويصيبون ، يعني هذا اللبس في التاريخ القديم فيه إشكالية رواية وإشكالية مذاهب وإشكالية روايات منقطعة ، مسألة الانتقاء ، مسائل كثيرة جداً ، وحتى الدراسات المعاصرة الآن .

لو تأخذ مثلاً قصة حرب «٦٧م» ستجد نفس التناقضات والتفسيرات كل فئة وكل حزب يبرر ويتهم ... ونحن معاصرون ! فمن باب أولى يحدث طبيعي ... التاريخ بحاجة إلى مجهود ، بحاجة الى مراتب ، بحاجة إلى خطوات من جمع المادة ، من حسن التصنيف ، من منهج تصنيف المادة إلى مقبول ومردود ، من حسن تحليل وتعليل وما أشبه ذلك .

الآثار التي خلفها التاريخ الإسلامي المدون على العلوم الشرعية والفكر والثقافة الإسلامية :

المشكلة أن أهل الحديث الآن أو المتدينين الذين هم أصحاب العلوم الشرعية عندهم ضعف في دراسة التاريخ هذا أولاً ، وليس التاريخ بهذا السوء ، إذا استثنينا مثلاً من المؤرخين في القرون الثلاثة الأولى سيف ابن عمر التميمي ، وأخرجناه من المؤرخين إلى قصاص الكذابين لخرج لنا تاريخ معقول ، لأن معظم الذين كتبوا التاريخ بخلاف هذا الرجل ، وأيضاً بعض المبالغين مثل ابن أعثم وغيرهم من المتشيعين بالغوا - حتى نذكر التوازن لا يقولون أنت تركز على سيف بن عمر الناصبي

وتترك ابن أعثم الشيعي - لكن أقول في الجملة: المؤرخون المشهورون «ابن اسحاق، والواقدي، والمدائني، وابن سعد، والبخاري في التاريخ الصغير أو الأوسط، ابن قتيبة، الطبري، أبو مخنف، وغيرهم» كل هؤلاء غالباً هم متدينون، صحيح أنه قد لا يستطيع أن يعبر عن أشياء لكن نجد من التاريخ عرفنا مظالم بني أمية، عرفنا أشياء كثيرة في عهد عثمان ... الخ، ولم يكن للسلطة هذه السيطرة الكاملة على المؤرخين لكن مشكلة العقل، مشكلة الظل أسميه «الظل السياسي» لا تستطيع النظرية السنية في العلوم الشرعية أن تخرج عن نظام الخلافة، نظرية الخلافة السنية ستكون نتيجة ردود أفعال للنظرية الشيعية، مشكلة المنظرين للسياسة المطروحة عموماً في السنة عندهم ضعف في التاريخ مثل أبي الحسن الأشعري الذي نظر لإمامة أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية بأنها بالكتاب والسنة والإجماع، فهو كأنه ألف «مقالات الإسلاميين والإبانة» من أجل الرد على النظرية الشيعية فهو قنن المنظومة السلفية التي كانت متفرقة قننها تحت دعاوى الكتاب والسنة والإجماع، وأصبحت دعوى الكتاب والسنة والإجماع دون نص، يعني يأتي إلى خلافة أبي بكر يقول: والدليل على خلافته من الكتاب ومن السنة ومن الإجماع، ليس هناك دليل من الكتاب في ذلك ولا من السنة ولا من الإجماع أيضاً، الإجماع جاء في الأخير يعني بالنسبة للبيعة إلى ستة أشهر هناك خلاف، في صحيح البخاري ثبت هذا، لكن بعد ستة أشهر، نعم حدث إجماع وحدث اتفاق بينه وبين بني هاشم، واستمرت الأمور، وبينه وبين الأنصار قبل ذلك، كلمة الإجماع - لا أقصد بها أنه كل شخص - بقي سعد بن عباد وبعض الأنصار عارضوا ولم يبايعوا أصلاً أبا بكر ولا عمر، لكن الإجماع إذا أطلقناه فهناك مراتب في الإجماع ومستويات فقد حدث نوع من الإجماع،

فأبو الحسن الأشعري كان متأثراً بالأطروحات المعارضة، فكان منظره للخلافة، فمشكلة المتدينين عندنا والعلماء الذين علموا العلوم السياسية لم يكونوا على علم بالتاريخ للأسف.

إن التاريخ الذي كتبه المؤرخون يختلف عن التاريخ الذي كتبه العقائديون، فمثلاً غيلان الدمشقي عندما ننظر إلى التاريخ الذي كتبه العقائديون نجده رجلاً ضالاً أراد أن يفسد الأمة.

أما إذا نظرنا إلى التاريخ الذي كتبه المؤرخون فهو رجل مصلح مجتهد داع للشورى والعدل والكتاب والسنة، وكذلك الجهم بن صفوان فالذي كتبه الطبري والمؤرخون هو هذا الكلام لكن التاريخ العقائدي يأخذ أقوال السلطة، ابن القيم مثلاً في الرد على قول خالد القسري في ذبح الجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليماً ولم يتخذ الله إبراهيم خليلاً، وهذا كان معارضاً سياسياً فذبحه.. لم نحصل على قول للجعد ولا تلميذ من تلاميذه، نقل هذا ولا مخطوطة، ليس عندنا أي شهادة على الجعد بن درهم إلا من خلال ذابحه، التاريخ نقل الواقعة، والمؤرخ مؤرخ ينقل لك أن خالد القسري كان ظلوماً جباراً سفاكاً للدماء... وكان يفضل خلفاء بني أمية على الأنبياء في رواية صحيحة عنه ومشهورة ومظالمة كثيرة، يأتي العقائديون ينقلون هذه الكلمة ويثنون على خالد القسري ويقولون شكر الله ضحيته وما أشبه ذلك، العقائديون ظلموا التاريخ، أما التاريخ، صحيح أنه تحت ظل سياسي، وتحت ظل حكومات قهرية، لكن معظم الذين شوهوا التاريخ هم العقائديون وليس المؤرخون باستثناء أفراد أمثال سيف وابن أعثم وفلان وفلان، بمعنى لو أعدنا كتابة التاريخ بهذا المنظور لأخرجنا الجهم بن صفوان بريئاً وداعياً للكتاب والسنة - وغيلان الدمشقي داعياً للكتاب والسنة، والجعد

ابن درهم داعياً للكتاب والسنة ... كلهم سيخرجون دعاة للكتاب والسنة حتى وإن اخطأوا والمعتزلة بجملتهم دعاة للكتاب والسنة ، لكن الفِرَق التي عليها نقد أكثرهم دعاة للكتاب والسنة ، أما أن تأتي ونقول أن الجهم بن صفوان تعلم على يهودي وأراد أن يهدم الإسلام ...» فهذه الأشياء التي قالها الخصوم ونقلوا لنا هذه الأقوال لهؤلاء لم يلتقوا بهم قالوها بعدهم ربما بسنوات طويلة فهذا لا يقبل في أي ميزان علمي ولا يقبل عاقل مثل هذه التهم ، فبال تأكيد لو أعدنا هذا سنكتشف بأن معظم الخصومات التي بنينا عليها عقائد وضد الجهمية ، ضد الجعدية ، ضد الغيلانية ، ضد المعتزلة ، ضد الزيدية ، ضد الشيعة ، ضد ... ضد ... سنكتشف أن هذه كلها ستذهب ادراج الرياح ونكتشف أنها نتيجة السلطة وليست نتيجة النص .

إن دعوة إعادة كتابة التاريخ الإسلامي تسبقها دعوة عامة ، وأظن أنني ذكرت النقاط باختصار قبل قليل عندما قلت بالاستيفاء والتصنيف والتحليل وما أشبه ذلك ، لكن أعود فأقول بأنه أولاً التاريخ بحاجة أن يقرأ قراءة قبل أن يكتب ، نحن من خلال كثير من الكتابات التي أراها والمؤلفات لم نقرأ التاريخ الإسلامي أصلاً حتى نكتبه ، نحن ننتقي ، نأخذ مجموعة انتقاءات ونزعم أن هذا تاريخنا وأننا نعيد ، كما في الكتابات التي تزعم الإعادة ، التاريخ الإسلامي لم يقرأ بعد ، صحيح أنه يجب أن نقرأ قراءة سليمة وأن نعيد القراءة والكتابة ، إعادة القراءة هذه ينبغي أن نستفيد من المناهج الأخرى لا نكتفي بمناهج أهل الحديث فقط ، ولا منهج مقارنة الروايات أي المنهج التاريخي ... أن نستفيد من الآثار ، من الوثائق ، من الاكتشافات ، من الخطط المكتشفة من المناهج العقلية ، من مناهج دراسة النص وتحليله وتفكيكه وما أشبه ذلك من أشياء كثيرة

جداً ينبغي أن تساعد جميعاً في إعادة القراءة ومن ثم الكتابة ، إذا استطعنا من خلال هذه الإعادة أن نفصل «إسلام النص» عن «إسلام التاريخ» فنكون قد قدمنا لإسلام النص خدمة جليلة لأنه هو الإسلام الذي ينبغي أن يعرض على العالم ،، وإسلام التاريخ نعرضه على الناس ونقول : خذوا نقدوا ، هذه أعمال بشر فأنقدوا ، أما هذا الوحي الخالص فلا ينقد .

إسلام النص وإسلام التاريخ :

للأسف أن الالتباس حصل من زمان ، يعني أخذنا نبرر الواقع التاريخي باعتبار أنه تطبيق نصي ، أو نضيفه للنص لتفسير النص ، وأصبح هناك تنصيص تاريخي ، أعطيك مثلاً ... حديث : «الأئمة من قريش» وحديث : «لا يزال هذا الأمر في قريش» ، وما أشبه ذلك ، هذا لم يحتج به أبو بكر يوم السقيفة ولم يعرفه أحد من المهاجرين ، ولا من الأنصار وإنما صنع فيما بعد ، كان أبو بكر يقول للأنصار : إن العرب لن تطيع أهل هذا الحي من قريش يعني رأياً سياسياً ، هذا الرأي السياسي أصبح فيما بعد «الأئمة من قريش» وهذا الحديث خارج الصحيحين طبعاً حتى لو كان في الصحيحين محل نقد ، متى بدأ وضع القرشية ؟ يوم تولى معاوية وأصبح عبدالله بن عمرو بن العاص يحدث بأنه «سيخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه» ، غضب وقال معنى كلامه - سمعت أن جهالك يمنوكم الأماني ، وأني صحبت الرسول ﷺ ... إلى أن يقول : وقد سمعت النبي ﷺ يقول : هذا الأمر في قريش إلى قيام الساعة - بمعنى أئمة أقاموا الدين ، كذلك عمرو بن العاص روى ذلك عندما قال أحد رجال بكر بن وائل - وهي قبيلة كبيرة جداً في العراق . إن لم تعدل

قريش لندفعن هذا الأمر في الغرب فقال : فإنني سمعت الرسول ﷺ ، معنى الأمر ليس في قريش ، والنبي ﷺ لا يقول إلّا حقاً ، فهذا التنصيص إما وضع على لسان معاوية وعمرو بن العاص ، أو أنهم شاركوا في هذا التنصيص ، فالمهم أنه من خلال هذا الأثر وأحياناً نظريات وأحياناً واقع تاريخي ، له أثر في التنصيص ، وأحياناً الواقع التاريخي يؤثر في تفسير النص ، فيصبح النص يفسر بأن تطبيقه هو هكذا ، مثل تفسير الشورى تفسير البيعة يعني أصبحت غير واضحة ، أي متأثرة بالواقع التاريخي كثيراً .

فمن قرأ التاريخ عرف تاريخ الحديث ، تاريخ الفقه ، تاريخ العقيدة ، كل هذه تواريخ ، كل هذه مسيرات تاريخية ، ولها داخل دائرة التاريخ الكبرى ، فأنت تدرس مثلاً تدوين التاريخ ، تدوين السنة متى بدأ ؟ ثم الرواية الشفهية ثم الرواية بالمعنى ، بنفس المنهج تستطيع أن تعرف الصحيح والضعيف والمشكوك فيه في كتب الحديث ، ولولا التاريخ ما استطعنا أن نضعف أصلاً معظم تضعيفات الرواة ، وتوثيقاتهم مبنية على أنباء تاريخية ، أنه ادعى السماع من فلان ولم يسمعه فلان ، وفلان عن فلان ، هذا دلسه فلان ... كثير جداً بل أن كتب الجرح والتعديل كان يسميها أصحابها التاريخ ، التاريخ ليحيى بن أعين والتاريخ لابن أبي حاتم ، وما أشبه ذلك ، مجموعة من كتب التاريخ وهي كتب الرجال ، نعم الحديث له نفس المنهج النقدي المتكامل الذي لا يهمل لا العقل ولا مقارنة المتن ، ولا معرفة الرواة ولا سبر مرويات الراوي ، ولا السلطة المذهبية ولا السلطة المجتمعية ... كل هذا مطلوب في دراسة الحديث مثلما هو مطلوب في دراسة التاريخ .

ضرورة إنقاذ السنة النبوية :

لا شك أن السنة النبوية عندنا أهم لدراساتها وتنقيتها مما دخل فيها من زيف ، وللأسف أن المناهج القائمة اليوم ... والمتصدرون الذين يعملون على تصحيح الحديث يفتقدون المنهجية الكاملة ، وليست لهم قراءة تاريخية متعمقة ومعرفة فائقة بالعقل وما يخالفه ، ومعرفة بالأصول العلمية للإسلام ، أنا أعرف مثلاً من المحدثين في معرفة الرواة ممتاز لكنه إذا قال أحمد بن حنبل عن فلان أنه ضعيف أو أنه لا يروى عنه ... لا يعرف الخلفية التاريخية التي قال فيها أحمد هذا النص ، وهل أحمد هذا في ضوء خلفية تاريخية معينة قال النص أو لم يقل في ضوء خلفية تاريخية ؟ إذا كان قال لا يروى عنه مثلاً قبل محنة خلق القرآن ، اختلف عن هذا القول إذا كان بعد المحنة ، إذا هذا الشخص الذي قال لا يروى عنه ، إذا كان يقول بخلق القرآن ، أو متوقفاً اختلف إذا لم يكن يقول بهذا ... ، إذا قال أحمد لا يروى إذا ضعفه فيمشي على هذا ، ويعتبر أن أحمد ضعفه ، هذا منهج ناقص ، فالخلفية التاريخية مهمة جداً قراءتها وأيضاً الرواية بالمعنى بإجماع المحدثين أنفسهم أنهم يروون بالمعنى ويروون بالألفاظ ، تروى النصوص مبتورة ولا تروى بسياقاتها الكاملة ، النهي عن تدوين السنة في البداية كما بقيت قرن تحفظ في الصدور ولم تدون في الجملة إلا في صحائف معدودة ، هل الذاكرة تحتفظ بهذا عبر هذه السنين ؟ ثم الحديث الواحد الذي يروى عن النبي ﷺ نجد له أكثر من لفظ في مناسبة واحدة ، وأحياناً الألفاظ قد تكون متناقضة ، إذا ما هو باللفظ الصحيح ؟ هذه إشكالات كبرى تعني أن هناك كتابين عرضا لهذا بقوة رغم أن لي ملحوظات على الكتابين ، لكنهما في الجملة قدما شيئاً جيداً هما كتاب «أضواء على السنة المحمدية» لمحمود أبو رية وكتاب السلطة

في الإسلام» لعبد الجواد ياسين وغيرهم لكن المحدثون يتناولون هذه الأشياء من ناحية نظرية فقط ، أنه ينبغي أن لا يغفل الخصومات المذهبية مثلاً ، يقولون هذا من ناحية نظرية لكن من واقع لا يوظفون الخصومات المذهبية وإنما يوظفون الخصومات المذهبية إذا كان في صالح تضعيف هذا الحديث أو في صالح الأئمة الذين ينتمون إلى مذهبهم ومنهجهم .

ويظل منهج المحدثين في التعامل مع الحديث يقتصر على السند دون المتن ، ألا ترون بأن هذا المنهج غير كافٍ في التعامل مع الحديث وتمييز صحيحه عن سقيمه ؟

أولاً : ليس على الإطلاق أنهم يتعاملون مع الإسناد دون تركيزهم . نقول على الإسناد أكثر ، هم يضعون في النظرية بأن الحديث إذا خالف العقل أو خالف القرآن فيرد . هذا من ناحية نظرية جميل ، من ناحية تطبيقية لا يوظفون هذه النظرية توظيفاً متكاملاً لأسباب ، ربما أحياناً المحدث يقول : أنا سأبحث فيما بعد لأنني لا أستطيع أخذ الحديث واستعرض السنة أو القرآن ، وأعرف هل عارض أو لم يعارض ، يعني أحياناً يتجاوزون في الجمع . ثم يأتي من أراد أن يجدد وقد حلم الأديم كما يقال يعني انتهت الأمور . رواه فلان وهو إمام في مسنده ورواه في صحيحه وانتهت الأمور ، فذلك لم يكن عندهم الإثبات التي يستطيعون بها محاكمة المتن ، أيضاً الخصومة بين أهل الرأي وأهل الحديث خاصة . في عهد المتوكل جعل لأهل الحديث شهوة عارمة في جمع المرويات إلى أن جمعوا أشياء لا تصدق أبداً ، ولا أدري كيف ؟! حتى سجلها المحدثون والمؤرخون ؟! أهوال لا يمكن تصديقها ، أكاذيب لا يمكن أن يقولها عاقل فضلاً عن النبي ﷺ ، فهذا الكم وهذه الشهوة في النقولات كانت نتيجة لأهل الرأي والمعتزلة المتوجسين من هذه الكثرة الذين كانت لهم آلياتهم

ربما المبالغة أحياناً في رد أحاديث صحيحة ، فأدّى هذا إلى غلو مضاد عند المحدثين فهم فرقة من الفرق المتنازعة .

إن أهل الحديث اجتهدوا وسافروا وارتحلوا وجزأهم الله خيراً ، تعبوا في الجمع فمن باب التقدير بدأ الثناء ، وكان عند كثير منهم صلاح وقوة علم فأخذ الثناء ونحن يغرنا الثناء فإذا قبل العلامة الجهيد فلان يعني لا نستطيع أن ننقد مروياته ، نقول هؤلاء سلف قد أمضوا حياتهم ، ونقرأ قصصهم في التنقل والترحال من بغداد إلى صنعاء إلى مصر ، ونقول هم فعلوا فنحن ماذا عملنا ، ونقرأ سيرهم في العبادة والزهد فيغرنا هذا ، نعم المحدث إن شاء الله يوفيه الله أجره بغير حساب وأن يؤجره على هذا التعب والاجتهاد ، لكن عملية العلم نفسها لا ينبغي أن تتوقف عند هذا ، يبقى طرح الإشكالات يبقى محاكمة النصوص يبقى ... يبقى ... أشياء كثيرة نفس آليات النقد التي تحدثنا عنها .

طبعاً هذا يحتاج إلى دراسة نحن نعطي انطباعات عامة وقد تكون خاطئة وقد تكون صائبة ، لكن الأصوات تأتي ثم تأتي أصوات تنقد ثم تصبح هذه الأصوات ظاهرة ، ثم يأتي من ينقد هذه الأصوات الظاهرة .

وهكذا فنحن نقول اليوم قولاً ننقد به آخرين ونتمنى بل ندعو من يأتي بعدنا وينقد أقوالنا هذه ليبني فوقها نقداً آخر ، لأن التاريخ ليس ملكاً لي ولا لفلان أو فلان ، التاريخ ملك للأمة ، صحيح التاريخ ملك للأمة ، صحيح التاريخ ملك للإسلام نفسه ينبغي أن يصحح ... أنا مررت بفترتين : فترة ارتفاع النص ، واللامذهبية وما أشبه ذلك ، وجدت اللامذهبية هي مذهبية حقيقة ، ولكن مذهبية أشد في الدعاوى العريضة الكبيرة ، ينبغي على المذهبيات أن تتلاقى تتفاهم تتحاور تبحث بحثاً

هادئاً ، كل مذهب يعترف بوجود الآخر ، أما إلغاء الآخر فهو أخطر مسألة عندما لا أعترف بالآخر ، وهي من المسائل التي لا تسبب إلا مزيداً من التفرق والنزاع ، والتشدد .

نحو إنقاذ التاريخ الإسلامي :

أولاً : أنا توقفت في مسألة هل أن عبدالله بن سبأ موجود أم غير موجود ؟ ولا يهمني إن كان ابن سبأ موجوداً أو غير موجود ، لأن المبتدعة والزنادقة واليهود النصاري موجودون عبر التاريخ ، لهذا فقضية الوجود لا تهمني من قريب أو بعيد ، يهمني ذلك الدور السياسي الذي زعمه سيف بن عمر التميمي لعبد الله بن سبأ بأنه تنقل في البلدان ، وأنه تمكن من إغراء الناس وهو مطارِد وفي سنتين استطاع أن يهدم دولة ويقيم دولة أخرى وأنه بقي الحاكم القطبي - في نظر سيف - في الجمل وفي المسير وفي بيعة علي وفي أشياء كثيرة ، وأن من تلاميذه عمار بن ياسر وأبا ذر الغفاري وغيرهما من الناس الذين أثر عليهم ... هذا مضمون رواية سيف ، هذا الدور باطل لم يذكره المؤرخون ولا النسابون ولا الثقات ولا الكذابون في الثلاثة القرون الأولى غير سيف بن عمر التميمي ، أما الوجود ، صحيح أنه وردت روايات من غير طريق سيف تتحدث عن وجوده ، لكن تلك الروايات نفسها متناقضة بداية من اسم ابن سبأ مرة عبدالله بن سبأ ومرة الحميت الأسود ، مرة عبدالله بن السوداء ، مرة عبدالله بن وهب الراسبي ، مرة عبدالله بن حرب ، مرة عبدالله بن أبي الأسود ... أسماء كثيرة ، ولكنها متناقضة في المضمون ، مرة أن الإمام علي أراد أن يقتل ابن سبأ فشفع فيه عبدالله بن عباس ، مرة عن جابر بن عبدالله يقول : فنفاه علي إلى المدائن فهناك الرافضة ،

والقرامطة ... متى يقولها جابر؟ يقولها جابر بن عبد الله المتوفي عام «٨٧ هـ» ومصطلح الرافضة لم يظهر إلا عام «١٢٢ هـ» بعد حركة زيد بن علي، ومصطلح القرامطة لم يظهر إلا عند الثلاثمائة على رأس الثلاثمائة، فحتى الروايات الأخرى التي تتحدث عن الوجود، روايات متناقضة، فيها غموض ... ولكن على افتراض ثبوتها على هذه العلل، إنما تتحدث عن دور ديني باطني يقوم به عبد الله بن سبأ، أما الدور السياسي وهو «٩٥٪» مما نتحدث عنه من أنه كان في الحرمين ولم يجد فرصته ثم انتقل إلى البصرة فطرده ثم إلى الكوفة فطرده ثم إلى الشام وطرده، ثم مصر ... وهو مطارّد استطاع أن يشكل جيوشاً فيهم صحابة رضوانيون وفيهم تابعون أصلاء، وفيهم طبعاً خليط من الأحزاب وما أشبه ذلك. وثور البأس على عثمان وإن الأوضاع كانت هادئة، كل هذا كذب بحت تخالفه جميع الروايات الأخرى التي ذكرها المؤرخون الثقات والكذابون على حد سواء، والنسّابون والمحدثون والفقهاء في القرون الثلاثة الأولى بل لم يذكر هذا الكلام إلا سيف حتى بعد سيف، أنا لم أجد رواية تذكر دور ابن سبأ إلا عن سيف بن عمر التميمي، فالدكتور عبدالعزيز الهلابي يرى نفيه مطلقاً أيضاً السيد مرتضى العسكري، وطه حسين كان يشك في وجوده، أنا أقول الروايات التي وردت في وجوده لا تهمني لأنها على كثرتها وهي حوالى «١٦ رواية» تتحدث عن أحداث بسيطة يسيرة جداً دينية مذهبية فيها نوع من الباطنية أو من الغموضية، أما الدور السياسي هذا فهو الذي أركز عليه وهو الذي منه الضرر ومنه تفسير أشياء كثيرة في التاريخ، وسقوط الدور الأسطوري يعيد لنا الكثير من الأفكار التي شوّهت، يعني مثلاً أعاد لنا إسقاط دور ابن سبأ، بأن السبب في الفتنة ليس سبباً خارجياً، وإنما سبب داخلي، من وجود

ولاية عثمان وتدفق الأموال والصراع الذي حدث داخل المجتمع والظلم الذي حدث من بعض الولاة ، وبعض التصرفات ... الخ .

أما الدور العقائدي الذي نسبوه لابن سبأ ، أولاً : الرواية ضعيفة ، الرواية التي إسنادها صحيح هي رواية فرد في سطر واحد فقط ، يقول فيها علي : «ما لي ولهذا الحميت الأسود» من هو هذا الحميت الأسود ؟ هل هو عبدالله بن سبأ أو غيره ؟ فأخذوها وركبوها على ابن سبأ واصبح حقيقة وما شابه ذلك ، وأن علياً عليه السلام أيده على وحدة الوجود ، هذه وردت في نفس المرويات ، والرواية التي تذكر أن جابر بن عبدالله ذكر الرافضة والقرامطة في لفظه ، هذه أيضاً لا يقبلها عقل ولا تاريخ ولا عاقل ، لو تأخذ الروايات الأخرى تجدتها متهافتة ضعيفة ، لكن لو آمنتم بأن عبدالله بن سبأ موجود فلن أقبل ما يقال أنه قال هذا إلا بإسناد صحيح أو برواية نبني عليها حقيقة ، أما أن نبني آراءً بناءً على مرويات ضعيفة وفي مسانيدنا بعض الضعفاء والكذابين فمنهجنا هذا يعني أننا لم نستفد شيئاً من دراسة التاريخ .

بيعة الإمام علي عليه السلام :

إن بيعة الإمام علي عليه السلام تعرضت لتشويه من قبل الرسائل الجامعية سواء داخل المملكة أو خارجها ، وهذا التشويه كان دافعه الدفاع عن معارضي الإمام علي وخاصة أهل الشام ، يعني دافع الذين كتبوا تلحظ أنهم يشككون في بيعة علي حتى يعتذروا عن معاوية خاصة وغيره ممن خرجوا على الإمام علي بأن البيعة مختلف فيها وأنه لم يُجمع عليها وما أشبه هذا الكلام ، مع أن بيعة الإمام علي في وجهة نظري بيعة مثالية لأنها حدثت في المسجد وبعد أن خبرهم وأعاد لهم إن شئتم أن تبايعوني

على ما قلتم بالأمس ... الخ . فقامت في وجود المهاجرين والأنصار دون نزاع ودون وصية ودون شرط قد يكون محل اختلاف .

فبيعة أبي بكر كانت في ظروف نزاع ، نزاع قد يرى بعض المؤرخين حتى المعاصرين من سنة وغيرهم يرون أنها ... حتى عمر يرى بأنها : «فلتة وقى الله شرها» يعني لا تصلح للتنظير السياسي ، بمعنى أنه لا يصلح أن تتنازع ونبايع ... عمر يقول لا تعودوا مثلها ، هذا ليس طعناً لكن حكاية عن واقع ، أيضاً وصية أبي بكر لعمر محل نزاع بين المفكرين الإسلاميين وفي التاريخ السياسي الإسلامي محل تردد كبير ، حتى أنه بسبب هذه الوصية استند على ذلك بنو أمية في الوصية ليزيد ، فكان مروان كما في صحيح البخاري يخطب في المدينة ، ويقول : أيها الناس إن أمير المؤمنين قد رأى في ابنه يزيد رأياً حسناً سنة أبي بكر وعمر ، لأن أبا بكر وصى إلى عمر وعمر وصى إلى سته ، فهم استغلوا هذه الوصية ، لكن نفس الوصية استغلها الظلمة من بني أمية ، وشوهت قليلاً التنظير السياسي لوجهة النظر السنية ، التنظير السياسي السني ...بيعة عثمان أيضاً مشكلة كان فيها شرط مختلف فيه بين الصحابة وهو اشتراط عبدالرحمن بن عوف على علي عليه السلام سيرة الشيخين مع أن هذا الشرط حتى السنة يقولون ... ابن تيمية نفسه يقول : انه شرط باطل ، وقد ظن ابن تيمية أن هذا الشرط ليس ثابتاً ، وقال : لم يصح ، وهو شرط باطل ، ولا يجب على علي أن يبايع إلا على الكتاب والسنة ، ونسي ابن تيمية أن هذا الحديث موجود في صحيح البخاري فربما لو علم لبطل هذا الشرط لأن أبا بكر وعمر كملت بيعتهما وما أشبه ذلك ، لكنبيعة الإمام علي كانتبيعة .. أتوه في البيت وعرضوا عليه البيعة وأمرهم أن يبعته يقول : لن تكون سراً كأنه تذكر «الفتنة» وخشي أن تكون فتنة داخل البيت فقال :

لا في المسجد ثم ذهب ثم بايعوه جميعاً ولم يخالف في ذلك أحد إلا روايات ضعيفة أثبتنا في كتاب بيعة علي ضعفها بأن سعداً لم يبايع وابن عمر ، وفلان وفلان ، وإن ثبت توقف بعضهم ، فلا يلزم من الأمة مبايعة الجميع عندما يتوقف فلان ولا يعارض يختلف عن واحد معارض ويرى أنه أولى ، فتناولناها لأن الدارسين المعاصرين للأسف أخذوا يطعنون في بيعة علي بن أبي طالب من أجل الدفاع عن بني أمية فأخذوا يطعنون في الحق من أجل الدفاع عن الباطل ، فكان هذا الكتاب للدفاع عن الحق ومحاولة رد الباطل من حيث أتى .

التقريب بين المذاهب الإسلامية :

يجب على المسلمين جميعاً تحت الأصول العامة الجامعة من الإيمانيات المشهورة ، من الإيمان بالله واليوم الآخر ، وملائكته والكتاب والنبیین والقدر ... الخ ، والواجبات المشهورة من صلاة وصيام وحج وزكاة ... الخ ، ومن أخلاق مشهورة من صدق ، وعدل ، وأمانة ، ومحرمات مشهورة ، سرقة ، وزنا ، وكذب ، وما أشبه ذلك ، هذه الأصول العامة التي كان النبي ﷺ يُعلمها للأعراب والوافدين يجب أن تكون الخطوط العريضة ، بغض النظر عن المذهبية ، بغض النظر حتى عن التاريخ ، في البداية كخط أساسي تلتقي حول هذه الأمور ، إذا استطعنا أن نترجم برنامج العدل ، العدل يؤمن به جميع المسلمين بل والكفار يؤمنون به كقيمة كمبدأ لكن آلية العمل كيف أعديل ؟ هذه مسألة طويلة جداً ، الصدق وآلية الصدق ، والأمانة وآلية الأمانة ، فإن توصلنا إلى هذا أي إذا آمننا بهدم المبادئ يبقى محاولة التنظير للآليات التي نستطيع بها أن نعدل وأن نصدق في أقوالنا وما أشبه ذلك ، فهذه هي دعوتي .

تصالح الأغراض والمفاهيم المتعارضة في شعر أبي فراس الحمداني

✽ الشيخ محمد علي التيسيري

الحمد لله الذي خلق الإنسان فعلمه البيان ، وأماز المؤمنين عن
الغاوين من الشعراء ، والصلاة والسلام على من أعطي جوامع
الكلم ولم يعلمه ربه الشعر ، فقال ﷺ « وإن من الشعر لحكمة » ، وعلى آل
بيته الطاهرين وصحبه المنتجبين .

يسعدني جداً أن أتحدث إليكم في هذا الملتقى* ، الذي تقيمه مؤسسة
البابطين الرائدة في رعاية هذا اللون المتميز من النشاطات الأدبية ، وذلك

(*) أقيمت هذه الدراسة في الملتقى الأدبي الذي أقامته مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين
للإبداع الشعري في الجزائر تحت عنوان : دورة الشاعر أبي فراس الحمداني في شعبان ١٤٢١
هـ ق .

بعد فترة قصيرة من إقامتها ملتقى الشاعر الإيراني العالمي سعدي الشيرازي في طهران ، بالتعاون مع رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية بالجمهورية الإسلامية الإيرانية . ويطيب لي مرة أخرى أن أشيد بالإنجاز المهم الذي تحقق في ملتقى الشاعر سعدي ، ولا سيما على مستوى تعميق حالة التفاعل الثقافي والأدبي على أرض الجرائر الغالية ، لنحيي فيها ذكرى قائد تاريخي مسلم وفارس شاعر عاشق ، سجّل شعره إضافة نوعية للأدب العربي . إنه أمير الشعراء الأمراء أبو فراس الحارث ابن سعيد الحمداني .

وأود هنا أن أطرح موضوعاً طالما لفت نظري خلال قراءاتي في الشعر العربي ، وكان يشدني منذ عهد الشباب إلى شعر أبي فراس ، وتحديداً في البعد القيمي لشعره ، وهو المصالحة التي عقدها الحمداني بين جملة من الأغراض والمفاهيم التي يبدو أنها متعارضة في الظاهر ، وهي في الواقع مصالحة مدهشة وذات قيمة إنسانية وفنية .

وقد انتقينا في هذه الدراسة خمسة نماذج من ألوان المصالحة أو التوازن في المفاهيم الشعرية لدى أبي فراس ، وعلى شكل ثنائيات متقابلة ، وهي : الفخر بالعشيرة والشكوى منها ، العزة إلى حد الغرور والتذلل ، العفة والتحلل ، كبرياء الأمير وبكاء الأسير ، الوعظ والتدين والجبروت ، ونطرحها هنا على النحو التالي :

١ - الفخر بالعشيرة ، والشكوى منها :

للوهلة الأولى يبدو أن هناك تضاداً بين هذين اللونين من المشاعر ، أي بين أن يفخر أبو فراس بعشيرته ويرفعها إلى أسمى المراتب ، وبين أن يشكو منها ويتبرم من تصرفاتها ، بل ويتهمها بتهم شائنة ، فيقول

مثلاً :

فلم يُخلق بنو حمدان إلا لمجدٍ أو لبأسٍ أو لجودٍ
وينشد أيضاً :

لنا أولٌ في المكرماتِ وآخرٌ وباطنٌ مجدٍ تغلّبي وظاهرٌ
ولكنه في مقابل ذلك يقول :

بنو حمدان حسّادي جميعاً فما لي لا أروز بني طُغج
وبنو طُغج من أعداء الحمدانيين ، وقد وصل تذمر أبي فراس من أقاربه
حداً أنه فكر في التفاوض مع العدو .

ثم يتهم في قصيدة أخرى عشيرته :

تغاييتُ عن قومي فظنّوا غباوتي بِمَفرقِ أغبانا حصيّ وترابٍ
وهنا لابد من فهم الأسباب الموضوعية لهذا التعارض ، وهي أسباب
ترتكز على نوعية الأحداث والمفاصل التاريخية التي ميزت سيرة حياة
أبي فراس . فقد كان الشاعر صادقاً حين امتدح قومه وافتخر بهم ، كما
كان صادقاً في ذمّه لهم ، وهي في الواقع نوع من المفارقة . ولكن حين
تخضع هذه الأشعار إلى طبيعة الظروف التي أنشد أبو فراس فيها
أشعاره ، سواء ما يتعلق بالزمان والمكان والمناسبة أو الشخص
المقصود ، سوف تصبح هذه المفارقة طبيعية تماماً .

فمثلاً نراه يفخر دائماً بجده وأبيه وأعمامه وأخيه ، دون أن نجد في
أشعاره ما يتعارض مع ذلك . فيقول مفتخراً بجده حمدان :

فجدي الذي لمّ العشيرة جودهً وقد طارَ فيها بالتفرق طائرُ
وجدي الذي انتاش الديارَ وأهلها وللدهرِ نابٌ فيهمُ وأظافرُ
ويفخر بوالده سعيد بن حمدان :

اولئك أعمامي ، ووالدي الذي حمى جنباتِ المُلكِ والمُلكِ شاغرُ

غزا الروم لم يقصد جوانب غرّة ولا سبقتة بالمراد النذائر

وكذا عميه الحسين بن حمدان ، وسليمان بن حمدان :

وعمي الذي سلّت بنجد سيوفه فرّوع الغوزين من هو غائر

وعمي الحرون عند كلّ كتيبة تخفّ جبالاً ، وهو الموت صابر

أما الأمير سيف الدولة الحمداني ابن عم أبي فراس وصهره ، فقد امتدحه الشاعر كثيراً وافتخر به ، بل أن معظم أشعاره في الفخر والمديح هي من نصيب سيف الدولة . ولكن هناك أشعاراً يعتب فيها على سيف الدولة بمرارة ، ويصل بذلك إلى حد الذم والتقريع والنقمة . ومرد ذلك إلى السنوات التي قضاها أبو فراس في أسر الروم ، والتي ماطل فيها سيف الدولة بافتدائه ، أو أنه كان يستمع خلالها إلى الوشاة من حسّاد أبي فراس والناقمين عليه ، وهم في الواقع من أبناء عمومة الشاعر أيضاً . أما مرحلة ما قبل الأسر فلم يقل فيها الشاعر ما يشم منه رائحة الذم لسيف الدولة . فيقول مثلاً :

مازال سيف الدولة القرمّ الذي يلقي العظيم ويحمل الأثقالا

بالخيل ضمراً والسيوف قواضباً والسمر لدناً والرجال عجالا

وينشد أيضاً مخاطباً سيف الدولة :

ففي كفك الدنيا وشيمتك العلا وطائرُك الأعلى وكوكبك السعد

ولكنه في مرحلة المحنة ، يقول فيه ما ليس متوقعاً ، على اعتبار أن سيف الدولة هو الذي ربى الشاعر واحتضنه وكان بمثابة أبيه . والواقع أن فترة الأسر كانت قاسية جداً على أبي فراس ، فجاءت أشعاره منسجمة مع نوعية هذه المحنة الكبيرة ، لا سيما وأنه كان يرى في سيف الدولة عاملاً رئيساً في تعقيد محتته وطولها .

فيقول مخاطباً سيف الدولة :

وكم لك عندي من غدره وقول تكذبه بالفعال
ووعد يعذب فيه الكريم إما بخلف وإما مطال
وينشد أيضاً :

وإن أوجعتني من أعادي شيمه لقيت من الأحباب أدعى وأوجعا
تنكر سيف الدين لما عتبه وعرض بي، تحت الكلام وقرعا
ولعل الشاعر في هذه الأبيات التي فيها نوع من القسوة على ولي
نعمته وأميره المفدى ، يكشف عن مقدار اللوعة والألم والهم الذي كان
يكابده ، ورغم ذلك لم ينس أبو فراس فضل سيف الدولة عليه ، كما لم
ينس شأن سيف الدولة وموقعه عميداً للأسرة وقائداً للدولة ، فكان
يعيش حالة من الحب الصعب مع سيف الدولة ، ويعاني جفاء الحبيب
وفضاضته ، فتراه يتنقل بين الذم والعتب والمديح في القصيدة الواحدة :

أمن بعد بذل النفس فيما تريده أثاب بمر العتب حين أثاب ؟
فليتك تحلو ، والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر وبينني وبين العالمين خراب
وقد يكون هذان البيتان اللذان يناشد فيهما سيف الدولة من أجمل ما
قاله أبو فراس في هذا المعنى :

فرميت منك بغير ما أمّلته والمرء يشرق بالزلزال البارد
فصبرت كالولد التقى لبره أغضي على ألم لضرب الوالد
فيصف غصته من الأذى الذي لحقه به سيف الدولة كمن يسرق
بالزلزال البارد ، أو أنه كضرب الوالد لولده البار . ويبدو أن أبا فراس يكتب
بهذه اللغة المزدوجة بدوافع أربعة يتسلسل في طرحها : استفزاز سيف
الدولة عليه يتحرك لفك أسره ، والتعبير عن مرارته من إهمال سيف الدولة
له ، وكذا التعبير عن إخلاصه الحقيقي لسيف الدولة ، واستعطاف سيف

الدولة لإنقاذه .

وعلى مستوى شكواه من بعض الأقارب ، والتي يعمّمها الشاعر مجازاً على العشيرة كلها ، فإن الوقائع التاريخية تؤكد بأنها نتيجة طبيعية للأذى الكبير الذي ألحقه به الأقارب ، فناصر الدولة شقيق سيف الدولة هو الذي قتل والد الشاعر ، وهو لما يبلغ الثالثة من عمره ، فنشأ أبو فراس يتيماً ، ويحمل في قلبه نفوراً من ابن عمه وغيره من أبناء الأسرة الذين وقفوا مع ناصر الدولة . ثم كان موقف معظم أبناء عمومته سلبياً منه دائماً ، ولأسباب كثيرة ، لعل بعضها ردود فعل ناقمة على نوعية تصرفاته ، وأخرى غيرة وحسداً ، وهم يرونه الأكثر قرباً من سيف الدولة ، وقد جمع النجومية من أطرافها : براعة السياسي وكبرياء الأمير وخيلاء الفارس وجاذبية الشاعر . ولم يكتفوا بمعاداته في سنوات مجده ؛ بل استمرت محاولاتهم لتدمير العلاقة بينه وبين سيف الدولة حتى عندما كان الأسر . ثم شاء الله تعالى أن تكون نهايته على يد ابن سيف الدولة . ويشير الشاعر في إحدى قصائده بوضوح إلى أن من يسيء إليه جماعة من عشيرته ، وأنه رغم ذلك فدائي لعشيرته ، وأن مصيره مرتبط بها ، وإن كان معظم أفرادها أعداءه :

إلى الله أشكو عصبه من عشيرتي يسيئون لي في القول غيباً ومشهدا
وإن حاربوا كنت المجرّ أمامهم وإن ضاربوا كنت المهتد واليدا
فلا تعدوني نعمة ، فمتى غدت فأهلي بها أولى وإن أصبحوا عدا
ويرجوهم أن لا يكرسوا حالة العدا ، كما يقول في البيتين المعروفين :

أيا قومنا لا تنشبوا الحرب بيننا أيا قومنا لا تقطعوا اليد باليد
عداوة ذي القربى أشدّ مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

وينشد في قصيدة أخرى ، حين كان في الأسر :
أَسْلَمْنَا قَوْمَنَا إِلَى نَوْبٍ أَيْسَرَهَا عَلَى الْقُلُوبِ أَقْتَلَهَا

٢ - العزة إلى حد الغرور ، والتذلل :

وهي مفارقة أخرى ، فشخصية أبي فراس كما تعكسها أشعاره ، تتميز باعتزاز مفرط بالنفس يصل إلى حد الغرور والزهو ، كيف لا وهو الذي يقول :

ومهري لا يمس الأرض زهواً كأن ترابها قطب النبالِ
كأن الخيل تعرف من عليها ففي بعضٍ على بعضٍ تُعالي
أو يقول :

ولا ذنب لي ، إن الفؤاد لصارمٌ وإن الحسامَ المشرفي لفاصلُ
أصاغرُنا ، في المكرمات ، أكابرُ وأخِرُنا ، في المآثرات ، أوائلُ
إذا ضلّت يوماً لم أجد لي مُصاوِلاً وإن قلتُ قولاً لم أجد من يُقاوِلُ
فهل صاحب هذا الفؤاد الصارم والحسام الفاصل ، وهذا الذي لا يجروُ أحد على مبارزته أو مجادلته ، هو نفسه القائل :

ولا غرو أن أعنّو له ، بعد عِزّةٍ فقدري في عزّ الحبيب ، يَهونُ!
فيذوب وجداً أمام الحبيب ويتذلل له ويذرف الدموع متوسلاً إليه
الوصول؟

وقَفَّتني على الأسى والنحيبِ مُسَقِلتا ذلك الغزالِ الربيبِ
يا خليلي ، خَلَّياني ودمعي إنَّ في الدمع راحةً المكروبِ
فكيف عقد أبو فراس هذه المصالحة بين هذين اللونين من المشاعر الإنسانية ؟

لا شك أن شاعرنا مرهف الحس ، وجداني المشاعر ورقيق العواطف ،

تحركه الأحداث بطريقة عفوية ، فيغضب ويتألم ويحلم ، ويتحرك وجدانه باتجاه كل ما يستفز أحاسيسه ، كالحرب والحب ، الفرح والحزن ، النشوة والكرب ، فيكون لكل مقام مقال . في الحرب يزمجر ويزأر وتعكس أشعاره فيها صرامة وقسوة . وفي الحب يعبر عن أصدق مشاعر المكابدة واللوعة والشوق ، حتى لو تطلب الأمر الدموع والتذلل والأرق . وفي النشوة يتعالى وتظهر منه حالات متطرفة من الخيلاء والزهو . وفي الكرب تشعر أنه مهيبض الجناح .. كسير خاطر ، وأن حياته كلها هموم وآلام . يقول مفتخراً ومزهاً بنفسه :

سيذكرني قومي إذا جدَّ جدُّهم وفي الليلة الظلماء يُفتقدُ البدرُ
ونحن أناسٌ لا توسط عندنا لنا الصدرُ دونَ العالمين أو القبرُ
تهوُّ علينا في المعالي نفوسنا ومن خطب الحسناء لم يُغلها المهرُ
أعزُّ بني الدنيا وأعلى ذوي العلا وأكرمُ من فوق التراب ولا فخرُ
ولكنه في مقام الحب يقول :
وفيتُ ، وفي بعض الوفاء مذلةً لأنسةٍ في الحيِّ شيمتها الغدرُ
أو قوله يخاطبها :

لقد أبهجت أعدائي وقد أشمت حُسادِي
بسقمِ ماله شافٍ وأسرِ ماله فارٍ

واللافت للنظر أن الشاعر يتدارك نفسه في معظم قصائده التي يضطر فيها للتعبير عن كربه وهمومه وتذله ؛ فينتفض فجأة وكأنه يتذكر من هو أبو فراس الحمداني :

بلى ، أنا مشتاقٌ وعندي لوعةٌ ولكن مثلي لا يُذاع له سرُّ
إذ الليل أضواني بسطت يد الهوى وأذلت دمعاً من خلائقه الكبيرُ
فهو لا يبكي إلا عندما يخلو إلى نفسه ، ولا يكشف عن لوعته أمام

الآخرين :

فقلتُ كما شاءت و شاء لها الهوى قتيلك قالت : أيُّهم فهم كثرُ؟
وإنسي لجرَّارٍ لكلِّ كتيبةٍ معودةٍ أن لا يُخِلَ بها النصرُ
وينشد راثياً أخاه :

وأترك أن أبكي عليك تطيُّراً وقلبي يبكي والجوانح تلطمُ
وأظهرُ للأعداءِ فيك جلادةً وأكتم ما ألقاه واللَّه يعلمُ

٣- العفة ، والتحلل :

المعروف أن العفة والسمو الروحي ومجانبة التشبيب اللا أخلاقي هي الصفات التي تميز شعر أبي فراس في الغزل . ولكن هناك مقطوعات وأشعاراً تحرف غزله باتجاه التحلل ، أو هكذا يبدو . فهو القائل :

أنا الذي إن صبا أو شفه غزلُ فـلـلـعـفـافِ ، ولـلـتـقـوى مـآزِـرُ
وأشرفُ الناسِ أهلَ الحبِّ منزلةً وأشرفُ الحبِّ ما عفت سرائره
بينما يقول في مقطوعة عشقية :

لبسنا رداء الليل والليل راضعٌ إلى أن تردى رأسه بمشيبي
وبتنا كغصني بانه عابثتهما إلى الصبح ريحا شمألٍ وجَنوبٍ
بل نجد في أشعاره مقطوعات تقترب أكثر إلى الغزل المادي والحسي . ولعله في هذه المقطوعات ينفعل بطريقة عفوية ، ولا يبالي من التعبير عن أحاسيسه الجياشة ، متأثراً بحرارة الهيام والوجد ، وكأنه في هذا اللون من الغزل المكشوف لا يستطيع كتمان سره ، ويبعث عمّن يشاركه هذه الانفعالات ، بل يريد أن يطّلع العالم كله على مغامراته ، إما بدافع النشوة الفائقة أو التبختر والشعور بالتفوق . إضافة إلى أن هذا اللون من الشعر كان قد أنشده في مقتبل حياته . يقول الشاعر :

ويا عفتي ، مالي ومالك كلّما همتُ بأمرٍ، همّ لي منك زاجرُ
 كأنّ الحجاوِصَ والعقلَ والتقى لديّ، لربّاتِ الخُدورِ ضرائرُ
 فهو هنا يكشف عن نفسٍ لوامة تكبح جماح شهواته ، ولكن يبدو أن
 هذه الكوابح الذاتية كثيراً ما كانت تتعطل لديه في أوائل شبابه ، فتدفعه
 للقول :

بتنا نُعطّل من ساقٍ أغنّ لنا بخرتين من الصهباء والخدّ
 أو في مقطوعة غزلية يقول في بيتها الأول :
 ياليلةً، لستُ أنسى طيبها أبداً كأنّ كلّ سُرورٍ حاضِرٍ فيها
 ويمكن متابعة باقي أبيات المقطوعة للوقوف على ما يزيح الشاعر
 منه الستار . بل يبدو من خلال مقطوعات أخرى أن الشاعر كان يحضر
 حفلات طرب غير بريئة ، كتلك التي يقول فيها :
 رَفّه بقرعِ العود سمعاً ، غداً قرعَ العوالي جُل ما يسمعُ

٤ - كبرياء الأمير، وبكاء الأسير :

حين أُسر أبو فراس كان في ذروة نجوميته ، فشكّل الأسر منعطفاً
 خطيراً في حياته ، إذ تعرّض خلاله لأسوء حالات الذل والهوان ، مرّةً لأنه
 وجد نفسه سجيناً رهيناً بين أيدي أعدائه اللدودين ، مودعاً بذلك العز
 والنعيم والمجد والسلطان ، وأخرى لأن سيف الدولة أهمله وماطل كثيراً
 في افتدائه ، وهو الأثير لديه ، لأن مساعي الوشاة من الحاقدين عليه قد
 نجحت في تحقيق أهدافها ، وثالثةً فراقه المرّ لأمه التي ماتت حسرة عليه ،
 وكذا فراقه زوجته وأطفاله ، وكانت كلها صدمات متوالية ، خلقت منه
 ظاهرة إنسانية متفردة . وكانت روميّاته نتاجاً وجدانياً لهذه الظاهرة ،
 والتي يلخصها في هائيته الشهيرة :

يا حسرةً ما أكادُ أحملها آخرها مزعجٌ وأولها
وقد أنشد أبو فراس في بداية الأسر قصائد كثيرة ، كان يحتفظ فيها
بكبريائه ، بل ولا يبالي من مهاجمة الروم وتذكيرهم بما فعله بهم :
ويا ربّ دارٍ لم تخفني منيعةً طلعتُ عليها بالردى أنا والفجرُ
يمنئون أن خلّوا ثيابي ، وإنما عليّ ثيابٌ من دمائهم حمراً
أو قوله :

إن زرتُ خرسنةً أسيراً فكم أحطتُ بها مُغيرا
بل ويعتبر أن فارساً مغامراً مثله لا بد أن ينتقل بين الأسر والإمارة :
من كان مثلي لم يبت إلّا أسيراً أو أميراً؟
ثم يدخل مرحلة أخرى يبدو فيها أنه أقرب إلى اليأس ، فيتحول ذلك
الكبرياء إلى بكائيات وتوسلات :

بكيئٌ فلما لم أر الدمعَ نافعي رجعتُ إلى صبرٍ ، أمراً من الصبر
ويتوسل إلى سيف الدولة في بكائيته اللامية المعروفة :
هل تعطفان على العليل؟ لا بالأسير ولا القليل!
باتت تقلبته الأك فُ سحابة الليل الطويل
فقد الضيوف مكانه وبكاء أبناء السبيل
فيا لسخرية الاقتدار .. أن يبكي أبا فراس أبناء السبيل ! ولعل من أروع
ما قاله في هذا المجال قصيدته الشهيرة التي يبت فيها همّه وسقمه إلى
حمامة سمعها تنوح :

أقول وقد ناحت بقربي حمامةً أيا جارتا هل تشعرين بحالي؟
معاذ الهوى ما دُقت طارقة النوى ولا خطرت منك الهمومُ ببالي
ورغم ذلك فإنه غالباً ما كان ينتفض على واقعه المؤلم ، ويستعيد في
روحه أمجاده وعزّه ، كما أنه كان يسوغ هذه البكائيات تسويغاً

موضوعياً ، ويقول بأنه لا يتوسل . أو يذرف الدموع لنفسه ، بل لأشياء أخرى ، منها ما يكشف عنه في هذين البيتين :

لولا العجوزُ بمنبجٍ ما خفتُ أسبابَ المنيةِ
ولكان لي ، عمّا سألتُ من الفدا نفسَ أبيةِ
والعجوز هي والدته . وكذا من أجل أطفاله :

واصبيةٌ كالفراخِ أكبرُهم أصغرُ
فحُزني لا ينقضي ودمعي ما يفترُ

أو لأنه لا يريد أن يشمت به الروم ، ولا يموت بين أيديهم ميتة كمدٍ وحسرة ، ففي الأبيات التالية التي يخاطب فيها سيف الدولة ، يعبر عن مجموع الأغراض السابقة ، فهو ينتقل فيها من التوسل والبكاء إلى الفخر ، إلى تسوية التوسل :

دعوتك للجفنِ القريحِ المسهّدِ لديّ ، وللنومِ القليلِ المشردِ
أناديك لا أني أخاف من الردى ولا أرتجي تأخيرَ يومٍ إلى غدٍ
ولكن أنفت الموتُ في دارِ غربةٍ بأيدي (...) ميتة أكمّدِ
وبالتالي فإن بكائيات أبي فراس مشبعة بالكبرياء والفخر ، فهما حاضران عنده ، وإن شعر بالذل والهوان ؛ فيبكي بكبرياء ويتوسل بترفع ويتذلل بأنفة .

٥ - الوعظ والتدين ، والجبروت :

حين نقرأ بعض أشعار أبي فراس نشعر أنه يعيش حالة من الجبروت والطغيان ، كأبي سلطان همّه التحكم برقاب الناس وإراقة الدماء :

هذا وهذا دأبنا يُودى دمٌ ويُرأق دمٌ

أو قوله :

إذا أمست نزارُ لنا عبيداً فإن الناس كلَّهم نزار
في حين أنه في أشعارٍ أخرى يكشف عن شخصية الواعظ الحكيم
المتين ، المؤمن بقضاء الله وقدره ، والملتزم بأصول العقيدة وأحكام
الشريعة :

أما يردعُ الموتُ أهلَ النهي ويمنعُ عن غيِّه من غوى!
فلا آملُ غيرَ عفوِ الإله ولا عملُ غيرِ ما قد مضى
وكذا قوله :

إنَّا إلى الله لما نابنا وفي سبيل الله خيرُ سبيل
وهنا يبدو التعارض واضحاً بين ذلك الجبروت وهذا الإيمان المطلق .
بيد أن التأمل في منطلقات الأبيات التي يكشف فيها عن انحراف في
تفكيره ، يظهر أنَّ الشاعر كان يريد التعبير عن الانتصار في ساحة
المعركة ، وهو يعيش نشوته إلى حد السكر ، وهي إفراط في أغراض
الفخر والمديح والفروسية ، فمثلاً حين يقول :

لنا الدنيا فما شئنا حلالً لساكنها، وما شئنا حرامً
أو يقول :

أتعجب أن ملكنا الأرض قسراً وأن تمسي وسائدنا الرقاب؟
وترُبط في مجالسنا المذاكي وتبرك بين أرجلنا الركاب؟
فهذا العزُّ أورثنا العوالي وهذا الملك مكَّنه الضراب
فإن سكرة الانتصار هي التي تدفعه إلى هذا اللون الصاخب من الفخر .

وما يقابل ذلك أشعاره التي يقول في بعضها :

ومن لم يوقَّ الله فهو ممزَّق ومن لم يُعِزَّ الله فهو ذليل
وما لم يُرِدْ الله في الأمرِ كلُّه فليس لمخلوقٍ إليه سبيل

وما لم يُرِدهُ الله في الأمرِ كُلِّهِ فليس لمخلوقٍ إليه سبيلٌ
وكذا يدخل في هذا الباب قصائده ومقطوعاته في مدح آل بيت رسول
الله ﷺ ، ففيها تعبير عن التصاق الشاعر بالمفاهيم الإسلامية ، وغيرته
على الدين وأهله ، وحرقته على ما يتعرض له آل البيت من ظلم واقتراء ،
ومنها ميميته الشهيرة التي عُرفت بالشفافية :

الدينُ مُخترَمٌ والحق مهتضمٌ وفي آل رسول الله مُقتسَمٌ
يا للرجال! أما لله منتصِفٌ من الطغاة؟ أما للدين مُنتَقَمٌ؟
للمتقين من الدنيا عواقبها وإن تعجل منها الظالم الأثمُ
لا يغضبُون لغير الله إن غضبوا ولا يُضيعُونَ حُكم الله إن حكموا
الركن والبيت والأستارُ منزلهم وزمزمٌ والصفاء والحجرُ والحرُمُ
صلى الإلهُ عليهم أينما ذُكروا لأنهم للورى كهفٌ ومعتمَصُ
وهناك أيضاً الأبيات التي قالها يخاطب ابنته يوم مقتله ، ويأمرها أن
تنوح عليه وهي في سترها وحجابها :

أبـنيتي لا تحزني كلُّ الأنام إلى ذهابٍ
نوحى عليَّ بحسرةٍ من خلف سترك والحجابِ
وختاماً .. فهذه الثنائيات الخمس التي يبدو فيها الشاعر معارضاً
لنفسه ، تمثل - في تقديري - واقعية ووضوحاً في المشاعر الإنسانية من
جانب ، ومصالحة وتوازناً من جانب آخر ، تبعاً لنوعية البيئة المتحركة
التي أفرزت شخصية أبي فراس ، ووظفت شعره للتعبير عنها بصدق
وعفوية ، دون نفاق أو تصنع أو تكلف ، وهي بمجموعها سمة الشعر
الوجداني الذي تميّز به .

والحمد لله رب العالمين

قصيدة :

أبا الشهداء

✽ السيد محمد جمال الهاشمي

أعنيّ بوحى منك إن خانتني الشعرُ
تَحجبتَ حتّى قيل أنك غامضُ
تطوف حوالبك القرائح خشعاً
أعنيّ عسى أن ألمس السرّ فالحجى
يناجيك غيري بالدموع، وأنني
عليك سلام الله أيّ روايةٍ
أعدها على الجيل الجديد رسالةً
أعدها على دنيا الزوابع نسمةً
أعدها أعدها نغمةً سرمديةً
أعدها دماءً يُسكر المجدَ لوئها
وهيات أن يسمو إلى سرّك الفكرُ
واسفرتَ حتّى انجابَ عن لبّه القشرُ
وتسعى لك الأقلام يكبو بها الذعرُ
تعصّي عليه الرأي والتبس الأمرُ
أراك تناجيني متى ابتسم الشعرُ
على مسرح التاريخ يعرضها الدهرُ
تشع على الإيمان آياتها الغرُ
ترقق فيها الحبُّ وانتشر العطرُ
تجدد منها البحر وانفلق الصخرُ
أعدها إباءً باسمه يهتف الفخرُ

أبى الشهداء الأصفياء تحية
هو الشعر لا يرضى بمقياس غيره
نظرتك ما بين السيوف فراعني
تقدست من فرد يهاجم دولة
فيا وقفة الإيمان في ساحة الوغى
على رسلكم يا عاذلين فللهوى
فلا تلحقوها بالمواقف إنها
هي الثورة الحمراء عن فكر مصلح
أراد لكي تحيى الحقيقة فانبرى
كذلك حياة المصلحين شهادة



يُقدّمها عن روحه شاعرٌ حرٌّ
فلي فيه إما زلّ بي مقولي عذراً
جلالٌ عليه رفرف الحزن والبشر
لسطانها قد أذعن البرّ والبحر
تضعع منها الشرك وانخذل الكفر
مقاييس يأبى فهمها الماجن الغرّ
لأنشودة غنّى بها الأدب البكر
ترفع أن يسهّته النفع والضّر
إلى الموت لا يلوي به السهل والوعر
يجدّ بها عصرٌ ويبلّى بها عصر

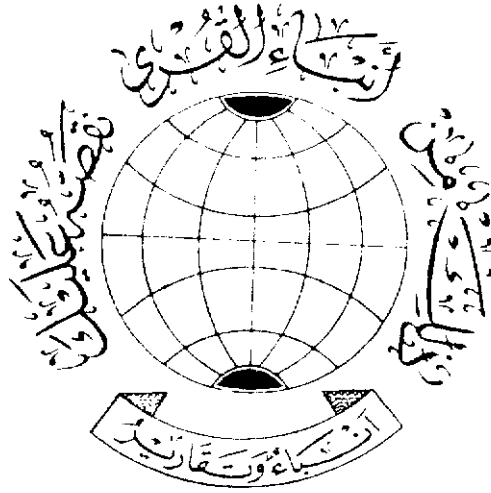
إذا الروض لم تنفع أزاهره الشذى
وإن عجز الصّدّاح عن وحي لحنه
وإن فقد الوجه الجميل فتونه
فكسلٌ عناوين الحياة ضلالة
وما الدين إلّا قائد العقل للهدى
إذا هُجرت أحكامه أو تغيّرت
أيغدو ابن ميسون خليفة أحمد
ويحرم شرب الخمر في أمة لها
وتؤمن في يوم الحساب ولم يرع
وتسكت عن هذي المهازل أنفس
ألا . لا . فإن الحقّ يأنف أن يرى
وإن لم تساعده الحياة على المنى

ولم تُبهج الأرواح أدواحه الخضر
وغاض ولم يلعب بأمواجه النهر
ولم يكشف الظلماء في نوره البدر
وكل ثراء في متاجرها فقر
له النهي في دنيا العقائد والأمر
فكلّ حديث حول تأثيره هجر
وفي عُرفه ما قاله أحمد نُكر
إمامٌ به يمسي ويصطبغ الخمر
خليفتها يوماً حسابٌ ولا حشر
يلوذ الحمى فيها ويعتصم الشجر
مواكبه يقتادها الغي والغدر
فلا بد أن يأتي بها الموت والقدّر

على مهلكم يا تائهين ، فإنما
وراءكم ردوا، فقد عبثت بكم
أفيقوا فإن العلم أبدا نواحياً
وخلّوا - فلسطيناً - وإسعافها - فقد
إذا أوغرت تلك الصدور فهذه
وشتان فكر ضيّع الحقد رشده

سلام على يوم الحسين، فإنه
وسجل للأحرار منهجه الذي
تموت وتنسى الذكريات، وذكره
أرى عالم الظلماء ما يصنع الفجر
تُهيح دم الثوار أسطره الحمر
سيعقى مع الأحقاب ما بقي الذكر

أحاول أن لا أسكب الدمع غيرةً
ولكنني لا أملك النفس حينما
بنفسي أفديه، وقد هدّه الظما
ولم يسبق من أصحابه غير نسوة
يطالها من برقع الدمع حسرة
فتطغى عليه سورة علوية
وفي حضنه طفل يطوّق نحره
وحاشاه لم تلو الحوادث عزمه
ففي ذمة الإيمان أقدس موقف
ويطعن قلب الدين بالرمح - مالك -
إلى أن قضى في ساحة المجد فانقضى
لئن قام شطر الدين في صبر حيدر
ولم أر من قبل الحسين مجاهداً
بأن لا يقولوا شاعر خانه الصبر
أراه وقد حفت به البيض والسمر
وأجهدته فقد الأحبة والكر
تراءى لها في قتله الثكل والأسر
وفي قلبه من فقد أحبابه جمر
بها يتساوى عنده الحلو والمر
من الظلم سهم ناء عن مثله النحر
ولا راعه في زحفه العسكر المجر
له تخشع الدنيا ويرتجف الدهر
ويخمد نور الله في سيفه - شمر -
بذلك عهد للهدى، وانطوى سفر
فقد قام في قتل إبنه بعده شطر
لمصرعه وافى يشيعه النصر



نافذة نطلّ منها على أحوال المسلمين وأتباع أهل البيت (عليه السلام) في أنحاء العالم من خلال ما يصلنا من أخبار وتقارير .

الجمهورية الإسلامية في إيران

دعوة من سماحة القائد:

تفكير علمي عصري ومكافمة



التمجر لمواجهة مفططات الأعداء

تثار بين الحين والآخر ضجة إعلامية حول الجمهورية الإسلامية في إيران ، وتتخذ في كل مرة طابعاً معيناً يجري التركيز عليه حتى يُخَيَّل في ذهن

السامع أو القارئ خاصة البعيد عن ساحة الحدث أن ما يُطرح ينطوي على شيء من الحقيقة إن لم يكن يصدق بكل ما يقال ، ليكتشف بعد حين من الزمن أن الذي قيل يدخل في إطار الفبركة الإعلامية التي تُكَبَّرُ صغيراً وتصغرُ كبيراً . وأكثر المفاهيم التي تستخدم

في هذا الغرض ليس ضد ايران
فحسب، وإنما ضد أية جهة سواء
أكانت دولة أو منظمة أو جهة
حزبية تحاول أن تستقل بفكرها
ومسارها، هي الارهاب وانتهاك
حقوق الإنسان، ولما كان
المفهوم الأول قد فقد بريقه
وأضحى سلاحاً غير ذي فاعلية
لأن الرأي العام العالمي بات
يعرف القصد منه، وإن الضحية
أصبح يوسم بالإرهابي فيما
يترك الجلال لحاله يُمارس ما
يشاء ويفعل ما يريد دون أن يُقيد
بقيد الإرهاب أو أية سمة أخرى .
اختير المفهوم الثاني وهو مفهوم
فضفاض يستوعب الكثير من
مجالات الحياة اليومية ليوصم به
من يخرج عن المنظومة الدولية
القائمة حالياً، والتي هي دون شك
منظومة ظالمة لا تناصر الضعيف
ولا تعاقب المعتدي .
من هذه المنطقة الرخوة يهجم
العدو، ويحاول أن يضرب

مستخدماً كل أسلحته دون أي
رادع خلقي أو إنساني ؛ ومن هذه
المنطقة أيضاً تعرضت
الجمهورية وعلى مدى العشرين
عاماً الماضية أو أكثر وما زالت
تتعرض لأعتى وأشرس
الهجمات، فإذا أرادت أن تطبق
حكم الله في الأرض واجهت سيلاً
من الانتقادات وحملات موجهة
من منظمات ما تسمى بحقوق
الإنسان والعفو وما إلى ذلك، بل
وصل الأمر أن الولايات المتحدة
الأميركية ويفترض بها أن تكون
كباقي الدول وليست وصية على
العالم أن تتدخل وتصدر التقارير
والبيانات عن انتهاكات مزعومة
لحقوق الإنسان هنا وهناك بدلاً
من أن توكل هذه المهمة إلى
ما تسمى بالمنظمات الدولية ؛ وإذا
أرادت الجمهورية الإسلامية في
ايران أن تحافظ على استقلالها
عبر قرارات داخلية واجهت تدخلاً
سافراً من جانب الآخرين مبطناً

بشعارات ضرورة احترام حقوق الإنسان وأشباهاها؛ وإذا أرادت أن تحمي نفسها من اعتداءات خارجية محتملة بتطوير دفاعاتها انهمرت عليها سيول التهم والافتراءات؛ وهكذا فإن أي خطوة تتخذها من شأنها أن توطد النظام الإسلامي لن تمر دون أن تواجه الانتقادات والتهم الباطلة بصورة مباشرة من جانب قوى الاستكبار، أو غير مباشرة عبر المؤسسات والمنظمات التي تقوم بهذه الوظيفة نيابة عن الكبار.

هذا الأمر لم يغيب عن بال القيادة الإسلامية في إيران منذ أن انتصرت الثورة وحتى يومنا هذا، إذ كانت التحذيرات تتوالى من قبل القادة وعلى المستويات كافة تدعو للانتباه إلى هذه المؤامرات التي لا تكتفي بالاشارات والقرارات البعيدة، وإنما تتدخل بشكل مباشر، وتحاول تغيير الوضع على الأرض لصالح القوى

التي تخطط لذلك، وتستهدف المراكز الحساسة كالجامعات ومختلف الحوزات العلمية التي يشكل الدارسون فيها نواة قيادة البلاد، وإدارة شؤونه في المستقبل. من هنا اختار قائد الثورة الإسلامية آية الله العظمى السيد علي الخامنئي دام ظلّه إحدى الجامعات العلمية في البلاد في واحدة من زياراته التفقدية لكي ينبه من جديد إلى مخاطر هذا النمط من التدخل الاستكباري في شؤون البلاد، ويشير إلى مساعي القوى المتجبرة للتشكيك بمعتقدات الأمم معبراً عنها: «بالغزو الثقافي الذي يطمح إلى تغيير قيم الشعوب وعقائدها على أساس الرغبة الاستكبارية».

ودعا سماحة القائد جيل الشباب وهو المستهدف أيضاً في هذا الغزو إلى الوقوف بوجه النظريات الغربية التي يراد فرضها على الشرق تحت مختلف

المسميات ، وحذر الجامعيين خاصة قائلاً : «إن العدو وحينما فشل في مخططاته ؛ لجأ إلى المعركة الثقافية التي وجد - وللأسف - من يصغي لها في الداخل ويؤطرها في قالب محلي». وحينما يُصار إلى تشخيص هذه المشكلة وتحذير الأمة منها ترتفع من المعسكر الآخر (المستكبر) واجهات حقوق الإنسان، وتبدأ ماكينة الدعاية الغربية بالترويج لهذه الواجهات لحرف الأنظار، أولاً عن الأزمة الأساسية بين المعسكرين والإيهام بأن إيران - على سبيل المثال - أو أية دولة أخرى خارجة عن فلك الاستكبار؛ هي دولة متمردة عاصية، ولا بد أن تعود إلى المنظومة الدولية ، أو بتعبير أدق المنظومة الأميركية ، وهي تريد من وراء ذلك تبديل الشعوب إلى قطيع تابع لإرادة واشنطن أو كما عبّر سماحة القائد

«كومبارس تابع لأميركا» و«رجعية إلى الغرب» و «قبول سلطة القوى الكبرى».

ولكي يخلق الطريق على تسرّب مثل هذه الأفكار إلى البعض من أصحاب النفوس الضعيفة أو ممن ينقصهم الوعي الكافي لاستيعاب ما يدبر لنا في ليل ، دعا القائد - من جهة أخرى - إلى تحصين الجبهة الداخلية وخاصة الجامعية بالثقافة المطلوبة والتفكير العلمي العصري ومكافحة الأدمغة المتحجرة للنهوض بالمستوى العلمي للبلاد ومواجهة التنظيرات الغربية بثقة نفس عالية ترد كيد الأعداء، وتضع الأمور في محلها، وعندئذ لن تستطيع كل قوى الأرض المتجبرة النيل من إيمان الشعب حتى لو تكالبت عليه، ووجهت له مختلف الاتهامات الملفقة حول حقوق الإنسان أو الحريات الأساسية .

□ فلسطين

ذهب باراك .. جاء شارون :

لاممائم ولا مقور .. كلهم ذئاب

لفترة ليست بالقصيرة ظل الإعلام العالمي وتبعاً له الإعلام العربي (بالطبع ليس كله) يعزف على وتر الانتخابات في الكيان الصهيوني، ويتخوف من مساوئ هذا المرشح على محاسن ذاك وكأنما توجد في قوى الاحتلال أمثال هذه المفردات ، وهذا التفاضل في طبيعة التعامل مع الأرض التي يحتلها، والشعب الذي يبسط عليه هيمنته .

وإلى ما بعد الانتخابات وإعلان النتائج بقي المعنيّ بها من أطراف عربية وإقليمية ودولية يهوّن من المسألة، ويساند الطرف الفلسطيني المفاوض أن يتأني، ويعطي الفرصة اللازمة لعل الله يهدي رئيس الوزراء المنتخب ارييل شارون، ويوافق على الجلوس مع الفلسطينيين كسلفه

باراك، ويتحدث إليهم تارة بلغة الدبلوماسية بالضبط كما كان يفعل باراك ، وكأن هذا الأخير قصّر في سفك الدم الفلسطيني خلال فترة حكمه ، أو أنه أعطى حقاً لصاحب حق، وما أكثر أصحاب الحق في فلسطين إذ الأرض كلها مغتصبة والشعب كله مُحْتَل ! وربما كان الفارق الوحيد الذي يميز الرجلين أن شارون قد ساعدته الظروف التاريخية والعمر في أن يمعن في الأجرام منذ نعومة أظفاره ، في حين أن باراك لم تتوفر له مثل تلك الظروف ليفعل كما فعل صاحبه مع الفلسطينيين ، ولعله استطاع أن ينفس عنه هذه العقدة المزمّنة حينما أصبح رئيساً للوزراء، وتمكّن من رقاب الشعب الفلسطيني فأعمل فيه الموت والقتل، وعوّض عمّا اعتبره ويسعّبره كل الصهاينة واجباً مقدساً في تصفية الفلسطينيين ،

وأدّى دوره المناسب في الزمن المناسب قبل أن يطاح به ليحل محله من يكمل الدور .

وإذا كان شارون لعب أكثر من دور منذ قيام الكيان الصهيوني فذلك - كما قلنا - يعود لظرفه الذي أتاح له الفرصة ليكون على رأس عصابات الإجرام الصغيرة منذ نحو خمسين عاماً حتى تبوأ مقاليد السلطة حالياً في رئاسة الدولية المجرمة .

ففي سنة ١٩٥٣م كانت قرية «قبية» الفلسطينية الوداعة تمضي ليلة هادئة وأطفالها عادوا إلى بيوتهم من تعب اللعب ليتناولوا طعام العشاء ، ثم يخلدوا إلى عالم النوم والأحلام في كنف أسرهم ، فإذا بهم يفاجأون بمن يهجم عليهم ويحرق بيوتهم ويقتل آباءهم وأمهاتهم .

المهاجمون وكان عددهم (١٣٠) شخصاً نسفوا خمسين منزلاً وقتلوا ٦٩ رجلاً وامرأة

وطفلاً أي حوالي ١٠٪ من إجمالي سكان القرية ، وكان يتزعمهم رئيس الوزراء الحالي ارييل شارون !! .

يقول محمود سعدات البالغ من العمر ٦٢ عاماً وهو أحد أبناء القرية وقد فقد ثلاثة من أقاربه في مذبحة قبية : «نحن نعرفه رجلاً عاشقاً للحروب . كانت ليلة مرعبة. نسف شارون كل بيت اختبأ فيه الناس» .

وبعد نحو ثلاثين عاماً غزا الجيش الصهيوني لبنان عام ١٩٨٢م ووقعت الكثير من المجازر في هذا البلد الصغير الذي استطاع بإرادة أبنائه أن يطرد الغزاة ، ومنها مجزرة صبرا وشاتيلا التي لا تنسى ، حيث راح ضحيتها المئات من الفلسطينيين . فمن كان المسؤول عن كل هذا ؟

إنه شارون مهندس غزو لبنان والمسؤول عن مذبحة صبرا وشاتيلا حسب لجنة تحقيق

بحثت في الأمر حينها .

وتمضي عشرون عاماً أخرى لينتقل شارون إلى سدة الزعامة السياسية دون أن يتغير في عمقه الإجرامي شيء سوى أنه امتد إلى الساحة السياسية إضافة إلى العسكرية ، فأثناء حملته الانتخابية أدلى بمجموعة من التصريحات تعطي فكرة عن مواقفه التي سينطلق منها في تعامله مع الفلسطينيين من أبرزها :

● اتفاقات اوسلو عام ١٩٩٣م حول الحكم الذاتي الفلسطيني قد ماتت ولم يعد لها وجود ، معتبراً أن تسوية دائمة مع الفلسطينيين لا يمكن التوصل إليها في الوقت الراهن داعياً إلى اتفاق انتقالي طويل المدى .

● لن تنقل أراضي جديدة إلى السلطة الفلسطينية التي يجب أن تكتفي بالقدر الذي تشرف عليه الآن أي حوالي ثلثي قطاع غزة

و ٤٢٪ من الضفة الغربية ، وليس وارداً بالنسبة لتل أبيب التنازل عن وادي الأردن المنطقة الاستراتيجية الواقعة على طول الحدود مع الأردن . وتوضيحاً لما يعنيه بعبارة «تنازلات مؤلمة» التي أكد استعداده لتقديمها من أجل التوصل إلى سلام (على حد تعبيره) قال : إنه لن يعيد احتلال نابلس واريحا الخاضعتين للحكم الذاتي في الضفة الغربية ! ، وأضاف : أنها تنازلات مؤلمة لأن هذه الأماكن عزيزة على الشعب اليهودي !!

● استمرار السيادة الصهيونية على كامل القدس ، ورفض أي تقسيم للسيادة على الشطر الشرقي الذي احتلته اسرائيل عام ١٩٦٧م ، وقال شارون بعد أن أدلى بصوته في الانتخابات : إنه سيحرص على الحفاظ على القدس عاصمة أبدية للشعب اليهودي .

• لن تزال أية مستوطنة لأن جميعها قائمة في مناطق أمنية يتعين على تل أبيب الإشراف عليها .

• من الضروري أن تكون الدولة الفلسطينية المقرر إقامتها دولة منزوعة السلاح !!

وعلى مدى هذه الخمسين عاماً أو أكثر من الاحتلال وبين المواقف الاجرامية البارزة التي تميزت بها شخصية شارون هناك الكثير من المحطات المماثلة التي برع فيها رئيس الوزراء الصهيوني الجديد مما لم تتح لسلطة باراك مثلها ، واليوم وهو يقف على أعلى سلطة تنفيذية في الكيان الصهيوني سوف يتعاطى مع الفلسطينيين كما كان يتعامل سابقاً بروح ملؤها الحق والعنصرية والكراهية والجريمة. غاية الأمر أن هذه المنطلقات ستتحكم بها بعض الظروف والملابسات المستجدة ، وما

تفرضه طبيعة العمل السياسي ، وما تتحكم به الإرادة الشعبية إن في فلسطين المحتلة المتمثلة في الانتفاضة المستمرة منذ شهور ضد كل الوجود الإسرائيلي في فلسطين أو في المقاومة التي يبديها حزب الله في مواجهة المحتل وتحرير الأرض ؛ هذه العوامل كلها تفرض على شارون أو غيره أن يفكر ألف مرة قبل أن يقدم على غزو قرية كقرية قبية كما فعل قبل خمسين عاماً أو بلد كلبنان كما فعل قبل عشرين عاماً، أو أن يُمعن في قتل الفلسطينيين المقاوم الذي لن يفت عضده أو يخيفه وجود شارون في السلطة أم باراك أم رابين أم غيره ، لأنهم سيّان في نظره ، فكلهم محتلون وكلهم يريدون تكريس الاحتلال وتوسيعه بكل السبل المتاحة . وسوى ذلك هي مناورات سيستخدمها شارون كما استخدمها أسلافه من قبله دون

أي فرق ، أما الدعوات التي توجه إلى الرسميين في المنطقة من قبل الولايات المتحدة أو أوربا في ضرورة إعطاء رئيس الوزراء الجديد الفرصة الكافية لإثبات حسن نيته مثلاً أو العدول عن مواقفه السابقة ؛ فهي تأتي في إطار تدوير المنطقة في دوامات لا نهاية لها وبالتالي إتعبها لكي تقبل بالأمر الواقع كما حصل عندما تهالكت بعض الأنظمة العربية للارتقاء عند أقدام المحتل، والبحث عن سلام زائف يستحيل تحقيقه في ظل الاحتلال، سواء كان شارون على رأسه أو بارك أو أي شخص آخر يحمله لنا المستقبل ، فليس في قاموس المغتصب صقر وحمامة وإنما كلهم ذئاب يقتنصون الفرصة للانقضاض على الفريسة إن أصابتها الغفلة . وقد أثبت الشعب الفلسطيني أنه لم يعد تلك الفريسة التي يمكن القضاء عليها بسهولة ،

لأنه وعى مهازل الساسة وانطلق نحو الهدف، ولن يهدأ له بال حتى يحرر الأرض والمقدسات من براثن المحتلين المغتصبين .

تهويد القدس مفطط صهيوني فطير

مرت عملية تهويد القدس بمراحل خطيرة منذ أن أفلح الصهاينة في إعادة المسألة اليهودية إلى واجهة الأحداث منذ أواخر القرن التاسع عشر وتحديداً منذ انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل السويسرية عام ١٨٩٧م والأحداث تتسارع في تحويل الحلم اليهودي إلى واقع ، وذلك بتظافر عوامل عديدة ساهمت في تحويل المشروع الصهيوني من فكرة حائلة إلى واقع ملموس . حيث إن المخطط الصهيوني لم يكن على أرض الواقع لولا الدعم الاستعماري الغربي، وبالذات بريطانيا التي لم تتردد من توفير

كل مستلزمات المشروع الصهيوني تخطيطاً وتنفيذاً . وعندما شرع اليهود في السعي لإيجاد دولة يهودية في فلسطين لجأوا منذ أول وهلة إلى القوى الأوروبية وبالأخص إلى بريطانيا . حيث أصبحت الحرب العالمية الأولى فرصة مؤاتية لليهود لكي يستخلصوا وعوداً من دول الحلفاء مقابل تقديم المساعدات المالية والخدمات الجاسوسية ، وهكذا وعدت الحكومة البريطانية الصهاينة في الثاني من تشرين الثاني عام ١٩١٧م من خلال وزير خارجيتها بلفور بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين .

وهناك ملاحظة جديرة بالذكر وهي أن بلفور عندما أصدر إعلانه هذا بصورة رسالة اللورد اليهودي «وتشايلد» لم تكن بريطانيا قد احتلت فلسطين بعد ، فسرعان ما أصدرت قوى أوربية

أخرى وعوداً مماثلة لليهود هما معاهدة سايكس بيكو ومعاهدة مكماهون . ثم دخلت القوات البريطانية إلى فلسطين عام ١٩١٧م في التاسع من كانون الأول حيث قامت الحكومة البريطانية بجهود حثيثة للحصول على غطاء الانتداب من عصبة الأمم المتحدة لتنفيذ إعلان وعد بلفور المشؤوم ، حيث أخضعت البلاد إلى موجات من الهجرة اليهودية اللامحدودة فأصبح عدد اليهود في فلسطين من ٥٨ ألف يهودي سنة ١٩١٩م إلى ٦٠٨ آلاف يهودي سنة ١٩٤٦م ، ومن خلال هذا التزايد في العدد ارتفعت عدد المستوطنات الخاصة لليهود دون غيرهم ، حيث كان هذا التزايد من ٧١ مستوطنة إلى ٣٧٣ مستوطنة خلال نفس الفترة المذكورة ، ولم تعلن السلطات البريطانية التزامها بإنشاء وطن لليهود في فلسطين

إلا في ٢٠ شباط عام ١٩٢٠م أي بعد أكثر من سنتين من الاحتلال . وقد قاوم عرب ومسلمو فلسطين احتلال بلادهم وتهويدها منذ اللحظات الأولى ، حيث انفجرت عدة ثورات وانتفاضات شعبية من وقت لآخر معبرة عن رفضها لاحتلال بلادهم وتهويدها ، حيث استمرت من عام ١٩٢٠م إلى عام ١٩٣٩م والتي كانت من أهمها حركة الشيخ عز الدين القسام - والثورة الكبرى خلال ١٩٣٦ - ١٩٣٩م ، والتي سقط خلالها نحو ألف شهيد يقاتلون الجيش البريطاني والعصابات الصهيونية التي سمح لها البريطانيون بالعمل العسكري العلني ضد المسلمين هناك . ومع اقتراب الحرب العالمية الثانية ، كانت بريطانيا قد ضربت بقسوة الثورة الفلسطينية واعتقلت معظم قادتها ، فأنحسرت المقاومة المسلحة في فلسطين بسبب قمع

آلة الحرب البريطانية ... وفي تلك الأثناء نشط الصهاينة على صعيدين ، فوجهوا الإرهاب ضد البريطانيين في فلسطين ، ومارسوا ضغوطاً كبيرة على الحكومتين الأميركية والروسية لتكفلا لهم العدد الكافي من أصوات الجمعية العامة للأمم المتحدة .

غير أن الصهاينة كانوا يبذلون جهوداً كبيرة لتهويد فلسطين منذ اللحظات الأولى بتوجيه عملياتهم الإرهابية ضد مسلمي فلسطين بهدف طرد أكبر عدد منهم من حدود الدولة الصهيونية المقترحة ، وسجل الإرهاب الصهيوني طويلاً وحافلاً بالإجرام والرديلة ضد أبناء فلسطين ...

ويكفي هذه الإشارة إلى برنامجهم الإرهابي الذي أطلقوا عليه اسم عمليات «دالت» في أول نيسان ١٩٤٨م ضد السكان

الفلسطينيين ، حيث قامت السلطات الصهيونية خلال هذه العمليات بالهجوم على ١٤ قرية ومدينة فلسطينية مختارة بعناية، والقصد منها إصابتهم بأقسى أنواع العذاب والإرهاب الذي يتضمن القتل الجماعي وهتك الأعراض لحمل السكان على الفرار من مناطقهم ... ومنذ الساعات الأولى لحرب عام ١٩٤٨م حاول الصهاينة اقتحام القدس والسيطرة عليها حيث جوبهوا بملاحم بطولية من المجاهدين الفلسطينيين لتطهير القدس من الصهاينة ، وكان بالإمكان الحاق الهزيمة بهم لولا التواطؤ الأميركي - الصهيوني والتنسيق مع بعض الحكام المحليين الخونة الذين كانوا في خدمة الصهيونية ضد أبناء الشعب الفلسطيني .

ثم جاء نكبة الخامس من حزيران عام ١٩٦٧م حيث سقطت

جميع المدن الفلسطينية بيد الاحتلال الصهيوني وفي مقدمتها القدس القديمة ، ومن ذلك اليوم أخذ الصهاينة يضعون قضية تهويد القدس بصورة جدية وعلنية في مقدمة سلّم أولوياتهم. وتهويد القدس عملية متكاملة ومخطط لها نفذها الكيان الصهيوني على امتداد فترة الاحتلال ، وقد طالت العملية عدة مستويات إدارية وسياسية وثقافية وتوجّت في العام ١٩٨٠م بوضع القانون الأساسي لمدينة القدس الموحدة والتي اعتبرت القدس بموجبه عاصمة الكيان الصهيوني ، حيث كانت نقطة الانطلاق في عملية التهويد الشاملة ، وأخضعت المدينة قسائونياً وإدارياً للإدارة الاسرائيلية ، بالإضافة إلى هذه الإجراءات الإدارية لعملية التهويد، والاستيطان المكثّف في مدينة القدس وجوارها أحد أهم

المسالك لقلب البنية السكانية في المدينة ، وعملية الاستيطان هذه تتطلب مصادرة أراضي وهدم أحياء ، فوصل الاستملاك والمصادرة ١٠٪ من مساحة القدس القديمة ، وتهجير ٧٤١٣ مواطناً من سكانها ، وأقامت وحدات سكنية لمهاجرين يهود جدد في قلب المدينة ، وتعدّت مراحل الاستيطان إلى خارج المدينة ، وكان أولها عام ١٩٦٨م بإقامة حزام من الأحياء السكنية رغم احتجاجات اليونيسكو على اعتبار أن هذه الإنشاءات الجديدة تشوه معالم المدينة الحضارية ، وقد بلغت الأحياء حتى عام ١٩٨١م تسعة أحياء . ولكن المشروع الاستيطاني الأهم ويتمثل بإقامة القدس الكبرى عاصمة إسرائيل ، وهذا ينص على أن لا يتعدى عدد السكان العرب فيها ٢٥٪ من مجموع السكان العام ، ويمتد توسيع حدود بلدية

القدس إلى منطقة تمتد من رام الله شمالاً إلى بيت لحم جنوباً . ومما يلاحظ في مخطط الاستيطان هذا هو عزل القدس عن التجمعات السكانية الفلسطينية ، ومنعها من النمو والتوسع بالإضافة إلى شطر الضفة الغربية إلى جزئين بما يخدم سياسة الاستيطان الهادفة إلى تمزيق الكثافة السكانية الفلسطينية ، وفي اعتقاد الصهاينة أن القدس لن تصبح عاصمة إسرائيل فعلاً إلا بإعادة الحياة اليهودية إليها ، لذا أتخذت إجراءات عدائية لتغيير معالمها من الناحيتين المادية والروحية ، فصودرت الأملاك وهدّمت المباني ونهبت المخازن ، ونشر الرعب والإرهاب مما اضطر الآلاف من السكان الفلسطينيين إلى النزوح وترك بيوتهم وأموالهم وأرضهم ، كل ذلك يجري بذريعة الحق التاريخي لليهود وإقامة المستوطنات على

أرض الأجداد ، وإلى جانب هذين
المسلكين لعملية التهويد سلكت
مسلكاً آخر أكثر عمقاً بتزوير
التراث الديني المقدس ومسحه
لجعله يتطابق وأساطير وخرافات
تخدم التوجه الصهيوني ، ومن
أجل ذلك كانت المحاولات لهدم
الأقصى بإحراقه أحياناً أو
بتصديعه عبر عمليات التنقيب عن
الآثار للتفتيش عن الهيكل
المزعوم أحياناً أخرى ... ولا
يوجد أيّ شك أن من أول أهداف
العدو الصهيوني هو الاستيلاء
على الأماكن المقدسة، وطمس
جذور الوجود الإسلامي
الفلسطيني .. ولا يخفي الصهاينة
نيّاتهم الشريرة لهدم المسجد
الأقصى والذي فيه قبة الصخرة،
 وإقامة هيكل سليمان المزعوم
فوق أنقاضهما حيث إن الاحتلال
الصهيوني للقدس شجعهم على
الاعتداء على المقدسات الإسلامية
جميعها ، فهم يحاربونها تماماً

كما يحاربون سكان الأرض
المقدسة بهدم المساجد وتدمير
التراث والمعالم التاريخية .
وتحت وطأة الاحتلال
الصهيوني تعرّضت مدينة القدس
إلى العديد من الممارسات الرامية
إلى تهويدها ، وقد حاولت
الجماعات اليهودية المتطرفة
مراراً الاعتداء على الأماكن
المقدسة مدفوعة بأساطير
تلمودية ، ومن أبرز هذه
الجماعات حركة «أمناء الهيكل»
و«حركة كاخ» وكان الإرهابي
كاهانا يقود الجماعة الثانية .
وأول عمل قام به الإرهابي
الحاخام كاهانا الذي كان منتخباً
من قبل ما يسمى «الكنيست»
الصهيوني ، وكان مترئساً
لعصابة مسلحة جديدة هدفها
طرد بقية المسلمين من فلسطين
وإزالة كل المعالم التاريخية
الإسلامية والمسيحية في القدس
وسائر المدن الأخرى ، وقد أعلن

الإرهابي كاهانا أن القدس يجب أن تعلن مدينة محرّمة على غير اليهود، وهذا يعني أمرين: أولهما هدم وإزالة كافة المقدسات الإسلامية والمسيحية القائمة في المدينة وعلى رأسها المسجد الأقصى وكنيسة القيامة، وثانيهما: طرد الفلسطينيين مسلمين ومسيحيين، حيث أكّد هذا الإرهابي مقولته هذد من خلال خطبة قائلاً: «إن تهويد القدس يعني إغلاقها على اليهود، وليس الإعلان عن أنها واقعة تحت سيطرة اليهود فقط».

ومن خلال هذه المأساة التي تعيشها القدس ومن فيها؛ فقد شغلت اهتمام الآخرين بسبب الوضع السيئ والانتهاكات اليهودية لتاريخ وهوية هذه المدينة، حيث أخذ اليهود بالحفر والتنقيب بأمل الحصول على دليل أثري واحد، يثبت سبق تواجد حضارة عبرية في المدينة.

عمليات الحفر والتنقيب هذه بدأت تلقي بظلالٍ ثقيلة على مستقبل العمارة الأثرية الإسلامية، فهم لم يعثروا على شيء له مدلول حضاري عبري، بل هناك حقيقة تقول: إن من عاش منهم في فلسطين؛ إنّما عاش في أحضان حضارة كنعانية عربية، وليس حضارة عبرية كما يدّعون، وهذه واحدة من الحقائق التي تدين العمل اليهودي في الحفر والتنقيب حيث إن علماء الآثار اليهود يعرفون كل تلك الحقائق قبل الشروع في الحفريات، ولكنهم رغم ذلك يستمرون بالعمل لعلهم يجدون شيئاً يؤيد أفكارهم المتطرفة.

وذات مرة تسرّعوا وأعلنوا أنهم عثروا على أحد الحيطان القديمة، ثم عادوا إلى صمتهم بالسرعة نفسها، ويبدو أن آمالهم الضاغطة هي وراء تسرعهم هذا.. صحيح أنهم عثروا على بقايا هذا

الحائط ، ولكنه حائط المسجد الأقصى القديم الذي تهدم نتيجة زلزال عام ١٠٣٣ م . فأعاد الخليفة الفاطمي الظاهر بناء المسجد ، ولكن مع تصغير مساحة المسجد ، ونتيجة لهذا العمل تمّ نقل المسقط الأفقي وأزيل من فوق سطح الأرض ، وبقيت أساساته مطمورة وعثر عليها هؤلاء العلماء الباحثون عن الوهم فاعتقدوا أنهم عثروا على مفاجئة ، ولكن المفاجئة جاءت في كل المراجع والمصادر لتوضيح أنهم على خلاف ما اعتقدوا ، ورغم وضوح هذه الحقائق للصهاينة فإنهم واصلوا حفرياتهم في عقدي الثمانينات والتسعينات دون أن يعثروا على أي شيء .

والسؤال المطروح هو : لماذا كل هذا الإصرار اليهودي والحفريات والحديث عن الهيكل المزعوم ؛ رغم أنهم عجزوا حتى الآن حتى عن تقديم دليل واحد

على ذلك ؟

وللإجابة الدقيقة على هذا السؤال يقول أحد الباحثين المتخصصين : «لتزداد الحقيقة في عقولنا ثباتاً ولنسُق عاملاً واحداً آخر من عوامل كثيرة ومتعددة ، وهذا العامل يمكن التوصل إليه بالعقل المجرد .

ويثبت أن هناك وهماً كبيراً خلف كل الحفريات ، ويجثم على صدر كل القائمين بها ، ويدلّ على أن الهدف الأول من ورائها هو التخريب . وتحت هذا الهدف المركزي بالإمكان درج كل الممارسات الصهيونية المركزية ، وكل المحاولات اليهودية التي يقوم بها المتطرفون من اليهود لتدمير المسجد الأقصى ، وإقامة الهيكل مكانه ، وهنا تكمن خطورة التحدي الصهيوني . وعليه فلا بد من الوقوف بشجاعة بوجه هذا المخطط العدواني ، وعدم السماح له بشق طريقه على كل المستويات ..» .

تركيا

انقرة تفتار طريقاً وعرأ إلى

الاتحاد الاوربي

أزمة تلي أخرى ، هذه هي حال الأوضاع في تركيا منذ فترة ليست بالقصيرة ، أزمات سياسية واقتصادية ودستورية وأمنية ، تظاهرات احتجاجية على خلفية أوضاع غير مستقرة يسودها التوتر ، ويغذي ذلك في كثير من الأحيان الاجراءات والقرارات التي تتخذها الحكومة والتي تصب في خانة الاقتصاد السياسي ، وتقليص مساحة المشاركة السياسية .. وفي مسلسل هذه الأزمات تفجرت الأزمة الاقتصادية الطاحنة ، وبات الاقتصاد التركي مهدداً بالانهيار؛ لولا تدخل صندوق النقد الدولي لحل بعض الأزمة ، وهناك عوامل أدت إلى هذه الأزمة دون تسليط الأضواء عليها ، ومنها تورط مسؤولين كبار في اختلافات

ضخمة حول المشاريع واستثمارها ، وكذلك دور عصابات المافيا وعيبتها بالاقتصاد التركي وتهريب الأموال إلى خارج البلاد ، جعلت الاقتصاد التركي يعاني من أزمة حقيقية تتجه بالبلاد نحو الهاوية . ومن الأزمة الاقتصادية إلى الأزمة السياسية وتفعيلها لمواجهة التيار الإسلامي ؛ حيث تحرك الادعاء العام لحظر نشاط حزب الفضيلة بذريعة كونه حزباً غير مشروع ، تشكّل على أعقاب حلّ حزب الرفاه واتهامه بأنه مركز للأنشطة التخريبية .

وتوجد هناك اعتبارات عديدة أدت إلى تأجيل النظر في قضية حل حزب الفضيلة ، من أهمها : بروز أزمة جديدة شهدتها السجون التركية ، وانعكست على الشارع التركي بصورة مباشرة ، حيث اتسعت الاعتصامات والتمردات والإضراب عن الطعام

داخل هذه السجون بعدما أعلنت الحكومة التركية عن نيتها في تنفيذ خطة اصلاح أوضاع السجون ، والتي تقضي بنقل السجناء من العنابر الكبيرة التي يتسع كل منها لستين سجيناً إلى زنايات صغيرة تتسع لثلاثة أشخاص فقط .. حيث أوضحت الحكومة بأن السجون باتت معقلاً لعصابات الجريمة المنظمة من اليساريين والإسلاميين المتشددین والانفصاليين الأكراد .. لكن الاحتجاجات على خطة الحكومة من قبل السجناء وعشرات الآلاف من المتظاهرين لم تمنعها من تنفيذ خطتها هذه .. وبالفعل فقد شنت حملة دموية على ٢٠ سجيناً على طول البلاد وعرضها استخدمت فيها الجرافات والمدرعات وسيارات الإطفاء وأعداد كبيرة من رجال الشرطة ، وقد أسفرت هذه الحملة عن مقتل ٢٥ سجيناً

بالإضافة إلى جرح أكثر من مائة سجين آخر ..

وقائع هذه الحملة كشفت عن الأسلوب المفرط في القوة التي استخدم لتنفيذ (خطة اصلاح السجون) حيث الجثث والعنابر المدمرة والدماء والسجناء المضربون عن الطعام ، هذه الأمور أثارت استياء وغضب الشارع التركي ومنظمة حقوق الإنسان في داخل تركيا وخارجها، كما ازدادت الانتقادات لسجل الحكومة التركية في مجال حقوق الإنسان من قبل منظمة العفو الدولية والمنظمات الدولية لحقوق الإنسان ، وشهدت العديد من العواصم الاوربية تظاهرات قام بها معارضون أترك منددين بحملة القمع الدموية التي يتعرض لها السجناء .

الحكومة التركية ادّعت أن معظم هؤلاء السجناء قاموا بإحراق أنفسهم ، وقد شكك في

هذا الادعاء ولم يستبعد تورط رجال الشرطة فيها - والسبب الحقيقي في معارضة السجناء وعدم رغبتهم في نقلهم إلى زنانات صغيرة ؛ هو خشيتهم من استفراء سلطات السجون بهم وتعريضهم للضرب والتعذيب ، حيث أعلنت منظمة العفو الدولية في بيان لها دعت فيه السلطات التركية بأن تضمن امتناع قوات الأمن والشرطة عن استخدام القوة المفرطة وتعذيب السجناء وإساءة المعاملة لهم .

السلطات التركية ومن خلال هذه الحملة الدموية ، أرادت أن تعطي لنفسها امتيازاً في ضرب خصومها السياسيين سواء كانوا يساريين أو مسلمين أو أكراداً دون اعتراض من المجتمع الدولي والاتحاد الاوربي أو منظمة العفو وحقوق الإنسان ، بذريعة أن هؤلاء يشكلون خطراً على النظام والأمن القومي للبلاد .. وفي إجراء

للحكومة التركية بإطلاق سراح نصف السجناء ومعظمهم من المجرمين وإبقاء النصف الآخر ومعظمهم من اليساريين والإسلاميين ، عزز الاعتقاد بأن المعسكر العلماني لا يولي أهمية تذكر لا من المجتمع بقدر ما يولي أهمية لتكريس هيمنته على الواقع السياسي وإقصاء الأحزاب والقوى المنافسة ، وفي مقابلات للمواطنين الأتراك عبّروا عن امتعاضهم واستيائهم من أداء الحكومة التي تضيق الخناق على الحريات ، ومنها منع ارتداء الحجاب الإسلامي وإطالة اللحى وطرده ذوي الميول الإسلامية من الوظائف الحكومية ، ناهيك عن استخفاف المعسكر العلماني بالمشاعر الدينية للشعب التركي المسلم ... ومن هذه الممارسات الصلابة تكليف امرأة غير محجبة بإلقاء المواعظ الدينية خلال شهر رمضان من على شاشة التلفزة ،

وإصدار أحد العلمانيين كتاب يتضمن (فتاوى) ما أنزل الله بها من سلطان يخل من ذكرها حتى ألد أعداء الإسلام ، لما فيها من استخفاف واضح بالحشمة والعفة الدينية والأخلاق ولا يخفى أن المعسكر العلماني إنما يعتمد استفزاز مشاعر الشعب الدينية والأخلاقية ظناً منه أن هذا الأسلوب سيقربه درجة للانضمام إلى الاتحاد الأوربي ، وقد وصل الأمر بأحد غلاة العلمانيين الحاقدين على الإسلام وعلى الأخلاق الفاضلة أن يستقبل مجموعة من الشاذين والشاذات جنسياً ، ورغم أن التظاهرات الحاشدة حالت دون نزولهم في أحد الموانئ التركية ، إلا أن السلطات استقبلتهم في مدينة اسطنبول وفرشت لهم البساط الأحمر كدليل الحفاوة البالغة والاستقبال الحار !! وقد انتهز الاتحاد الأوربي هذه

الفرصة لأغراض خبيثة من أبرزها الامعان في إذلال تركيا وجرها إلى المزيد من التبعية والذيلية لأوربا فحدّد ما يجب على الحكومة التركية أن تقوم به من تغييرات سياسية واقتصادية يتعين عليها تنفيذها قبل أن تبدأ مباحثات الانضمام إلى الاتحاد الأوربي، رغم عدم جدّيتهم في تحقيق هذه المطالبات إن لم يكونوا ساهمين فيما وصلت إليه تركيا من تدهور اجتماعي وسياسي، وفي مقدمة هذه المطالبات تحسين سجل تركيا في مجال حقوق الإنسان وإجراء الإصلاحات الدستورية واحترام حقوق الأقليات وتوسيع فضاءات المشاركة السياسية ، حيث يرى المستتبعون السياسيون أن الشروط التي تضمنها ميثاق بروكسل تجعل من المستبعد قبول تركيا في النادي الأوربي رغم قبول ترشيحها في العام

الماضي ولأسباب عديدة منها :
هيمنة العكسر على الحياة
السياسية ، استمرار سياسة خطر
الأحزاب ، فقدان حرية الصحافة
والتعبير عن الرأي وازدحام
السجون التركية بالسجناء
السياسيين ، عدم الاعتراف
بأبسط حقوق الأقليات ، مثل حق
التعليم بلغة الأم لهم ، استمرار
العمليات العسكرية ضد الأكراد
وعدم إلغاء قرار الإعدام ، وعدم
وضع سياسة فعّالة لإصلاح
الاقتصاد ومكافحة الفساد
والجريمة المنظمة .

وحيث ظلّ المعكسر العلماني
يراهن على عبور تركيا إلى أوروبا
وسلخها من محيطها الأقليمي
وهويتها الإسلامية طوال ٧٠ عاماً
ولكن رهاناته باءت بالفشل ، فلا
تركيا وصلت إلى ضفاف أوروبا
ولا هي تحتفظ بمكانتها في آسيا
والعالم الإسلامي ، والشعب
التركي يصارع المخططات

العلمانية المشؤومة الهادفة إلى
سلخه عن هويته الإسلامية .
ونتيجةً لفشل المعكسر العلماني
فإنه ظلّ دوماً يفتعل الأزمات
ويلقي بتبعاتها على قوى داخلية
وأخرى خارجية ، وكل ذلك
لضمان تسلطه على الحياة
السياسية ، إن ذلك سيؤدي حتماً
إلى الاحتقان والتوتر وإبقاء البلد
في دوامة من الصراعات
الداخلية والتوترات الإقليمية رغم
عدم مبالاة المعكسر العلماني
بذلك .

والدليل على ذلك هو انتقال
الأوضاع السياسية والاقتصادية
في هذا البلد من سيء إلى أسوأ ،
وفي الوقت الحاضر هناك العديد
من الأزمات في جعبة غلاة هذا
المعكسر ، فإذا هدأت أزمة فجرّوا
أزمة أخرى . ومما لا يمكن تجاهله
هو تبلور تيار جديد ، حتى في
الوسط العلماني نفسه ، يدعو إلى
إجراء تغييرات جذرية في

الدستور والقوانين لانتشال البلاد من أوضاعها الصعبة .

صحيح أن هذا التيار يصطدم بعقبات كثيرة ولكنه يتزايد وينمو، لاسيما وأن الشعب لم يعد يتحمل استمرار الأوضاع على ماهي عليه ، فهو يطالب بالتغيير ، ومنحه حريات حقيقية بلا وصاية، ومن يتابع إيقاع الشارع التركي يَر ذلك بوضوح.

* * *

□ فرنسا

على فلفيات قرار الجمعية الوطنية الفرنسية والاعتراف بمذابح الأرمن

تعددت التأويلات حول مغزى صدور ذلك الاعتراف المصادق عليه من قبل الجمعية الوطنية الفرنسية بوقوع مذبة ، وتهجير جماعي ضد الأرمن في الأناضول خلال الحرب العالمية الأولى، وبالتحديد عام ١٩١٥م ؛ حيث

تقول المصادر الدبلوماسية التركية : إن اهتمام أعضاء البرلمان الفرنسي بالمشروع الأرمني وفي هذا الوقت بالذات؛ يعود إلى اقتراب موعد الانتخابات المحلية ثم البرلمانية في فرنسا ، أي أن البرلمان الفرنسي لا يهتم بإفساد العلاقات مع تركيا بقدر ما يهتم بالمصالح الانتخابية ، حيث ترى المصادر أن الغاية من إصدار مثل هذا القرار ، وضع عائق جديد أمام انضمام تركيا إلى عضوية الاتحاد الأوروبي، وأن البرلمانات الأوروبية سوف تقوم في الفترة المقبلة بإجراء مماثل تمهيداً للاشتراط على أنقرة قبول الاعتراف بوقوع مذبة ضد الأرمن في الأناضول ؛ من أجل قبول عضويتها في الاتحاد الأوروبي . وبما أن تركيا لا تقبل بمثل هذا الاعتراف ؛ فستكون لدى الاتحاد الأوروبي حجة قوية لرفض هذه العضوية ، وقد بدأت

بوارد بهذا الشأن في بريطانيا أيضاً.

ولتوضيح هذه الحادثة ، لا تنكر تركيا أن أحداثاً دامية وقعت في الأناضول إبان الحرب العالمية الأولى ، ولكنها ترى أن هذه الأحداث وقعت بسبب قيام مجموعات أرمنية مسلحة بتحريض من روسيا وفرنسا بمهاجمة المواطنين العزل من سكان الأناضول وخاصة في ولاية أرضروم ، وأغري ، واغدير وقارص ، الولايات القريبة في أرمنية الحالية ، ووقوع مجازر مروعة تشهد لها المقابر الجماعية في هذه المناطق ، وتضيف أن حكومة العهد التي كانت تحكم تركيا آنذاك اضطرت إلى إرسال وحدات عسكرية إلى المناطق المذكورة لإخماد تمرد المنظمات الإرهابية الأرمنية ، وقامت هذه الوحدات بإنهاء أعمال الإرهاب وترحيل

مجموعات كبيرة من الأرمن المقيمين هناك إلى مناطق أخرى من الإمبراطورية ، وليس خارج حدودها .

واعتبرت الحكومة في ذلك الوقت أن هذه العملية لا تعتبر عملية تهجير تعسفية بل تدبير أمني استدعته ظروف الحالة في ذلك الوقت .

وتستشهد تركيا على ذلك بعدم تعرض المواطنين الأرمن المقيمين بكثافة في المدن الكبيرة ، مثل اسطنبول وأزمير ، إلى أي تدبير أمني أو تهجير أو تشريد ، وتعترف أن أحداثاً مؤسفة وقعت أثناء عملية الترحيل ، ولكنها لم تكن معداً لها من قبل الدولة ، بل من قبل المواطنين الراغبين في الانتقام من قتلة عوائلهم أو أقاربهم . وتنفي تركيا أن مليون أرمني لقوا حتفهم في ذلك الوقت كما جاء بالقرار الصادر من قبل الجمعية

الوطنية الفرنسية . وأشارت الحكومة التركية إلى أن عدد سكان الأناضول آنذاك لا يتجاوز بضعة ملايين ، ومن قوميات متعددة ، ومن ضمنهم الأرمن . فكيف يكون هذا العدد من الذين لقوا حتفهم من الأرمن ؟ وشددت على قيام أهل الاختصاص والمؤرخين بدراسة القضية من جميع جوانبها والاستفادة من الأرشفة بدلاً من اتخاذ البرلمان قرارات سياسية منحازة بهذا الشأن .

ومن جانب آخر قابلت الأوساط الأرمنية في فرنسا وأرمينيا بشكل خاص قرار الجمعية بامتنان بالغ ، وازدحمت الأماكن المخصصة للزوار داخل البرلمان الفرنسي بالمواطنين من أصل أرمني ، حيث استقبلوا القرار بالتصفيق والتهنئات لنجاح اللوبي الأرمني من التأثير لإصدار مثل هذه القرارات .

ومما أثار الانتباه تصريح عضو البرلمان الفرنسي (باتريك) وهو من أصل أرمني والذي سبق له أن تولى مهمة الدفاع عن المتهمين باغتيال عدد من الدبلوماسيين الأتراك في فرنسا حيث صرّح بقوله عقب إعلان القرار : لقد جثا رئيس الوزراء الألماني «فيلي برانت» على ركبته طالباً العفو والصفح بسبب المذابح النازية ضد اليهود ، والآن جاء دور تركيا وسوف لن نسمح لها بالانضمام إلى عضوية الاتحاد الأوروبي ما لم تجث على ركبتها طالبة العفو والصفح من الأرمن على ما ارتكبت بحقهم في الماضي .

ومن جانب آخر فإن ردود الفعل التركية إزاء هذا القرار كانت إعلامية أكثر منه عملية ، حيث صرح رئيس الوزراء التركي «بولند أجويد» سوف نتخذ تدابير ضد فرنسا بسبب المشروع الأرمني،

مشدداً على أن هذه التدابير يجب أن لا تضر بالاقتصاد التركي ويجب اتخاذ قرارات لا تغلب عليها العاطفة وفورة الغضب. والاحتمال الأكبر بأن تركيا سوف تأخذ تدابير على نطاق ضيق يشمل تقليص العلاقات السياسية والاقتصادية واستبعاد الشركات الفرنسية في المناقصات التركية وبالأخص العسكرية ، وإثارة قضايا أخرى مشابهة لهذه القضية المثارة مثل المذابح التي ارتكبتها فرنسا في الجزائر وأفريقيا ... تركيا تخشى من جانبها أن يتكرر ما آل إليه الأمر مع ألمانيا بشأن ادعاءات المذابح النازية ضد اليهود ، لقد بدأ الأمر في ألمانيا بقرار برلماني ثم تحوّل إلى قانون أسفر عن تشكيل محاكم «نورمبرج» الشهيرة ودفع تعويضات مالية ضخمة عن ضحايا ظهر أنّ قسماً منهم لا زال على قيد الحياة . وتخشى

كذلك من الأمر الذي يؤدي بالأرمن وبتهريض من الغرب بالمطالبة أيضاً بأراضٍ ومناطق شرق تركيا .

وأخيراً نود الإشارة إلى نقطة تثير الاستغراب وهي أن الولايات المتحدة وفرنسا وإيطاليا وبريطانيا - وهي الدول التي ناقشت برلماناتها مشروع الاعتراف بما يدعى مذابح الأرمن - دول لها باع طويل في مجال الاستعمار والجريمة والقتل وهضم حقوق البشر ومصادرتها وإبادة الشعوب .

أميركا نفسها أبادت الهنود الحمر سكان القارة الأصليين، وقتلت عشرات الآلاف في فيتنام، واستخدمت من الأسلحة المحرمة دولياً في البوسنة وكوسوفا والعراق .

إيطاليا لم تنس ما فعلته في ليبيا ، وفرنسا التي لازالت أيديها ملطخة بدماء الأبرياء في الجزائر

وبروندي وغيرهما من جراء
استعمارهما لهما .

أما بريطانيا التي تتأهب حالياً
لدمج الأرمن في مراسيمها
التأبينية الرسمية ، فحدث ولا
حرج عن المآسي التي طالت
شعوب البلاد التي استعمرتها
والتي قامت بها الدول المذكورة
أعلاه .

الغريب في هذه الدول التي
تتباكى على أحداث مضى عليها
أكثر من قرن من الزمن لتمحو من
ذاكرتها العدوان الأرمني على
أذربيجان واحتلال مقاطعة
قرهباغ وتشريد مئات الآلاف من
الأذريين الذين لا يزال القسم
الأكبر منهم يعيشون في الخيام
حتى يومنا هذا .

هذه الغرابة تشير مع الأسف
إلى الغطرسة والعنجهية الأوربية
واستمرار النظرة المتعالية تجاه
الشرق وشعوبه المضطهدة .

* * *

□ نفقات التسليح

مليارات لقتل الأصحاء ،

والبيعاء يكثرون

التوترات التي تقع في أكثر من
بقعة من بقاع العالم لا تأتي من
فراغ ، فلها أسبابها المحلية ، ولها
أسبابها الدولية أيضاً ، وتتشعب
هذه الأسباب بدورها إلى مفردات
ينطلق كل منها من مفهوم خاص
يستهدف غاية معينة ، وليس
الهدف في هذا المقال أن
نستعرض الأسباب جميعها بقدر
ما نريد أن نؤشر على أحد هذه
المفاهيم التي ظلت هي المنطلق
الذي يبلور كل الأزمات تقريباً
التي تمر بها بلدان العالم الثالث ،
بل حتى العالم المتطور . وإذا كان
هذا المفهوم قد غاب عن واجهات
الإعلام إلا أنه ظل الهدف المفضل
للإعلام التحليلي لكونه يمثل
الحقيقة أو جانباً كبيراً من الحقيقة .

العنوان الكبير الذي يحمله
المفهوم المشار إليه هو «تسويق

السلاح» ، والجهات التي يهملها الموضوع هي الشركات المنتجة ، ومن ورائها الدول المنتجة ، أي الدول الكبرى ، وإذا لم تبادر إلى إيجاد مسوِّغات التسويق ، فإن ذلك سيصيب جزءاً من اقتصادها بالشلل ، لأن الانتاج سيتباطأ أو يتوقف ، ويترتب على ذلك تسريح عدد كبير من العمال والفنيين وحتى الخبراء العاملين في هذا المجال - كما في حالة روسيا والاتحاد السوفيتي السابق - مما يؤدي إلى تحميل اقتصاد الدولة بحيش من العاطلين عن العمل ، ناهيك عن توقف تدفق العملة الصعبة إلى خزانة الدولة ؛ وعليه فإن البحث عن السوق المناسبة لابد من أن تسبقه إثارة معينة تستطيع استيعاب السلاح المراد تصديره أو تجربته .

في هذا الصدد لدينا أرقام ومعلومات صادرة عن مراكز القرار الأميركية تكشف عن مدى

تأثير الأزمة في الترويج لبضاعة السلاح وإن كنا نعتقد أن هذه العلاقة هي من البداهة بحيث لا تحتاج إلى لغة الأرقام :

في حرب الخليج الفارسي أو حرب تحرير الكويت أو حرب الحلفاء أو سمها ما شئت بلغ الاتفاق العسكري العالمي ذروته ، هذا ما كشفه تقرير للكونغرس الأمريكي حول تجارة السلاح العالمية ، وهو يستعرض حجم صفقات الأسلحة خلال العقد الأخير ، ثم يعقب ويقول : إن مبيعات السلاح خلال هذه السنوات تقل كثيراً عن مستويات الذروة التي سجلت في مطلع التسعينات عقب حرب الخليج الفارسي .

من هذه الفقرة نفهم أن رواج سوق السلاح لا ينحصر فقط في زمن الحرب والأزمة ؛ وإنما بعدها أيضاً بسبب المخاوف التي تنتاب البلدان المتحاربة ، وتقوم

بالتسلح تحسباً من قيام حرب أخرى أو وقوع صراعات من نمط آخر ، وهذا ما يرفع بالتأكيد مبيعات السلاح العالمية لتضرب أرقاماً قياسية ، وتجني الشركات والدول الكبرى أرباحاً خيالية .

ويتأسف واضع التقرير «ريتشارد جريميت» المتخصص في شؤون الدفاع القومي في هيئة أبحاث الكونغرس لوجود انخفاض في الاتجاهات بعد الحرب الباردة وحرب الخليج الفارسي ؛ ولا يهم جريميت ولا غيره أن تكون اقتصاديات البلدان المعنية متضررة جرّاء هذه النفقات الباهضة ؛ ولكن المهم أن يستمر تدفق أموالها إلى الخزينة الأميركية فيقول : ربما يحدث ركود لبعض الوقت ، حيث لا تتوفر السيولة النقدية لكثير من البلدان ، مشيراً إلى التعافي البطيء لآسيا من أزمتها الاقتصادية والمشكلات المالية التي تمر بها

السعودية وهي مشترٍ مهم للأسلحة .

وتبقى الولايات المتحدة على رأس الدول المصدرة للأسلحة كما يقول التقرير بالحرف الواحد: ان الولايات المتحدة احتفظت بهيمنتها على تجارة الأسلحة في العالم بحصولها على ٣٦٪ من سوق المبيعات ، وإن ظلت دول أخرى مثل روسيا التي عقدت صفقات ضخمة مع الصين بل والصين نفسها في مكانة قوية .

وهذا يعني أن الولايات المتحدة هي المستفيد الأول من أية حروب أو أزمات تشهدها أية منطقة في العالم لا سيما المناطق النفطية الثرية ، وبالتالي فإن من مصلحتها أن تخلق الذرائع وتحرض طرفاً ضد آخر بشتى السبل لتدوير مصانع سلاحها وتحريك اقتصادها .

وثمة دراسة أعدتها وزارة الخارجية الأميركية تعالج

الموضوع نفسه ، وتقدم أرقاماً رهيبة على نفقات التسلح العالمي، إذ تقول: إنه بلغ في العام ١٩٩٧م (٨٤٢) مليار دولار.

وكانت حصة الدول المتطورة من الإنفاق العالمي ٦٤ بالمائة في العام نفسه في مقابل ٤٨ بالمائة عام ١٩٨٧م.

أما الدول النامية فازداد إنفاقها كثيراً - حسب الدراسة - ليلبلغ (٢٣٢) مليار دولار في عام ١٩٩٧م، وشكّلت حصتها ٢٨ بالمائة من إجمالي الإنفاق العالمي في مقابل ١٧ بالمائة قبل ذلك بعشر سنوات.

أوروبا الشرقية التي كانت في إنذار أيام الحرب الباردة انخفض انفاقها العسكري من ٣٥ بالمائة عام ١٩٨٧م إلى ٨ بالمائة بعد عشر سنوات ، وفي هذا دلالة واضحة على مدى تأثير مناطق الأزمة في زيادة التسلح وبالتبع الإنفاق العسكري .

كل هذا يحصل ، وكل هذه المليارات تنفق في مجال التسلح. وعلى الأرض الملايين من الجياع الذين لا يجدون ما يسدون به الرمق ، أو يتقون فيه البرد أو يعالجون المرض ، ولا شك في أن هذه الميارات التي تنفق سنوياً على آلة القتل يمكنها أن تشبع بطون الجوعى ، وتكون بالتالي السبب في أن تدب الحياة على وجه البسيطة لا أن تقضي على الملايين في غضون أيام أو ساعات أو حتى دقائق !

* * *

□ أميركا

مصادقية ما أعلنته الحكومة
الأميركية عن سياسيتها الخارجية
أمام الافتبار

مقولة الرئيس الأميركي
الجديد جورج بوش التي شدد
فيها على وجوب التخلي عن لعب

دور شرطي العالم ، يضع الإدارة الأميركية الجديدة أما تساؤلات كثيرة ، من أهّما : هل أن الرئيس الأميركي الجديد قد شخّص الخلل الأساسي في السياسة الأميركية التي بدأت تنعكس سلباً على المصالح الوطنية العليا لبلاده ؟ وهل أن بلاده جادة في معالجة هذا الخلل الذي يحتاج بكل تأكيد إلى وقت ما لإعادة النظر في القضايا الدولية المهمة ؟ كما أن هذه المقولة تترك باب التفاؤل المشوب بالحذر مفتوحاً على مصراعيه حتى يثبت أن إدارة بوش قامت بخطوات عملية في هذا المضممار اتجاه العالم الإسلامي .

وانطلاقاً من هذا ألمح بوش إلى أنه يستعد لإعادة تحديد مفاهيم السياسة الخارجية الأميركية والتي ستبدأ بالعمل في بادئ الأمر بإلغاء عشرات المراكز الخاصة في العالم ، وفي

طليعتها منصب الموفد الخاص إلى الشرق الأوسط ، ويبدو أنهم مستعدون لإلغاء عدد كبير من المبعوثين الخاصين أو المنسقين الخاصين ، وتركز إصلاحات بوش في مجال السياسة الخارجية على فكرة إحجام الولايات المتحدة عن نزعة التدخل في العالم والتي ميّزت عهد سلفه السابق بيل كلنتون .

وقد شكك الرئيس بوش ووزير خارجيته ومستشاره للأمن القومي في حاجة واشنطن إلى إرسال قوات دعم لوجستي للمشاركة في عمليات عسكرية لأهداف إنسانية أو لإرساء الديمقراطية ، كما وسبق أن قرر الرئيس السابق بيل كلنتون بالنسبة لكوسوفا أو سيراليون أو تيمور الشرقية ، وفي هذا الصدد صرح الرئيس بوش في أحد المناظرات التلفزيونية «أنه لا يعتقد أن باستطاعة بلاده إعطاء

كل شيء لجميع في العالم مؤكداً أنه سيكون حذراً إزاء استخدام قوات عسكرية في التدخل في شؤون الأمم والشعوب ، وهذا كلام مجرد للطرح والمناظرة لأن السياسة الأميركية الخارجية أثبتت عكس هذا ، وعلى أية حال فإن الرئيس الأميركي الجديد يواجه عدداً من الملفات الصعبة على الصعيد الخارجي ، حيث تعتبر مسألة الشرق الأوسط وتطورات الأوضاع في الخليج والشراكة مع روسيا والصين والتعاون مع الاتحاد الأوروبي في مجال نشر الصواريخ المضادة للصواريخ، والموقف من التواجد الأميركي في البلقان وغيرها ؛ لمن القضايا المهمة في جدول وأعمال السياسة الخارجية الأميركية .

ويسود اعتقاد بأن الرئيس بوش وإدارته لا يستطيعان التعامل بحيادية مع القضايا الساخنة والملفات المهمة في

العالم نظراً لتغلغل اللوبي الصهيوني داخل دوائر القرار الأميركي والنزعة الرأسمالية التي تحكم الاقتصاد والمصالح لهذا البلد .. وعلى سبيل المثال فإن الولايات المتحدة مضطرة للإبقاء على الأوضاع مضطربة في بعض نقاط العالم الحساسة لتوجد لنفسها المبررات والذرائع التي تتيح لها التدخل سياسياً وعسكرياً في تلك المناطق ، وتضمن لشركات الأسلحة الأميركية أسواقاً تستقبل السلاح الأميركي الذي يدرّ على واشنطن أرباحاً طائلة تجعلها في مقدمة الدول المصدرة للسلاح .

يضاف إلى ذلك رغبتها في ممارسة سياسية ربط الأزمات بعضها مع بعض لاستخدامها ورقة ضغط على الدول والحكومات .

وفي ضوء ضغوط المصالح والتوازنات في العالم يستبعد

حصول أيّ تغيير محسوس في موقف الولايات المتحدة في ظل زعامة الرئيس الجديد جورج بوش. إن الإدارة الأميركية الجديدة ستأخذ وقتاً ليس بالقصير قبل أن تظهر الخطوط العريضة لسياستها الخارجية إزاء الأزمات الحادة للعديد من القضايا الساخنة ، فضلاً عن أن تغيير المناصب التي يعتزم بوش إجرائها لا يعني أن الولايات المتحدة سوف تحدث تغييراً مهماً في سياستها الخارجية ، ولكن الظاهر أن الإدارة الأميركية الجديدة ستعيد النظر في آليات التعامل مع بعض القضايا الدولية ، فبدلاً من الاعتماد على أجهزة أو مبعوثين خاصين فإنها ستلجأ إلى استخدام الأجهزة الرسمية لوزارة الخارجية باعتبار ذلك من صلب واجباتها الأساسية لحلّ مثل هذه القضايا والأزمات ، مهما كانت طويلة ومزمنة ، كما يحصل

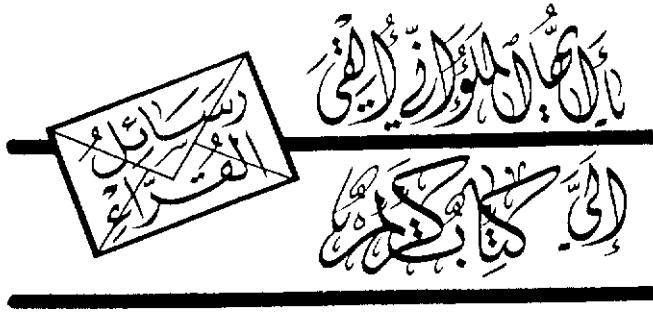
في الشرق الأوسط ، كما أن إعادة النظر في استخدام القوات المسلحة للتدخل في شؤون البلدان أو المناطق خارج الولايات المتحدة ؛ يؤشر إلى رغبة الإدارة الجديدة في رسم الخارطة العسكرية الأميركية في العالم ، وتخفيض النفقات الباهضة عليها وتقليل مخاطر تعرضها إلى هجمات انتقامية ، كما حصل للمدمرة كول في مدينة عدن باليمن أو ما عُرف بانفجار (الخبر) في السعودية ، وتلافي حالة الملل والضجر التي يحصل غالباً لأفراد هذه القوات نتيجة لشعورهم بأن وجودهم في مناطق بعيدة عن بلادهم ليس له ما يبرره .

ومهما تكن الصورة التي ستكون عليها السياسة الأميركية الخارجية فإن أغلب السياسيين والمراقبين في البلدان الإسلامية والعربية يعتقدون أن السياسة

الأميركية لن يطالها التغيير ،
فالموقف الأميركي في قضية
المسلمين الأولى (فلسطين) ما
يزال على ما هو عليه منذ أكثر من
خمس عقود ، فمهما اختلفت
التفاصيل بين إدارة وأخرى لكن
الجميع يلتقون في نقطة مهمة،
وهي حماية إسرائيل والانحياز
لها في صراعها العسكري
والسياسي ، وكذلك الإدارة
الجديدة لا تختلف عن سابقتها
فقد اعتبر جورج بوش الحفاظ
على أمن إسرائيل من أولويات
السياسة الأميركية .

أما موقف الإدارة الأميركية
من منطقة الخليج فما زال
الغموض يخيم عليها في ظل عدم
الإشارة إلى مصير القوات
الأميركية المتواجدة في المنطقة،
والموقف من السياسة التي تشمل
الجمهورية الإسلامية في إيران
والعراق واحتوائهما . في حين
سعت الجمهورية الإسلامية في

إيران ، ومن منطلق الحرص على
المصالح الإسلامية العليا ، على
حث الولايات المتحدة للتخلي عن
السياسة التي أنتهجها الرئيس
السابق بيل كلنتون ، والذي
تنقصه الشجاعة في اتخاذ
القرارات التي تلبي مصالح بلاده،
وتتعارض مع طروحات اللوبي
الصهيوني في أميركا ، ومن بينها
التخلي عن السياسة العدائية ضد
الجمهورية الإسلامية في إيران،
التي أثبتت الأيام بأن لها القدرة
على الاعتماد على قدراتها
وطاقتها الذاتية ، إن الأيام القادمة
ستكشف عن مصداقية القرارات
والتوجهات التي تعتمز واشنطن
اتخاذها لمعالجة السلبيات التي
ورثتها من الإدارات السابقة،
وتحدّد ما إذا كان هذا الادعاء هو
دعاية انتخابية محضة ، أو مساعٍ
جديّة لتحسين صورة الولايات
المتحدة في الخارج عبر سياستها
الخارجية .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«رسالة الثقلين» قوية الأداء.

رفيعة المستوى

الأخ الكريم الشيخ فؤاد
كاظم المقدادي حفظه



الله ورعاه.

السلام عليكم ورحمة الله
وبركاته . وبعد .

كثيرة هي المجالات التي تبدأ
ضعيفة الأداء ثم يشهد ساعدها
ويقوى أدائها بعد ذلك . وكثيراً
أيضاً المجالات التي تبدأ قوية
الأداء ثم ما تلبث أن تضعف وقد
تذبل ثم تموت .

أما أن تنطلق مجلة منذ بدايتها
قوية الأداء رفيعة المستوى ثم
تحافظ رغم مرور السنين على
مستواها الرفيع وأدائها القوي
وإخراجها الفني الجميل، فتلك
ليست حالة نادرة فقط، وإنما هي
حالة فريدة خاصة بمجلة «رسالة
الثقلين» الصادرة عن المجمع
العالمي لأهل البيت (عليه السلام) ، والتي
قاربت أن تطوي العام الثامن
من عمرها المديد إن شاء الله
تعالى .

أقول هذا بعد استلامي للعدد

الواحد والثلاثين للأشهر رجب
رمضان من عام ١٤٢٠ هـ /
١٩٩٩م، وبعد أن تصفحته وجدت
يدي تمتد إلى العدد الأول من
السنة الأولى لشهري مجرم
ورمضان عام ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م
في محاولة للمقارنة بينهما
ورصد مسيرة المجلة ، فماذا
وجدت ؟

الإخراج الفني الجميل هو هو ،
عدد الصفحات هو هو ، مستوى
البحوث هو هو في مستواه
الأعلى، الأبواب الثابتة هي هي ..
وكل ذلك على أفضل ما يمكن أن
يكون.

على ماذا يدل هذا ؟

إنه ليدل بوضوح على حسن
التخطيط والجديّة في العمل
وصدق الالتزام من قبل القائمين
على إصدار المجلة وعلى رأسهم
سماحة المشرف العام الشيخ
محمد علي التسخيري رئيس
رابطة الثقافة والعلاقات
الإسلامية ، وكذلك رئيس التحرير

الشيخ فؤاد كاظم المقدادي وبقية
الاخوة أسرة تحرير المجلة
حفظهم الله تعالى وسدد خطاهم
لإحياء المعارف الإسلامية من
منبع الثقلين ، والدفاع عن حريم
القرآن والسنة الشريفة للرسول
الأمين ﷺ وتراث أهل بيته
الطيبين الطاهرين ، وتكريس
وحدة الأمة الإسلامية وتثبيت
شوكتها في أرجاء العالم .

حفاً - وبدون أدنى مجاملة -
إنها لمجلة فريدة لا مثيل لها بين
المجلات الإسلامية في عالمنا
المعاصر ، وإن أسرة تحريرها
لتستحق كل الشكر على هذا الأداء
الفريد المتميز ، ومع الشكر دعاء
من أعماق القلب بطول العمر مع
دام الصحة وكمال التسديد
والتأييد من الله سبحانه وتعالى،
لتبقى المجلة في مسيرتها الرائدة
وخطها الرسالي .

إبراهيم محمد جواد

شاعر وكاتب من سوريا



عندما قرأت «رسالة الثقلين»

كدت أطيّر فرحاً وسروراً

سعادة الشيخ فؤاد كاظم
المقدادي حفظه الله .

السلام عليكم ورحمة الله
وبركاته.

وبعد، إنه لمن دواعي الغبطة
والسرور أن ألتقي بسعادتكم عبر
هذه الرسالة متمنياً لكم دوام
الصحة والسداد.

سعادة الشيخ ! كيف أُعبر عن
العواطف القلبية والانطباعات
الهائجة في فؤادي على ما تسعون
في نشر رسالة أهل البيت الغر
الميامين وبث تراثهم والوعي
الإسلامي إلى الآفاق المتجسدة
في رسالة الثقلين التي هي مجلة
إسلامية جامعة تحت إشراف
المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام ،
وإن هذه الرسالة لما قرأتها كدت
أن أطيّر فرحاً وسروراً ، فأما لنت
إليها قلبي وخلبت خيالي . وإنني
أهنئ الكتاب الذين يساهمون في
إعداد البحوث التحقيقية ، كما
أشيد باهتمام السادة القائمين

على إبراز المجلة في ثوب قشيب
ومنظر رائع .

إن كاتب هذه السطور طالب
يحمل بين جنباته الحب والغرام
لأهل البيت عليه السلام ، وهو يريد المزيد
من الاضطلاع في التعرف عليهم .

فالرجاء من فضيلة سعادتكم
أن تتكرموا بإرسال المجلة على
عنوان الكاتب، مساندة وحرصاً
منكم على نشر الثقافة الإسلامية .

فجزاكم الله خيراً . وإنني أدعو
الله أن يوفق العاملين على إعداد
المجلة إلى ما فيه الخير والصلاح
للعالم الإسلامي أجمع، وأن
يمتعهم بنعمة الصحة .

هذا، وصلى الله تعالى على
خير خلقه محمد وعلى آله الطيبين
الطاهرين ومن تبعهم بإحسان
إلى يوم الدين، يوم لا ينفع مال ولا
بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

والسلام عليكم ورحمة الله
وبركاته .

أخوكم في الله

عبدالرحيم روزي النوري غواري

بلتستان شمال باكستان

رسالة الثقلين مجلة اسلامية جامعة

قسمة الاشتراك

الاسم :
العنوان :
.....
المدينة :
البلد :
المهنة :
مدة الاشتراك :
ابتداءً من :
.....
عدد النسخ :

بلد
الارسل
الاشتراك
السنوي / لمدة ٦ أشهر

□ الجمهورية الاسلامية
في ايران (بالريال)
□ باقي دول العالم بالدولار
الأميركي
٧٠٠٠ ١٤٠٠٠
١٥ ٣٠
(أو مايعادلها)

١) يرافق اشتراكي □ صك □ صك بريدي □ حوالة بريدية
أرسل هذه القسيمة مع قيمة الاشتراك باسم «رسالة الثقلين» إلى العنوان التالي
«الجمهورية الاسلامية في ايران . قم . ص . ب ٨٩٤ - ٣٧١٨٥

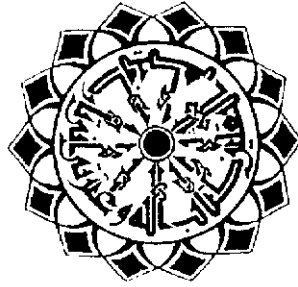
الاشتراكات :

□ داخل الجمهورية الاسلامية في ايران تسدد قيمة الاشتراك السنوي (١٤٠٠٠ ريال) بحوالة مصرفية على
العنوان التالي :
الجمهورية الاسلامية في ايران - طهران - بانك ملی / شعبه ولايت - خيابان فلسطين جنوبی - رقم
الحساب الجاري: ٥٥٩١٦٠٠٦ (بالريال) - مجلة رسالة الثقلين .
□ قيمة الاشتراك السنوي في الخارج (٣٠ دولار أميركي أو ما يعادلها) تسدد بحوالة مصرفية على العنوان
التالي : (جميع فروع بانك ملی في خارج البلاد) .

Bank Melli, Iran : (55916006)

ثمن النسخة :

□ الجمهورية الاسلامية في ايران ٣٥٠٠ ريال □ العراق ١٠ دنانير □ لبنان ٢٥٠٠ ليرة □ سوريا ٥٠ ليرة
□ الاردن دينار واحد □ الكويت دينار واحد □ البحرين دينار واحد □ الامارات ١٥ درهما □ قطر ١٥ ريال
□ عمان ريال واحد □ السعودية ٢٥ ريال □ اليمن ٣٥ ريال □ مصر ٧٥ قرشا □ ليبيا ١٠٠٠ درهم
□ السودان ١٠٠ جنيه □ تونس دينار واحد □ المغرب ١٥ درهما □ الجزائر ١٢ دينار .
□ وفي باقي دول اسيا وإفريقيا وأميركا وأستراليا وأوروبا ٧ دولارات أو ما يعادلها .



AHL UL BAIT
WORLD ASSEMBLY

RISALATUTH - THAQALAYN

A General Islamic Periodical

Vol . 10, No. 37, April - June. 2001